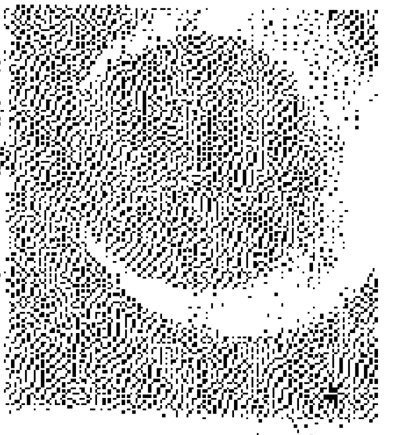


كتاب الهلال

الأبطال

• توماس كارلايل • محمد السباعي

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

نائب رئيس مجلس الإدارة : صبري أبو المجد

رئيس التحرير : د. حسين مونس

سكرتير التحرير : عايد عياد

العدد ٣٢٦ — صفر ١٣٩٨ — فبراير ١٩٧٨

No. 325 — January 1978

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٥٠ قرشا صاغا . فى سائر أنحاء العالم ٦ دولارات أمريكية أو ٥ر٢ جك - والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية والأسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى - وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الأسعار المحددة عند الطلب .

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغــلاف بريشة
الفنان جمال قطب

الأبطال

•

تأليف

كارلايل

ترجمة

محمد السباعي

•

دار الهلال

البطل فى صورة إله

انما يضمنى واياكم هذا المقام وتواليه ، للكلام شيئا عن عظماء الرجال ومظاهرهم على مسارح الحياة ، والأشكال التى تشكلوها فى تاريخ البشر ، وآراء الناس فيهم ، وماذا أحدثوا من الأعمال ــ للكلام عن الأبطال وعما استقبلهم به أهالى أزمانهم وعما صنعوا هم من جلائل الأمور ــ ولعل هذا مبحث عويص لا أرانى موفيه حقه ــ مبحث لعمر الله قصى الغاية ، يشق على نزع الخواطر مرماه ، ويقع وراء جهد الأوهام منتهاه .

وماظنكم بمبحث هوالتاريخ بحذافيره ؟ اذ فى اعتقادى ان التاريخ العام ــ تاريخ ما أحدث الانسان فى هذا العالم ــ انما هو تاريخ من ظهر فى الدنيا من العظماء ، فهم الأئمة ، وهم المكيفون للأمور ، وهم الأسوة والقدوة ، وهم المبدعون لكل ما وفق اليه أهل الدنيا. وكل ما بلغه العالم ، وكل ما تراه قائما فى هذا الوجود كاملا متقنا ، فاعلم انه نتيجة أفكار أولئك العظماء الذين اصطفاهم الله وأرسلهم الى الناس ليؤدى كل ما ناطته به القدرة الالهية من الخير . فروح تاريخ العالم انما هو تاريخ أولئك الفحول ، وظنى أنه مبحث لن يسعه هذا المقام !

بيد أن من اسباب العزاء أن فى ذكرى العظماء ،كيفما كانت ، نفعا وفائدة . والرجل العظيم لايزال بعد موته ينبوع نور يتدفق . فليس أحسن من مجاورته شيء .. نور يضيء ، وكان يضيء ظلمات الحياة . وليس هو كسراج اشتعل ، ولكنما نجم شبته يد الله بين أشباهه من كواكب الأفق ، هو كما قلت ينبوع نور يتدفق بالحكمة ومعانى الرجولة والشرف الكبير ، وهو الذى فى شعاعه انس الأرواح وروح النفوس ومتعة الخواطر. وليس فى ظنى أن احدا منكم يحجم برهة عن ورود تلك المناهل العذبة كيفما كان طريق المورد .

ويقينى ان نظرة فى تواريخ الأبطال الشتى الصنوف الذين أنا آخذ الآن فى سرد سيرهم ، جديرة أن تكون بمثابة نظرة فى مخ تاريخ البشر وصميم لبابه . وما أسعدنى لو استطيع فى مثل هذا العصر الذى ضعف فيه اجلال الرجل للرجل أن أفهمكم شيئا من معانى عظمة الأبطال وجلالهم ، أى من معانى البطولة ، والبطولة فى مذهبى هى العروة المقدسة التى تعقد ما بين الرجل العظيم وبين سائر الناس ، ما أسعدنى لو أتيح لى ذلك ولكنى محاول وباذل مجهودى .

لقد قيل ــ وصدقا ما قيل ــ ان أهم ما فى الرجل دينه ــ والأمة مثل الفرد فى ذلك ــ ولست أذهب بلفظة الدين الى النحلة التى يتخذها الفرد والمذهب الذى ينتسب اليه والقواعد الملية التى يعددها ويشهد بها ، فقد ترى الرجل الذى ذلك شأنه يسفل الى أدنى حضيض اللؤم والخسة على الرغم من شدة تمسكه بقواعد الدين . فهذا ما لا أسميه الدين ، هذه الاقرارات والاعترافات ابعد ما تكون فى الحقيقة

من الدين . اذ هو اعتراف واقرار لم يصـدر الا من ظواهرالرجل وبواديه ــ أعني من ناحية اللسان والقوى البرهانية ــ وذلك أقصى ما عنده .

ولـكن جوهر المسـائل للرجـل والأمر الذى عليه يترتب سائر الأمور هو ذلك الشيء الذى يعتقـده حق الاعتقـاد ويوقن به كل اليقين فيما يتعلق بالروابط الجوهرية التى تربطه بهذا الـكون الجم الأسرار، وفيما يتعلق بواجبه فى هذه الدار ووظيفته ــ ذلك هو دينه ، وربما كان الحاده وكفره ــ هو اعتقاده أنه متصل بعالم الالهيات أو بلا عالم مطلقا ــ فاذا علمت عن الرجل ذلك علمت أى رجل هو وأى شيء يجدر به أن يصنعه فى هذه الحياة .

لذلك كان أول سؤالنا عن الرجل أو الأمة ما ديانته أو ديانتهم ؟ هل هى الوثنيـة أو تعدد الآلهة ــ أعنى تمثيل سر الوجود تمثيلا حسيا وعبادة القوى الطبيعية ــ أم هى النصرانية والاعتقاد بعالم سرى حقيقى وبخلود الروح وارتـكاز الوقت على عالم الأبدية . أعنى بذلك اسـتبدال دولة الأسرار المقدسة التى هى أشرف وأسمى ، بدولة الوثنية وعواملها من قوى الطبيعة أم هى الشك والريبة ؟ هل هناك عالم خفى وسر مجهول أم لا ؟ بل ربما كان الحادا محضا وكفرا مبينا ، فعندى ان الاجابة عن هذا السؤال هو اعطاؤنا روح تاريخ الفرد أو الأمة ، اذ أن أعمال الأمة أو الفرد أنما هى بنـات أفـكارهم . وما نتجت ظواهر الآثار الا من مستسر الضمائر ، ومن ثم أقول ان دين الأمة هو أهم مالديها.

فجدير بنا فى هـذه المحاضرات أن نجعل الوجهة الدينية من اخطر وجوه البحث واكبر اركانه ، فانه

متى أجدنا معرفة هذه برح الخفاء عن كل شيء . وقد جعلنا أول أبطالنا « أودين » الرجل الذى كان يعبده قدماء السويد والنرويج ، وكان قطب دائرة الوثنية فى تلك الأقطار . فلننظر برهة الى البطل فى صورة معبود وهو أقدم أشكال البطولة .

* * *

حقا لقد كانت الوثنية شيئا من أعجب الأشياء لايكاد يتصوره الوهم . وهل كانت الا متكاثفات أضاليل وسخافات وأباطيل قد نبتت فى الحياة الغابرة فالتفت أعياصها ، واستأشبت أدغالها ، وخيمت على أكناف الحياة غواشي قبابها ودواجي ظلالها ! مما لايكاد يصدق به العقل أو يتصوره الوهم أن ناسا عقلاء أيقاظا صاحين يعيشون عيشة كتلك ويعتقدون عقائد كهاتيك . أعني يعبدون رجلا منهم ! لا بل يعبدون الخشب المسندة والأحجار وما اليها من أصناف الحيوان والجماد ، ويصوغون لأنفسهم خليطا مشوشا من كل أضلولة وأبطولة فيحسبونه فلسفة الكون — أما والله ما أحسب كل هذا الا حديث خرافة .

بيد أنه لاشك فى أنهم كانوا يأتون ذلك . كانوا وهم رجال مثلنا يعتقدون تلك الكفريات الفظيعة المنكرة ويطمئنون اليها ويعيشون بها ، عجبا اى عجب ! وخليق بنا أن نطرق مليا ونتأمل والأسف ملء قلوبنا ما يوجد فى نفس الانسان من أعماق الضلال وظلمات الجهل ، فان ما أشرت اليه من مستنكر المدهشات قد كان فى الانسان ولا يزال ، بل هو فى جميع الناس وفينا أيضا.

بين الجدليين جماعة ليس لديهم من القول فى الوثنية الا كلمة واحدة ، اذ يقولون هى باطل وغش ، وانه لم

يؤمن بها عاقل قط وانما هى أكذوبة لفقت لخداع أناس لا يصح ان يسموا عقلاء ! وأرى من الواجب علينا أن ندفع عن الآدميين وعن أعمالهم وتاريخهم أمثال هذا الحكم الجائر . وانى لأدفعه الآن عن الوثنية وعن كل ديانة حاول أن يسير بها الانسان دهرا ما فى هذه الحياة .

فلم يك دين قط الا وفيه عنصر من الحق . ولولا ذلك لما اتخذت أمة من الأمم دينا ما — ولا ننكر أن الأخاديع والأكاذيب تكثر فى الأديان ولا سيما فى عهودها المتأخرة ، اذ يعتورها الوهن والاضمحلال . ولكن الكذب ما كان قط المسبب الأول للأديان — انه ما كان قط للأديان حياة وقوة ، بل كان داءها ونذير آجالها — فاعلموا ذلك أصلحكم الله ولا تنسوه : فانى لأظن ان من شر السفسطة وأخبث الباطل أن يقال ان دينا من اديان المتوحشين كان منشؤه الكذب ، فان الكذب لاينشأ عنه شيء قط وليس من شأنه أن يحدث ويلد ، وإنما من دابه أن يفنى ما أصاب ويقتل كل شيء حتى اننا لو حاولنا ان نحيط علما بأمر ما فأتيناه من ناحية أكاذيبه كان ذلك جديرا أن يخفى عنا حقيقته . وهى ما لاينكشف لنا حتى ننفى تلك الأكاذيب البتة كأنها أمراض ومفاسد واجب على كل امرىء استئصال شأفتها سواء من الأذهان والأعمال . اذ أن الانسان — حيثما كان — عدو الأكاذيب .

بل انى لأرى الحق حتى فى وثنية أهل التبت (من اقاليم الصين) ، اقرأ ما دونه الجهبذ الصادق النظر الصريح القول المستر « تيرنر » فى حديث سفارته الى تلك البلاد تجد ان لهؤلاء المساكين عقيدة أن الله يرسل

كل حين الى الأرض بشرا يمثله ويحمل صورته ، وهو بمثابة اعتقادهم فى بطريق أو بابا أو بمثابة اعتقادهم أن هنالك رجلا هو أفضل الرجال قاطبة ـ وان هـــذا الرجل يمكن الاهتداء الى معرفته من بين سائر القوم : فأما أن الله مرسل فى كل جيل رجلا يمثله فهذا هو الحق الكائن فى عقيدة هؤلاء ، وأما كون هذا الرجل يمكن معرفته من سائر الناس فهذا هو خطأ المذهب المذكور . ولقساوسة هذه الأمة طرق الى اكتشاف الرجل الأفضل من بين سوادهم ليولوه زعامتهم ـ طرق وأيم الله عقيمة ولكنها ليست أعقم من طريقتنا نحن ، اذ لا نفتأ نولى علينا الابن الأكبر من أسرة بعينها (الأسرة الملكية) .. وا أسفاه ! ..

ولكن ارجع الى ذكر الوثنية فأقول انه قد يرجى لنا أن نفهم معنى الوثنية متى سلمنا أولا انها كانت فى حين من الأحيان دينا صحيحا فى اعتقاد أهلها . فلنوقنن كل اليقين أن الناس كانوا يؤمنون بوثنيتهم حق الايمان، ولم يكن بهم ذهول ولا جنون ولا نوم ولا مرض ، بل كانوا مع ذلك أصحاب العقول والحواس ، أيقاظا قد صورهم الله على صورنا ، وخلقهم كخلقنا ، لا فرق بينهم وبيننا بحال من الأحوال . لنوقنن كذلك انا لو كنا وجدنا معهم لآمنا بما كانوا به يؤمنون ، ولكنا وهم سواسية فى سائر الأشياء . واذ قد علمتم منى ذلك فعليكم أن تسألونى : ماذا كانت تلكم الوثنية ؟

يقول آخرون من ذوى الجدل ـ وهو قول أوجه ـ ان منشأ الوثنية هو شعر الشعراء . أعنى أن الشعراء كانوا يرون آراءهم فى الكون ثم يخرجون تلك الآراء والاحساسات فى رموز من الأقاصيص وضروب من

المجاز والتشبيه بالأشخاص والحيوان والجماد ، جريا على قانون أساسي من قوانين النفس البشرية وهو : ان كل ماجرى فى وجدان المرء من احساس شديد لايرى بدأ من اخراجه بواسطة النطق ، ومن رؤيته ممثلا لعينيه فى شيء منظور ، حتى كأنما هو شيء حى ، ذو حقيقة تاريخية .

ولاشك فى أن هنالك قانونا كذلك وانه من أرسخ قوانين النفس البشرية وأرساها وأشدها تأصلا واستمكانا ، ولا شك أيضا فى انه قدكان لذلك القانون دخل عظيم وأثر قوى فى أمر الوثنية . وانى وان شهدت بشيء من الصحة لتلك النظرية التى ترجع بأمر الوثنية كله أو جله الى الرموز الشعرية ، لكنى لا أعدها النظرية الصحيحة . وانى انشدكم الله : هل كنتم قط مؤمنين ومسترشدين فى ظلمات الحياة بقصص ناظم وعبث شاعر ؟ أما وربكم ان الأمر لأخطر من ذلك وأجل ، وأحوج الى الجد منه الى اللعب . ان أمر الحياة من أكبر الجد ، وما أمر الممات وما عساه يحدث بعد الممات بلهو ولا عبث ، بل انه الجد أمر من كل جد ، والحق أمر من كل حق .

فقد رأيت ان أولئك القائلين فى الوثنية بأمر الرموز الشعرية وان كانوا قد أخذوا فى منهج الحق لكنهم لم يبلغوا الغاية . فالوثنية ولا شك رموز شعرية وتمثيل بالمرئيات لما جرى فى وجدان الناس وأذهانهم عن الكون ومظاهره ، وكذلك كل دين انما هو رمز وتمثيل يختلف باختلاف تلك الآراء والاحساسات . ولكنى أرى رأى هذه الفئة رأيا معكوسا بقولهم عن النتيجة انها السبب وعن الغاية انها الأصل .

فان الناس ما كانوا ليجعلوا عمل الأقاصيص الشعرية أول حاجتهم واكبر همهم ، وأنما أكبر همهم هو أن يعرفوا أى عقيدة يتخذون فى هذه الكائنات ، وأى سبيل يسلكون فى تلك الحياة . وماذا يرجون وماذا يخشون ، وماذا يأتون وماذا يتركون .

أ اذا أخرج الشاعر قصة موفقة جعلها رمزا لمعتقدات جيله أتحسب انها أقدم عهدا من تلك المعتقدات ؟ كلا . بل كانت العقائد أولا ثم انشئت القصيدة رمزا اليها وتمثيلا لها . فالعقيدة أصل والشعر صورة ، والعقيدة حقيقة والشعر ظلها ، ثم هو مهما بلغ فى مراتب الجد فانما هو لعب وفكاهة ولهو من عبث الخاطر اذا قيس الى تلك الحقيقة الراسخة فى النفوس التى يحاول به تمثيلها . فقصارى القول ان الرموز الشعرية هى نتيجة الحقيقة لا مسببها ، فعلينا اذن فى شأن الوثنية أن نبحث من أين جاءت هذه الحقيقة ــ وماذا كانت ؟



تذكرون ماتوهمه أفلاطون من أنه لو ولد انسان فى حجرة فى جوف الأرض ، فترك ثمة حتى بلغ أشده وكمل عقله ثم أخرج بغتة الى ظاهر الأرض فاذا الشمس بارزة فى موكب لألائها . ماذا يبلغ به العجب والاندهاش من منظر لا نبرح نراه فلا يحرك فينا ساكنا ؟ ولكن ذلك الرجل يراه بعينى طفل قد برأهما الله من شوائب أكدار الحياة ، فرؤيتهما فى منتهى الصفاء . ثم يراه كذلك بعقل ناضج ، فليس عجيبا أن يرقص قلبه طربا لذلك المنظر الباهر . ثم ينفذ بصره الثاقب الى ما أودع الله ذاك المشهد من روعة الجلال فيخر له ساجدا . فاعلموا معشر الاخوان ان أول رجل مفكر بين شعوب

المتوحشين ـ أول انسان بدأ يفكر انما هو كذلك الانسان الذى تخيله أفلاطون جامعا فى طبيعته بين الطفولة والرجولة .

كذلك كان أول المفكرين من قبائل المتوحشين ساذجا صريح الطبع كالطفل مع قوة الرجل وعمقه ، كانت الطبيعة أمامه بلا اسم ، ولم يكن قد حصر ذلك الكون العديم النهاية وما به من شتى المناظر والأصوات والأشكال والحركات العديمة العدد فى اسم مركب من ثلاثة أحرف كما فعلنا نحن حينما سميناه « كونا » و « طبيعة » وما شاكل ذلك . فطوينا جلاله العظيم فى اثناء لفظ حقير . ولكن الرجل المتوحش كان كل شىء جديدا فى نظره ، لم تخفه عنه حجب الأسماء والألقاب ، عاريا أمامه ساطعا لعينيه مشرق الرونق سافر الحسن وضاء الجمال يحار فى كنهه الوهم ويعجز عن وصفه اللسان . فتأثير جلال الكون فى نفس ذلك الانسان القديم المتوحش (المفكر) كتأثيره فى نفس الشاعر أو الفيلسوف أو النبى فى العصور الأخرى .

نعم ، أيها الاخوان ، أن للكون لو تدبر الانسان واعتبر لموقعا فى النفس أى موقع ، وروعة فى القلب أى روعة . تلكم الأرض الخضراء مبسوطها وحالقها ، وما يهتز عليها من ملتف النبات ومعشوشب الروض ، وتلكم الجبال الراسيات ، والأنهار الجاريات ، والبحار ذات الجرجرة والضجيج ، والجلجلة والعجيج ، وقبة الفلك الزرقاء تعزف فى أجوائها كل عصافة هوجاء تحدو من السحب كل دجنة وطفاء ، آنا تسح بالديمة المدرار ، وآونة بدفع الحريق وصواعق النار .. ما هذا أيها الاخوان ؟ بلى ما هذه ؟ أما ظاهرها فقد عرف العالم

عنه شيئا ، وأما الباطن فلا وربكم ما عرف ولن يعرف.

هـــذا سر عميق لا ينفع معه علم عالم ولا تجربة كيماوى ، انما أولى بالمرء فى مثل هـذا المقام الاذعان والخشوع ، وللجهل هنا أفيد من العلم ، وما يستفيده المتوحش الجاهل من جمال الطبيعة بشعوره لأكثر مما يكتسبه المتمدين العالم بمنظاره وكيمائه . ماذا صـنع العلماء فى أسرار الـكون الا أنهم زادوها خفاء واكتتاما بالباسها براقع من الأسماء والاصطلاحات ؟ هم يسمون البرق كهرباء ، ويلقون الدروس والمحاضرات فى ذلك ثم يولدون مثال هذا البرق من الزجاج والحرير.. ولكن ما هو ذلك البرق ؟ وما الذى أحدثه ؟ ومن أين جاء ؟ وأيان يذهب؟ لا أكذب الله ، قد أظهر العلم أشياءكثيرة ولـكن بئس ذلك العلم الذى يريد أن يحجب عنا جلال ذلك الـكون الرائع الذى يتضاءل العلم فىحضرته ويذل لعزته وعظمته ويطفو على جوه الهائل كريشة فى مهب الريح ، والحق يقال يا اخوانى ان هـذا الـكون على الرغم من العلم ودعواه لايزال عجيبة العجائب ومعجزة المعجزات .

بل كفى بالزمن معجزة ــ بذلك الشىء الفائق العـد والحصر، الدائم الـكر والمر، المستمر الصمت والسكون، دائبا يجرى ويتدفق متعجلا ساكتا كتيار البحرالزاخر حيث نطفو فوقه ، وسائر الـكون كخيالات تظهر ثم تغيب ، وأنفاس لا تكاد تصدر حتى تبيد .

أما كفانا بذلك معجزة ؟ أليس ذلك جديرا أن يلجم السنتنا فلا ننطق ؟ وبماذا ننطق ؟ بالله .. هذا الـكون الهائل ماذا كان يستطيع المتوحش القديم أن يفهم منه؟ وماذا عسانا نحن نفهم منه ؟ أليس أقصى ما نستطيع

ان نعلم عنه أنه قوة مركبة من ألف ألف قوة ، وانه شيء ونحن شيء آخر؟ هذا كل ما يمكننا معرفته. الكون شيء ونحن شيء غيره .. قوة في قوة في قوة ، فحيثما القيت البصر قوة ، ونحن بين هذه القوى المختلفة قوة مجهولة خفية ، وليست ورقة ملقاة على ظهر الطريق تعفن بعد الذبول الا وفيها قوة ، والا فكيف كان يتأتى لها أن تعفن ؟

ولعمرى ماذا يقول الملحد المفكر (ولا اخال الالحاد والتفكير يجتمعان) في هذه القوى الفعالة الدائبة المحدقة بنا لا تكل ولا تنى ولا تفتر ولا أول لها ولا آخر ولا مبدأ ولا نهاية ؟ ماذا يقول فيها الا انها معجزة رائعة ، وقد يتساءل عنها المؤمنون فيقول أحدهم لأخيه : هى صنع الخالق ! ثم يجيء العلم بمنظاره وآلاته فيجعل يقلبها ويديرها كأنما هى جثة ميتة توضع فى الزجاجات وتباع فى الحوانيت . ولكن العقل الانسانى السليم الفطرة ما زال يرى فى هذا الكون شيئا حيا — شيئا يحار فيه الذهن ، الهى المرجع ، أولى الأشياء بنا ازاءه — مهما بلغ علمنا — أن نحنى الرأس له اجلالا ، وننكس البصر خشية ومهابة ، ونعبد ان لم يكن بالمنطق فبالصمت !

وكذلك كان شأن الانسان القديم المتوحش ازاء هذا الكون الباهر . فقد كانت عين فؤاده ثاقبة الرؤية جلية الانسان لم تغشها حجب الكفريات ولم تتراكم أمامها سحب الاصطلاحات والعلميات ، فكان الكون فى نظره الهى بالنسبة ، بل هو الاله ذاته . أما تنظر الى ذاك المتوحش الغابر اذ يعسف البيد والفلوات قد ضل السبيل ، فاذا الكوكب الوقاد قد طلع له كأنه ماسة

تلتهب بلألاء ابهر مما يرى أهل هذه العصور ، فيضيء فؤاد ذلك الضال كما يضيء له السبيل ، ويشرق فى نواحى نفسه كما يشرق فى نواحى الأفق وكأنه مقلة فى وجه السماء تنظر اليه من أعماق الأبدية وتشف له عن رونق السر القديم ونور اليقين . الا تفهمون بعد ذلك كله كيف كان المتوحشون يعبدون النجم ويصيرون من نسميهم : عباد الكواكب ؟

هذا هو ما أراه سر الوثنية . اعنى افراط العجب والاندهاش من الشيء حتى يصير تقديسا وعبادة . وكذلك كان كل شيء فى نظر أولئك الأقدمين رمزا الى شيء الهى أو الى اله .

وهل ينكر أن فى فعل الأقدمين هذا عنصرا من الحق؟ أفلو دققنا النظر له ، أما كنا نبصره فى كل نجم بل فى كل زهرة الها ظاهرا ؟ نحن لا نعبد الله الآن على هذا النحو ولكن ، الا يزال من مزايا الشاعر والدلائل على شاعريته انه يرى فى كل مخلوق جمالا الهيا .. وان كل شيء صاغته يد الله انما هو نافذة يشرف منها على أعماق الأبد ؟

نحن نسمى من كان له قدرة على استجلاء غوامض الجمال فى كائنات الله شاعرا ومصورا ونابغة وعبقريا.. فهل كان القدماء المتوحشون الا كذلك ؟ الم يكونوا والشعراء سواء فى تعرف بدائع الخليقة ؟ وان لم ينطقوا بالقصيد ، أليس عملهم هذا أحسن على كل حال من عمل الرجل الجامد البليد ومن عمل الحصان والجمل ، وما أدراك ما عملهم ؟ هو لا شيء !

واذا كان كل ما نراه هو رمزا من رموز الخالق ، اذن فأكبر رموز الخالق وأعظمها هو الانسان . ان جوهر

النفس الانسانية وذلك السر الكائن فينا الذى يسمى نفسه «أنا» ــ وا خجلاه ما أجرأنا على صياغة الألفاظ لمعان تضمحل فى سعتها الآفاق ــ هذه النفس هى نفس من الله ، وكذلك الانسان هو مظهر الخالق فى الأرض . اليس هذا الجسم وهذه الحياة البشرية لباسا لذلك السر المجهول الذى نسميه الله ؟

قال الصالح « نوفيلا » : ليس فى طول الكون وعرضه الا معبد واحد وهذا هو جسم الانسان . وحقا لاشىء أقدس من هذه الذات الشريفة ، وما الركوع بين أيدى الرجال الا خشوع للذات الالهية بادية فى صورة الانسان ، فاما لمست جسم انسان فقد وضعت يدك على عرش الله ! وهذا الكلام حق لو تدبرتموه بالفكر الثاقب . كيف لا ونحن المعجزة الكبرى وسر الله الذى لاينال ــ ولا طاقة لنا بفهمه ، ولا ندرى كيف نتكلم فيه ، بيد انه قد يمكننا أن نعلم ذلك عنه ان شئنا ، وحسبنا بذلك وكفى .

هذه حقائق كان الأقدمون أسرع الى ادراكها منا نحن . نعم ، ان الأقدمين أولئك الذين كانوا يجمعون الى صفاء أنفس الأطفال عمق أرواح الرجال الذين لم يحسبوا أنهم قتلوا الأرض والسماء دراية وعرفوا كل شىء بمجرد وضع الأسماء والاصطلاحات ، ولكنهم كانوا بدلا من اللغو واللغط فى شأن الكائنات ينظرون اليها وجها لوجه والروع والاجلال حشو قلوبهم . أولئك كانوا أفهم لآيات الله فى كونه ، وأدرك لسر الله فى عبيده . هم كانوا يعرفون ــ ولا بأس فى عقولهم ــ كيف يعبدون الطبيعة ، واحسن من ذلك عرفانهم كيف يعبدون الانسان . واعنى بالعبادة كما قدمت : الافراط فى العجب والاجلال

الى ما لانهاية له ، وذلك ما كان فى طاقتهم اتيانه من سويداوات أفئدتهم وعقولهم كأوفر ما يكون وارجح .

وظنى أن عبادة الأبطال قدكانت أشرف أركان الوثنية وأكرم عناصرها ، وان مذهب الوثنية الذى شبهته بغابة ملتفة قد نبتت من عدة جذور . فكل اجلال لكوكب من الكواكب أو شيء من الكائنات كان كأنه أحد جذور تلك الغابة، ولكن أجلال الأبطال هو أذهب تلك الجذور فى الثرى ، وأغزرها مادة ، وأعودها على سائر الجذور بالغذاء الطيب .

واذا كانت عبادة النجم لم تخل من حكمة فما بالك بعبادة البطل ! وعبادة البطل هى ، كما قلت ، الافراط فى اجلاله افراطا لا حد له . ولا أحسب الا أن الأبطال ما برحوا موضع اجلال الناس حتى فى هذه العصور ، وانه لم يجل فى صدر الانسان معنى أشرف من اجلاله لمن هو اعظم قدرا منه . ولست بمخطىء ان قلت ان هذا المعنى هو الأثر الفعال فى حياة الانسان ، أو قلت انه الأساس الذى يقوم عليه الدين . لا أقصد الوثنية وحدها ، بل كل دين أشرف وأصدق — كل دين كان الى وقتنا هذا ، وهل ترون معشر الاخوان فى ديننا النصرانية ألا أنها عبادة واعجاب من صميم اللب وضراعة وخشوع لذات انسانية علية الهية هى ذات أشرف الأبطال قاطبة .. ذات من لا أسميه هنا ! بل أدع الصمت المقدس يتدبر ذلك الأمر المقدس .

واذا انحدرنا من قمة الدين الى منازل أحط وأدنى ، وجدنا فى جميعها من احترام الوضيع للشريف وولاء الحقير للجليل ما يماثل الايمان فى الدين . اذ الايمان انما هو الولاء لنبى أو بطل مقدس . وماذا ترى ولاء

الصغير للكبير الذى روح المجتمع الا فرعا من عبادة الأبطال ؟

فعبادة الأبطال اذن هى أساس المجتمع والرتب والدرج الذى يقوم عليه التعاشر والتواصل . هى ما يجوز أن نسميه « هيروارکی » أى حكومة الأبطال . فأهل الدرج والرتب فى الأمة هم لها بمثابة الأوراق المالية ، كلها يمثل الذهب وان كان الكثير منها لسوء الحظ مزورا . فقد نحتمل الأوراق المالية ونعيش بها وان وجد بينها المزور ، فأما أن تكون كلها مزورة فذلك ما لايقام عليه ولا يحتمل ، اذن تثور الفتن وتقوم الثائرات ويصاح بالديموقراطية والحرية والمساواة وغيرها .. اذ متى وجد الناس الأوراق كلها مزورة ، لاينال بها من الذهب كثير ولا قليل أخذهم اليأس فأقبلوا يصيحون : لا ذهب ولم يكن قط ذهب . والحقيقة ان الذهب ــ واعنى به عبادة البطل ــ موجود برغم كل شيء فى كل آن وكل بقعة ، ولن يفنى حتى يفنى الانسان .

فشا فى هذا العصر رأى باطل هو انكار وجود الأبطال، بل كراهة وجود الأبطال . أذكر لمعشر النقاد بطلا ــ الامام « لوثر » مثلا فاذا هم قد انبروا ينتقدونه ــ لايأخذون فى اجلاله بل فى أخذ مقاسه ، ويسفر المقاس عنه رجلا عاديا ضعيفا ضئيلا ! ثم يقولون ان ما ينسب اليه من العظمة هو مستعار من أحوال عصره وظروف وقته . فالوقت هو الذى أحدثه وشهره ، هو ابن الوقت وكل ماجرى على يديه هو من فعل الوقت لا فعله ــ هذا والله افن وسخف . أيقول النقاد ان الوقت هو الذى أحدث ذلكم الرجل ؟ وا أسفاه ! لقد طالما صاحت الأوقات تنادى أين البطل ولا بطل ، أين العظيم

ولا عظيم ، تصرخ الأوقات يا للفتى فيــذهب نداؤها صيحة فى واد ونفخة فى رماد . وما ذاك الا أن البطل أو الفتى لم يكن وقت النداء موجودا ولم يكن الله قد أرسله رحمة للعالم ، وبعد أن يبح صــوت الوقت ولا مجيب تنهار أركانه وينهدم بنيانه ويعمه الخراب والتلف لأن البطل لم يدركه حينما صاح يستنجده !

والحقيقة انه ما كان عصر من العصور ليخرب ويتلف لو قد أتيح له رجل كبير يجمع بين العقل والتقوى — بين عقل يعرف به حاجة العصر وعزم يمضى به فى ابلاغ العصر حاجته ، وفى هــذين صــلاح العصر وفلاحه . ولــكنى أشبه العصور الضعيفة الواهنة ، المصابة بالكفر والبلاء والحيرة ، وأذهانها الشاكة العاجزة ، وأحوالها المختلطة المضطربة ، يحدو بها سائق الشقاء الى غاية التلف — أشبه كل هــذا بحطب يابس ميت ينتظر من السماء شهابا يشعله . وما الرجل العظيم ، مرسلا من قوس الله ، يجيش فى صــدره العزم ويغلى فى عروقه البأس ، الا ذلــكم الشهاب .. وما كلمته الا شفاء الغلة والتئام الجرح ومجمع الأهواء ومستقر العقــائد ، ثم لا يصيب الحطب حتى يلتهب من كل جانب نارا كناره.

ولــكن المنتقد يحسب أن الحطب هو الذى أوجــد ذلك الشهاب . نحن لا ننكر أن الحطب كان فى شــدة الحاجة الي الشهاب ، فأما انه أوجد الشهاب ! بالله من سخافة أولئك النقاد وحمقهم . اما انه ليس أدل على حطة امرىء ولؤمه من عدم ايمانه بالعظماء ، ليس ادل على خسة جيل من الأجيال وضعته ، من عماه عن نور الله المقدس ، وايمانه بالحطب اليابس الميت . هذا والله اقصى منتهى الــكفر ، اذ ان الرجل العظيم مابرح

فى كل آن مستنقذ جيله من وهدة البؤس ، والشهاب الذى لولاه ماشبت النار فى الحطب. وليس تاريخ العالم الا كما قلت : مجموع سير أبطاله .

أولئك النقاد الأصاغر يبذلون الجهد فى ترويج سوق الكفر ونشر أعلام الضلال ولكنهم لايفلحون . اذ ما زال يظهر الرجل العظيم من آن الى آن ، فيرمى بحقه باطلهم فاذا هو زاهق ، واذا هم قد ظلوا من مذاهبهم فى مثل بيت العنكبوت أو أوهى ، ثم لن يستطيعوا مهما حاولوا أن يقتلعوا من قلوب الناس عقيدة هى ان اجلال العظماء فطرية فى طبيعة الانسان لا تزول مهما اعتورها من الفساد والوهن ، واجلال العظماء باق ما بقى الانسان .

فالكاتب جونسون له من صديقه بوزويل أضرع مقدس ومجل ، رغم انهما كانا فى القرن الثامن عشرأشد العصوركفرا وفجورا . والأمة الفرنسية الكافرة تؤمن بفولتيرها ، وتظهر عبادتها الأبطال فى أغرب صورة حينما أمطروه بالأزهار حتى كاد يغرق بينها ويختنق بها . فحقا اذا كانت النصرانية اعلى أنواع تقديس البطل ، فان الفولتيرية من أسفل انواعه ! فما أعجبه أن يقع ذلك التقديس وتلك العبادة لرجل كانت حياته نقيض حياة المسيح ، وكان شيطانا مريدا ؟ هذا مع ان أبعد الناس من فضيلة التقديس والاجلال هم فرنسيو هذا الجيل .

وما ظنك بقوم كان الاستهزاء بكل شىء مذهبهم وشعارهم ، فليس فى نفوسهم موضع للاجلال والاكبار ومع هذا فانظروا كيف كان صنيعهم بفولتير . يدخل فولتير باريس عائدا من رحلة طويلة شيخا فانيا متهدما

قد جاوز الرابعة والثمانين فيحسون انه نوع من الأبطال أمضى حياته فى محاربة الضلال والظلم وكشف أمور المنافقين من أرباب المناصب ــ انه بالاختصار ممن جاهد جهاد الأبطال وان لم يسلك فى ذلك الا خطة غريبة .

نعم ، انهم يحسون انه اذا كان الاستهزاء هو أكبر الأمور ، ففولتير اذن هو أكبر الناس ــ هو الامام الأعظم الذى يقتفون اثره ويتطلبون منزلته . فهو فى الحقيقة الهمم الذى لا يصلح الا لهم ولا يصلحون الا له ، ولذلك عبدته فرنسا من الملكة مارى انطوانيت الى الحارس الذى على باب « سانت دينيس » ، بل لقد جعل الرجال من أولى المنزلة والجاه يتنكرون فى أزياء خدم الفنادق لتسهل لهم رؤيته ، ويصيح الحوذى بفرسه : اسعدى أيتها الفرس فانك تسيرين بالمسيو فولتير . وقد شبه أحد كتابهم تلك المركبة تخترق باريس براس مذنب (نجم ذى ذيل) قد ملأ جميع الطرقات ذيله ، ثم كانت السيدات يتسابقن لأخذ شعرة من فروته لتبقى لمن تفوز بها أثرا طاهرا وذخرا ثمينا ، ولم يكن بين سكان فرنسا من شريف أو فاضل أو جميل الا كان يعتقد أن فولتير أشرف وأفضل واجمل .

أجل ، ان البطل ما زال معبودا منذ « أودين » الى « جونسون » ومن المسيح الى أحقر قسيس فى كل مكان وزمان ، وسيكون ذلك ما دام الليل والنهار . لأنه مامنا الا من يعشق الأبطال ــ يعشقهم ويجلهم وينحنى اكبارا لهم . وهل ينبغى الانحناء لغيرهم ؟ بل الا يحس المرء ان فى اجلاله لمن هو أرفع منه رفعة لنفسه ؟ وهل جال فى صدر المرء احساس هو أشرف من ذلك وأقدس ؟

وانه ليسرني ويشفي نفسي انه ليس في طاقة السفسطة والاستهزاء والفجور والجحود ان تذهب من نفس الانسان تلك الغريزة الفطرية ــ عبادة الأبطال . هذا وان أجيال الكفر التى تعقبها الفتن والثورات تكون مملوءة بدلائل الاضمحلال والبلى والخراب ، وانى لأرى فى غريزة عبادة الأبطال الصخرة الراسخة التى تتلقى الدول الساقطة فى مهاويها فتمنعها من الضياع فى أعماق الخراب، فاذا انتهت الدولة المتدهورة الى تلك الصخرة وقفت بها ريثما تهيىء نفسها للنهوض ثم تشرع ترتقى وتصعد حتى تعود الى أحسن مما كانت عليه .. وهكذا يظهر لى ان عبادة الانسان للبطل هى الصخرة الحية وسط كل سقوط وتدهور ــ هي النقطة الوحيدة الثابتة فى التاريخ الثورى الحديث والا كان هذا التاريخ كالبحر لا يعرف عمقه قرارا ، ولا تعرف سعته شاطئا .

كذلك أجد ان الوثنية روحها الحق وان كان لها ظاهر مشوه . كيف لا والطبيعة ما زالت مظهر صنع الله ، وما زال البطل يعبد . ومن هذا وذاك تألفت الوثنية وان اتخذت من الأشكال والأوضاع الحقير والمنكر، وظنى ان وثنية قدماء النرويج أمتع لنا من كل ما عداها لأنها (أولا) آخر الوثنيات عهداً ، اذ بقيت مستمرة حتى القرن الحادى عشر ، فمنذ ثمانمائة عام كان أهل الاسكانديناڤيا يعبدون « أودين » . ثم هى هامة لنا من حيث انها ديانة آبائنا ، أولئك الذين ما برحت دماؤهم جارية فى عروقنا ، والذين نشبههم فى عدة وجوه . فعجبا أيها الاخوان ان يكون بين معتقدهم ومعتقدنا ذلك الخلاف .

« وبعد » فلنلق نظرة فى عقائد أولئك القوم لجملة

أسباب ، ولنعلم ان ذلك من الممكن ثم من السهل ، لأن تاريخ هذه العقائد قد قدر له الحظ ، فسلم على تقلبات الدهور وغوائل الحدثان .

* * *

في تلك الجزيرة العجيبة المسماة « ايسلاندة » التى يخبر علماء الأرض انه استثارها زلزال نارى من قعر البحر — وهى بقعة موحشة بباب جرداء يشوب أديمها تراب البراكين ومن خواصها أنها تبقى بضعة من اشهر العام مطوية فى أجواف العواصف السوداء الا أن لها مع ذلك فى فصل الصيف لالاء جمال موحش قفر — وهى وسط العباب الخضم تسمو صعدا مكفهرة الجبين جهمة الطلعة ، تبدو بها لمع الثلج كتفاريق الشيب فى الهامة الشمطاء ، وتفور فيها الينابيع الحارة حتى تثر مراجلها وتهدر (شقاشقها) الى غدران من سائل الكبريت وكهوف بركانية مظلمة فكأنما الجزيرة آثار معترك لمتكافح جيوش الجليد والنار — فى هذه الجزيرة ، وهى أبعد مايرجى أن يكون به تاريخ مرقوم ، عثر العاثرون على تاريخ الوثنية التى نحن بصددها .

وعلى شاطىء هذه الجزيرة القفر مستدق من تربة معشبة قد تعيش فيها الأنعام والانسان من خير هاتيك النعم ومما يجود به اليم ، وكأنما كان ناس هذه البقعة المخصبة قوما شعراء ، أعنى ذوى صدور جياشة بالمعانى ، وألسنة بها ناطقة ، فكلما تأملت علمت انه كان يفوتنا شىء كثير لو لم تبعث البراكين تلك الجزيرة من قعر المحيط ، فلم يعمرها طوائف الأسكانديناف ! اذ الحقيقة ان معظم شعراء الشمال القدماء كانوا من أهالى « ايسلاندة » .

وكان بالجـزيرة فى أوائل أمر المسيحيـة قسيس نصرانى يدعى « سيمند » لعله كان لايزال ينزع به عرق الى دين آبائه « الوثنية » فأخذ يجمع عددا من اغانيهم القديمة ـ مما قد طال عليه القدم فأمسى حوشيا مهجورا ـ وكان توحيديا صوفيا عليه مسحة دينية . وهذه المجموعة هى ما يسميه أدباء الشمال الـ «الالدار» أو الـ « ادا » الشعرية ، وهى كلمة مشكوك فى اشتقاقها لعل المراد بها « السلف » . وبعد قرن من ذلك جاء رجل من سادة الجزيرة يدعى « سنورو سترلسون » وكان قد تلقى العلم من حفيد القسيس « سيمنـد » فكتب فيما كتب تاريخا حافلا لعقائد الوثنية وجعـله نثرا مفصلا بشذور من النظم ، فجاء كتابا بديعا مونقا بريئا من كل أثر للتعمـل والـكلفة ، وهو ما نسميه « عفو الخاطر » . وهذا الـكتاب هو المسمى بالـ « ادا النثرية » .

فبفضل هذين المؤلفين وشتى أغانى غيرهما ، جلها « ايسلندى » ، وبفضل ماكتب عن جميعها من الشروح والحواشي بين « ايسلندى » وغير ايسلنـدى مما هو للآن مستمر فى البلاد الشمالية ، قد نستطيع أن نعرف بعض اليقين ونبصر تلك الوثنية وجها لوجه . ولنتناس قبل كل شىء انها دين باطل ، بل نتأملها على انها فـكر قديم ، ثم ننظر اما يمكننا ان نعتذر لها ونرتاح اليها شيئا ما ؟

ان أول خواص هـذه الوثنية فى رايى هو الايمان الصريح بأن القوى الـكونية هى أرواح كبيرة مدهشة رائعة مقدسة . فتلك الأشياء التى تلقى فيها الآن علوم الطبيعة والفلك والـكيمياء كان هؤلاء القدماء يندهشون

لرؤيتها ، ويركعون لها اجلالا ومهابة . أعنى ان ماتراه نحن العلم كانوا يرونه هم دينهم وعبادتهم ، كانوا يصورون من القوى الكونية الضارة المخوفة جانا ومردة «جوتان» مخاليق جساما شعثا غبرا شنع الصور ، لهم طبائع الشياطين والأبالسة ، والجليد والنار وزوبعة البحر من هذه الجان والمردة ، أما القوى النافعة كحرارة الشمس والشمس فهى آلهة . وبين هذين الفريقين تنقسم دولة الكون ، وهما يعيشان منفردين كل فريق فى جهة ، ثم لا تخمد قط بينهما ثائرة الحرب . ويسكن الآلهة الجنة « اسجارد » فى السموات ، ويقطن المردة فى بقعة قصية مظلمة خراب اسمها دار المردة « جوتنهيم » .

عجب كل هذا ، أنا لا أراه باطلا ولا خرافيا . وكل من أصاب بالنظر الثاقب لبابه وسره ، وسبر بمسبار الفحص عمقه وغوره ، كان رأيه فيه رأيى . فقوة النار التى نخفى نحن ما بها من آية العجب فى طى اسم كيماوى نجعله حجابا لروعة هولها ، كان القدماء يرونها عفريتا سريع الحركة خفى المدب من قبيلة المردة «جوتان» . وكذلك حسب قبائل المتوحشين من جزائر « لادرون » (هكذا ذكر أحد رحالة الأسبان) النار ، وكانوا لم يروها قط من قبل ، نوعا من الشياطين أو ضربا من الآلهة يعضك اذا مسته ويعيش بأكل الخشب. وكذلك ارى أنه ما كان فى قدرة أى كيمياء قط أن تخفى عنا ما بالنار من عجب لولا ما يعيننا من الحمق والغباوة — ما هى النار ؟ — أما الجليد فقد رآه كاهنهم القديم شيطانا فظيعا أشيب الرأس واللحية وسائر الشعر — المارد « هيرم » أو « رايم » وهى كلمة بطل استعمالها الا فى بعض أودية «سكوتلاندة» . وهكذا لم يكن الجليد عندهم

كما نراه الآن شيئا ميتا ولكنه شيطان حي تراه اذ أظلم الليل يسوق افراسه البلق الى كهف حيث يقبل عليهن بمشط شعورهن — وهذه الأفراس البلق هى سحب البرد ورياح الجليد ، أما بقره فهي جلاميد الثلج . ثم ان هذا الشيطان يضرب تلك الجلاميد بعين عفريت فتنفطر وتتصدع .

ولم يكن الرعد فى تلك الأوقات مجرد كهرباء وانما كان الاله «دونار» — « ثاندار » (١) اله الرعد ، وهو أيضا اله حرارة الشمس ذات الخير والبركة ، وانما زمجرة الرعد هي غضبه وسخطه، وما احتشاد السحاب السود وازدحامها الا تقطيب جبين ذلك الاله وكسر حاجبيه ، وما الصاعقة تنقض من السماء الا السنان اللامع يطير من كفه ، ثم هو يدفع عجلته الصخبة فوق قلل الجبال فدويها وقعقعتها هو جلجلة الرعد ، وتراه من غضبه ينفخ فى لحيته الصهباء فذلك حفيف الريح قبل الارعاد . و « بولدار » الاله الأبيض الجميل العادل المنعم (الذى وجد المبشرون الأوائل أنه أشبه شيء بالمسيح) هو اله الشمس — أجمل الأشياء الظاهرة — واحدى العجائب والأسرار رغما من جميع الفلكيين وعلم الفلك ! ولكن أعظم الآلهة فى ظنى هو ذلك الذى عثر على اثره العالم الاشتقاقى الألمانى « جريم » وهو الاله « ونش » أو « وش » (٢) اله الطلب الذى يعطينا كل ما نطلب ! أليس ذلك أخلص دعاء النفس الانسانية واعمق أصوات الروح وان لم تكن بعد دعاء مهذبا وصوتا منقحا . هذا أبسط آراء الانسان وهو مع ذلك

(١) كلمة انجليزية معناها « الرعد » .
(٢) كلمة انجليزية معناها « طلب » .

عنصر جوهرى فى احدث مذاهب الدين .

واذكر من باقى الآلهة « آجير » اله الزوبعة ، وذلك لأن النوتية بنهر « ترنت » (١) مابرحوا للآن متى ابصروا الماء قد طما فى حالة المد (وهى حالة خطرة) صاحوا : « حذرا فان آجير قادم » .. عجبا لهذا اللفظ قد بقى بعد زوال تلك القرون ، كأن دنيا طغى عليها الماء فغرقت فى عبابه الا ذؤابة قمة ما برحت لأبصارنا بادية ! وقد كان أسلاف هؤلاء النوتية فى العصور الغابرة يؤمنون بالاله آجير ، وما ذلك الا لأن تلك القبائل الشمالية البائدة قد نزلت ببلادنا قديما وضربت فى انسابنا ، فدمنا مزيج من السكسونى والدانيماركى الشمالى ، ولا أرى بين أحد هذه الثلاثة والآخرين الا فرقا سطحيا مثل ما أرى بين النصرانى والمسلم والوثنى .

وعن الههم الاكبر أودين سنتكلم قريبا ان شاء الله ، ولكن اعرفوا قبل ذلك ماذا كان جوهر الوثنية الاسكندنافية او الشمالية : هو الايمان بقوى الكون واعتبارها الهية رائعة شخصية — أعنى آلهة وأبالسة . ولعله قول معقول ومفهوم . كذلك كان الفكر الانسانى فى طفولته يتفتح لرؤية الكون الهائل تفتحا مشفوعا بالعجب والهيبة . وقد أرى فى هذا النظام الوثنى معنى حرا جزلا شريفا ، وسذاجة قوية لم تهذب جد تهذيب مخالفة لرشاقة الوثنية اليونانية وخفتها . والحق يقال ان مذهب الوثنية الشمالية ما هو الا فكر صريح قوى من الفكر العميق الحر ، يتفتح فى قلوب صحيحة حارة لرؤية الكائنات رؤية وجه لوجه وقلب لقلب ، وهو أول خصائص الفكر الصحيح فى كل آن . فلست ترى

---

(١) نهر بانجلترا .

لتلك الوثنية الشمالية ما كنت ترى الأختها اليونانية من الرقة واللعب ، انما تتبين فيها قوة ساذجة وحقا مألوفا واخلاصا جما كبيرا . وانه لمن الغريب أن نهبط من صرح الوثنية اليونانية البديع مصفوفةصوره ، منضودة دماه فى أبدع نظام وأجمل نسق ، الى بيوت الوثنية الشمالية تمرح فى أفنيتها آلهتها ، وتخمر النبيذ لتشربه مع « آجير » اله الزوبعة ، ثم يرسلون « ثورا » اله الرعد ليحضر المرجل من ديار الشياطين ، ويذهب « ثورا » الى تلك الديار وبعد الجهد الجهيد يأخذ المرجل فيلبسه على رأسه كقلنسوة وينقلب راجعا وقد غاب تحت المرجل وبلغ المرجل مواطىء قدميه ! وكذلك ترى لهذا النظام الوثنى ضخامة جوفاء وجسامة شوهاء ، وقوة هائلة الا انها لم تهذب ، فهى كطفل المارد كبير القدم فسيح الخطوة ، لكنها قدم عاثرة وخطوة طائشة ، فانظروا أصلحكم الله ماذا كان رأيهم فى خلق الدنيا .

لما تجاوب الجليد والنار حدثت ريح حارة تكون منها مارد اسمه « يمير » ثم احتال الآلهة حتى قتلوا ذلك المارد واخذوا جثته فجعلوها دنيا ، فأما دمه فذلك هو البحر ، واما لحمه فهو الأرض ، والصخور عظامه ، ثم جعلوا حاجبيهمسكنا لهم، أعنى الجنة أو «اسجارد»، وجعلوا جمجمته قبة السماء ، وما بها من دماغ فهو السحاب ، فهذه استعارة طرفها فى المشرق والآخر فى المغرب واصلها فى الأرض وفرعها فى السماء ـ آراء جسام ماردية هائلة ما زالت بها العصور تنهنه جبروتها وتذلل طغيانها وتحولها عن الطبيعة الماردية الى الصفة الالهية ، والثانية اقوى ولاريب من الأولى ـ ما زالت بها العصور حتى حولتها الى أفكار شكسبيرية ومعان

لوثرية (١) فاولئك الوثنيون القدماء هم آباء أدياننا مثلما هم آباء أجسامنا .

ويعجبني منهم كذلك تشبيههم الحياة بشجرةجذرها في مملكة الموت ثم يسمو ساقها صعدا الى السماء فينشر ذوائب فروعه على جميع أنحاء الكون ، وهذه هي شجرة الوجود . ويجلس عند اصلها في مملكة الموت ثلاثة أقضية (جمع قضاء) الماضي والحاضر والمستقبل، يروون جذورها من البئر المقدسة ، ثم تمتد أفرعها وما يجرى بها من ايراق وازهار وأثمار وسقوط أوراق وأزهار وثمار — ويكنى بهذه عن الحوادث والمحن وصروف الزمن وتقلبات الحال — تمتد أفرعها بكل هذه الأمور في جميع الأمكنة والأزمان . اليست كل ورقة من أوراق هذه الشجرة ترجمة انسان .. وكل خيط من خيوط تلك الورقة كلمة أو فعلة ؟ وأفرعها تواريخ الأمم ، ووسواسها صوت الحياة صادرا عن الأبد الى الأبد ، فاذا تنفس في خلالها النسيم فتلك زفرات القلب الانسانى ، وان صاحت بين أفنانها العاصفة فذاك صوت الآلهة . هذه شجرة الوجود — هى الماضى والحاضر والمستقبل — ما كان وما يكون وما سيكون — تصريف فعل « يكون » تصريفا لا نهاية له . فاذا تأملتم معشر الاخوان كيف ان جميع الأفعال البشرية تتسلسل وتتصل وليس واحد منها الا آخذا بعنق الآخر متداخلا فيه — وكيف ان الكلمة التىالقيها عليك اليوم مستعارة من جميع العالم منذ جرت أول لفظة على لسان أول متكلم — اذا تأملتم كل ذلك رأيتم انه لا تشبيه قط أصدق من تشبيه الشجرة هذا : نعم ، ما أجمله وما

(١) نسبة الى لوثر رأس المذهب البرتستانتى .

أجله اذا قستموه باستعارة اهل هذا العصر التى تشبه الوجود بماكينة « ماكينة الوجود » . بل ارى تشبيه الاقدمين اشرف من ان يقاس بتشبيه المتاخرين وانبل! حقا أن مذهب أولئك الوثنيين الشماليين لعجيب مخالف لما نعتقده نحن فى الطبيعة ، فمن اين اتى ؟ من أفكار أولئك الشماليين ولا سيما من فكر أول رجل شمالى وهبه الله قوة الفكر ـ اول شمالى نابغة عبقرى كما ينبغى أن نسميه ! وكم قبل هذا الرجل قد عاش فى العالم من رجال غير ذوى فكر لم يك منهم ازاء هذا الكون الرائع الهائل الا العجب الابكم كالذى يحسه الحيوان ، أو العجب المشفوع بالسؤال والبحث المتعب الكاد بغير طائل كالذى يشعر به الانسان .. حتى اتى الرجل المفكر الكبير الرجل العبقرى الذى يوقظ فكره راقد الأفكار فى جميع الأذهان . وكذلك شأن المفكر او البطل الروحى . فان ما يقوله قد كان كامنا فى نفوس العامة وكانوا يحسونه ويتلهفون على أن ينطقوا به ولكن لا سبيل ، فما هو الا أن ينطق ذلك البطل حتى تثور جميع الأفكار من مكانها كأنما هبت من رقاد طويل ، فتجيب الدعوة أسرع اجابة ، فرحة به فرح السارى بالصباح . ولا غرو فانما هو خروج من العدم الى الوجود ـ من الموت الى الحياة ـ فياسقى الله عهد ذلك الرجل الكبير ، فانه جدير أن يسمى شاعرا وكبيراً وعبقريا وما شاكل ذلك ، وان حسبه اهل عصره ساحرا وصاحب معجزات ومسدى أياد وآلاء ونبيا والها ! والفكر متى انبعث فلن ينام بعد مبعثه أبدا ، بل يعود معدن أفكار تصدر عنه طائفة بعد طائفة ، ويزكو غرسه فى رجل بعد رجل وجيل بعد جيل حتى يبلغ كماله ، فاذا بلغه

لم يكن ثمة مجال للنماء وانما يقلع ذلك الفرس ويخلى مكانه لغيره .

ونحسب ان مثل هـذا الرجل كان موجودا فى أمة الشمال وهو الذى كانوا يدعونه الاله أودين — وكان لهم أستاذا واماما فى أحوالهم الروحيـة والجسمانية ، وبطلا كبيرا لا تقدر قيمته ، أفرط اجلال الناس له حتى صار عبادة ، ولا جرم فانه أهل لذلك . أفما كان قد أوتى فضيلة النطق بالفكر الجليل وفضائل أخرى كانت اذ ذاك من المعجزات ؟ فما لهم لا يشكرون آلاءه من حبات قلوبهم ؟ اما فسر لهم لغز هذا الكون وعرفهم ماذا يجب عليهم فى هـــذه الدار وماذا ينتظرون فى الدار الآخرة وانطق الوجود وأحيا الحياة ! فهو منشأ الوثنيـة الشمالية ، وأكبر ظنى أن أودين هذا هو أول مفكر من أمة الشمال كيفما كان اسمه. كان ولاشك رجلا يعيش بين الرجال وهو ما كاد ينشر رأيه فى الـكون حتى ثار فى جميع الأذهان مثل رأيه تماما ، فكأنما كان مكتوبا على صحائف الأذهان بالحبر المغطى، فما هو الا أن فاه بكلمته حتى انكشف غطاء الحبر فظهر واستبان . وكذلك ما زال قدوم الرجل المفكر على العـالم هو الحادثة الكبرى أم سائر الحوادث !

ثم لا ننسى شيئا آخر أحسب ان فيه بعض البيان لمشكلات تاريخ الوثنيـة الشمالية الـ « ادا » ، وذلك انها ليست نظاما فكريا واحدا متماسكا ، ولكنها مجموعة نظامات شتى الأصول والأزمان ، ولن يعرف الناس قط تواريخ هذه النظامات وكيف تتقلب من صورة الى صورة مما أدخله عليها مفكر بعد مفكر الى أن لبست الهيئة التى نراها لها فى كتاب الـ « ادا » . كلا ، ولن يعرف

ما صنعه « أودين » نفسه . وماذا عسى أن يعرف من الأنباء عن « أودين » بل انى يعرف عنه أنباء وكيف يكون له تاريخ ؟ وعجيب ان يكون أودين هذا بكسائه الوحشى ولحيته الوحشية ومقلته الوقادة الوحشية ولهجته الخشنة الشمالية بشرا مثلنا تناله أحزاننا وأفراحنا ، ويمشى على مثل أرجلنا واقدامنا . عجيبه أن يكون مثلنا حذوك القذة بالقذة ثم يكون قد اتى كل هاتيك المدهشات والغرائب ! ولكن هذه الغرائب قد بادت وباد الصانع الا اسمه : أودين ، اذ ان لفظة « ودنزداى » (١) أصلها « أودين زادىَ » ، ولعل فى هذه اللحظة أناسا ينطقون هذا اللفظ فليس يوجد لأودين تاريخ وليس فيما رجم فيه المرجمون مايستحق أن يذكر .

قد زعم المؤرخ « سونورو » زعما لم يخجل منه على وضوح سخافته بل شفعه بأمتن لهجات الثقة أوالقحة ، وذلك أن أودين كان أميرا وفارسا بطلا فى بقعة بقرب البحر الأسود ، له اثنا عشر تابعا كلهم سيد عشيرته ، ثم ان بلادهم ضاقت بهم فخفوا الى ناحية الشمال حيث نزلوا بعد أن فتحوا تلك الأقطار ، وان هذا الأمير أودين اخترع الحروف الأبجدية والشعر وغيرهما ، ثم آل به الأمر الى ان اتخذه أهل اسكاندينفيا الها معبوداً واعتبروا اتباعه الاثنى عشر أبناء له وآلهة كذلك . هذا مالايشك فيه المؤرخ « سونورو » ولكن المؤرخ « جراماتيكاس » وهو آخر من أهل الشمال أشد ثقة برأيه من «سونورو» لايصعب عليه ابدا ان يختلق لكل خرافة من خرافات القدماء اصلا وحقيقة ثم يدون ذلك كما لو كان حادثة

(١) الانجليزية معناها يوم الاربعاء .

عادية وقعت ببلاد الدينمارك أو غيرها ، ويجيء المؤرخ « تورفوس » بعد هذين بقرون ، وهو يا للأسف عالم وحترس ، فيضع تاريخا لزمن أودين اذ يقول : ان أودين قدم أوربا عام سبعين قبل الميلاد .

وبما أن هذه الأقوال ظنون أساسها الشك ، قد كشف بطلانها الزمن ، فلا حاجة بى هنا الى تفنيدها ، بل حسبى أن اقول ان تاريخ أودين كان قبل عام ٧٠ بأدهار طويلة وازمان مديدة ! ولا ارى أودين وتاريخ وجوده ووقائعه وسائر تاريخه الا شيئا قد غاب عنا البتة وسط الآلاف المؤلفة من غابر الأعوام .

ويجيء بعد ذلك المؤرخ «جريم» الألمانى فينكر وجود « ودين » بالمرة ، ويثبت قوله بعلم الاشتقاق فيقول : ان لفظة « فوتام » التى هى اصل كلمة « أودين » المجعولة علما على الاله الأكبر لدى جميع الشعوب التيوتونية فى كل مكان ــ هذه اللفظة التى تتصل حسبما زعم « جريم » باللفظة اللاتينية « فادير » واللفظة الانجليزية « ويد » الخ ــ معناها القديم « الحركة » و « القوة » ، فهى الاسم اللائق للاله الأكبر لا لمخلوق. قال جريم : وهذه الكلمة اسم لله عند قدماء السكسون والجرمان وسائر الأمم التيوتونية ، والنعوت المشتقة منها كلها فى معنى مقدس واكبر وما شاكل ــ حسن ، وايم الله ، ما قال المسيو «جريم» ثم لايسعنا الا الاذعان للسيد المذكور فى جميع المسائل الاشتقاقية ، فلنقر ولنقتنع بأن كلمة (فوتام) أو (أودين) يراد بها « الحركة » و « القوة » فما الذى يمنع أن تكون اسما لرجل بطل محرك كما انها اسم لاله ؟ فأما من حيث ان النعوت المشتقة منها كلها فى معنى مقدس واكبر، أليس

قد اشتق الاسبانيون من اسم بطلهم الكبير « لوبى » حينما غلا بهم تقديسه لفظة « لوبى » نعتا لكل شىء افرط جماله حتى قالوا : بستان لوبى ، وورد لوبى ، وغادة لوبى . فلو أن ذلك استمر لأصبحت كلمة لوبى وهى نعت من نعوت الاسبانية معناه ملائكى الجمال أو الهى الجمال . ولقد قال آدم سميث فى مقالته على اللغة انه ما من نعت الا وكان فى الأصل اسما لشىء شارك الشىء الأصلى فى صفته ، فكلمة اخضر مثلا كانت فى الأصل اسما لشىء شديد الخضرة ثم ان الناس كلما ابصروا شيئا فيه خضرة ـ عشبا مثلا ـ قالوا عشب اخضر وما نزال تقول ساعة ذهبا وخاتما حديدا . فكل النعوت فى زعم «سميث» كان أصلها اسما واشياء . ولا يسعنا أن نعدم رجلا ونقضى عليه لمجرد مسائل اشتقاقية كهذه ! ولاشك فى أنه قد كان لأولئك القبائل القديمة رجل كان أول استاذ وقائد . وحقا لقد وجد فى وقت ما رجل هو « أودين » أو مثل « أودين » يبصر بالعين ويلمس باليدين وليس من النعوت ، بل يظل مصور من لحم ودم !

فأما كيفية صيرورة الرجل « أودين » الها ـ الاله الأكبر ـ فهذا ما لا احسب أن أحدا يجب أن يتفلسف فيه . وقد قلت ان أهل عصره لم يعرفوا لاجلالهم اياه حدا ، بل لم يكن لديهم اذذاك ميزان يزنون به الاجلال . فان اردت أن تتصور اجلالهم ذاك فتوهم اجلالك لبطل من اكبر الأبطال وحبك اياه حبا من صميم الحشا لايزال ينمو ويزداد حتى يتجاوز كل مقدار ويفوت كل حد ، وحتى يمتلىء به وعاء صدرك ويطفح . أو ربما كان ذاك الرجل « أودين » اذ منحه الله العقل الكبير وبعث فى

ذهنه نورا من لدنه وفجر فى نفسه ينبوعا من عنده اصبح يرى نفسه سرا من الأسرار ، ولغزا لا يحل ، وشيئا يوجب الرعب والدهش فى نفسه هو فحسب ، انه ربما كان الهى المنشأ ، اى شعبة من القوة الكبرى والذات العليات المسماة فوتان أودين (بمعنى القوة العظمى) انا لا احسب ان ذلك قد كان منه غشا أو تدليسا ، انما هى هفوة ، وهو أصدق ما لديه .

والحقيقة ان كل ذى نفس كبيرة صادقة لايعرف من ذا هو — فيخال نفسه طورا فى أعلى قمة وآنا فى أسفل حضيض ، ويظل ولا شىء أشكل عليه من أمر نفسه . ثم ترى ان رأى الناس فيه وظنه هو بنفسه يؤثر كل منهما فى الآخر مما يحدث نتيجة . فاذا أبصر الناس قد عكفوا عليه يقدسونه واحس هو فى فؤاده بحرارة وجدان شريف ووقدة شعور طاهر كبير وخليطا مشوشا من ظلمة حالكة ونور وهاج ، ثم نظر فاذا حواليه كون هائل يقطر من جميع انحائه ماء الجمال : هذا وقد علم انه لم يسبقه الى هذا المقام العلى انسان — خبرونى نشدتكم الله ، ماذا عساه يحسب نفسه ؟ كانى به يناجى نفسه « انا قوة كبيرة » فاذا الناس اجمعون يجيبونه : «أجل قوة كبيرة ! » (فوتان) أو (أودين) !

ثم اذكروا ما لمجرد مر الدهور وتقادم العهد من التأثير العظيم فى مثل هذه الأمور ، وكيف ان الرجل الذى كان أثناء حياته عظيما تبلغ عظمته بعد الممات عشرة أمثالها ، وظلمة القدم من شأنها أن تجسم مايصير فيها . وكذلك اذا كان للشىء الهالك محبة فى الفؤاد واجلال استفحل فى الذاكرة وتجسم فى الخيال ، فما بالكم اذا كان العصر عصر ظلمات وجهل مطبق ، فلا

تاريخ ولا كتاب ولا رقعة ولا نقش فى حجر ، اللهم الا صخرة صماء على سبيل الأثر هنا وهناك . أجل ، والله انه لولا الكتب لأصبح كل رجل جليل بعد أن يمر على وفاته وفناء جيله أربعون عاما ضربا من أولئك الأبطال الذين تسمعون عنهم فى خرافات القدماء . فماذا يكون اذا مضت على وفاته ثلاثمائة او ثلاثة آلاف عام ! انه لا فائدة فى التفلسف فى مثل هذه الموضوعات فانها تأبى بطبيعتها البحث والاستقصاء . ولا مجال فيها لعلم المنطق والبرهان ، وحسبنا أن نلمح فى أقصى أعماق ذلك الدهر البائد وميض نور حقيقى يبرق فى جوف تلك الصورة المختلطة المعتمة — حسبنا انه لم يكن صميمها بزور ولا جنون وانما حق ومعقول .

ويزعم أن « أودين » اخترع حروف الهجاء وكان ياتى بها ضروبا من السحر . فهبوا ذلك صحيحا ، أفليس اختراع الحروف هو اكبر اختراع منذ أقدم الدهور الى وقتنا هذا ؟ وهل هناك شىء أكبر من ابراز كوامن الأفكار بعلائم ظاهرة ؟ أليس ذلك نطقا ثانيا لايقل غرابة واعجازا عن الأول ؟ ثم الا تذكرون كيف كان اندهاش ملك « بيرو ، المسمى اتاهولبا » عندما رأى الحروف الهجائية وكيف صعب عليه أن يصدق بتلك المعجزة فأمر أحد حراسه من الجند الأسبانيين أن ينقش على ظفره لفظة « ديوس » ليمتحن بها الجندى الذى الى جانبه حتى يتحقق صدق هذه المعجزة ؟ فاذا كان أودين قد أوجد الحروف فى أمته فما باله لاياتى بفنون من السحر ؟

ويحكى لنا المؤرخ « سونورو » أيضا أن « أودين » اخترع الشعر الذى هو موسيقى الكلام ، فتخيلوا —

اصلحكم الله — انفسكم فى هذه العصور ، عصور طفولة الأمم — فى تبلج صباح الشعوب الأوربية اذ يشرق فى جميع الأنحاء لألاء جديد ندى ، واذ أوربا طفلة قد بدأت تفكر بل بدأت تكون ! فكل قلب به دهشة وكل نفس بها رجاء .. رجاء ودهشة يتوهجان فى جميع النفوس شعاعا جما ونورا عميقا ! أولئك كانوا ابنـاء الطبيعـة الأقوياء وكان لهم فى « أودين » فوق كونه قائدهم ، وفارس خيلهم ، شاعر ونبى ، ومفكر صادق كبير ومبدع ومخترع ، وكذلك سمة الرجل الجليل فى كل آن يكون بطلا من جميع جوانبه ، بطلا قبل كل شىء فى روحه وفكره ، وهكذا كان لذلك البطل المتوحش « أودين » بالنسبة الى أمته ، كان له قلب كبير قد فتح أبوابه فتلقى هذا الـكون الـكبير وتلقى الحياة الانسانية كما كانت حينذاك ثم قال كلمته فى هذه وذاك . فهو كما قلت بطل فى صورة وحشية أولية ولـكنه بطل عبقرى كريم النفس شريف الخلق . فاذا كنا نحن أبناء القرن التاسع عشر لا نزال نعجب بذلك الرجل ، فماذا كان اعجاب أولئك المتوحشين به ؟ حقا لقد كان عندهم بطلا بل نبيا بل الها ، أو بعبارتهم هم « فوتان » أى (أودين) ومعناها القوة الـكبرى . والفكر رعاكم الله فكر فى أى صـــورة بدا وعلى أى شكل ظهر ، حتى لأحسب ان (أودين) هذا هو من قبيل أكبر أبطال العالم . وحسبكم برهانا فكره الـكبير فى قلبه الوحشى العميق ! أفلا ترون فى كلماته الخشنة جذور ألفاظ انجليزية لا نزال نستعملها ؟ وما وجوده فى تلك العصور المظلمة بضمائره وهو نجمها اللامع وشهابها الساطع ...

فجدير بنا أن نرى فيه نموذج الرجـل الشمالى

واشرف بنى جلدته . ثم ما كاد يظهــر فى قومه حتى تفجرت قلوبهم له عن أخلص الولاء وأصدق العبادة ، فهو الجذر الذى انبت أشياء جمة ولا تزال ثماره يانعة يرف رونقها فى جميع أرجاء الحياة التيوتونية ، حتى ان كثــيرا من أسماء بلادنا واسم يوم الأربعــاء كما ذكرت مشتق من لفظه (أودين) .. أفلا ترون بعد ذلك ان آثار الرجل قدجاوزت الى بلادنا ، وان أفرعا من فروعه قد امتدت الينا ومن ذلك الجذر ذياك الورق ؟

فاذا كان الرجل أودين قد باد وهلك ذكره فهذا ظله الواسع المــديد ما زال ينشر اعــلامه على تاريخ الأمم التيوتونية جميعها ، لأنه متى سلمنا ان أودين كان وقتا ما الها أمكننا أن نفهم ان نظام أفكار الأقدمين أو عدم نظامهم أو بالاختصار كل ما كان لديهم قبل مجيء هذا الرجل قد أخذ بعد مجيئه وتعاليمه فى طريق آخر ، وليس هيئة جــديدة ، اذ جعل جميع الأمم التيوتونية ينقشون على ألواح ضمائرهم كل ما قال ذلك الرجــل وعلم بحروفه وشعره ، وأصبح مذهبه مذهبهم ، ورأيه رأيهم ، وكذلك شأن الرجل الــكبير فى كل حين . أو ماترون فى العقائد الاسكاندنافية التى يصعد ظلها الهائل من أعماق ظلمات الأعصر الخاليات فينتشر على الأفق الشمالى صورة الرجل (أودين) ؟ نعم ، الفكر فــكر كيفما كان ، وما كانت حياة الرجل العظيم لتكون قط عبثا ، وما تاريخ العالم الا مجموع سير أبطاله !

بيــد انى ارى فى صــورة ذلك التاريخ القديم شيئا مرققا للأفئدة ، وهو افراط أولئك القوم المتوحشين فى حب بطلهم وان شاب ذلك الحب سذاجة وعجز . نعم ، انه وان شابه منتهى العجز فلقد كان فى منتهى الوفاء

والشرف . وهو فوق ذلك وجدان قديم خلقه الله حين خلق الانسان ، وأما لو امكنني أن أفهمكم ما لم أزل اعتقده منذ زمن مديد من ان هـذا الوجدان هو عنصر الرجولة الحيوى وروح تاريخ الانسان فى هذه الدنيا ، لـكان لـكم فى ذلك غنية عن كل ما سوف ألقيه عليكم من هذه المحاضرات . نحن لا نعبد اعاظم رجالنا الآن . كلا ، ولا نفرط فى اجلالهم بل نقتصـد — يا للأسف فى اجلالنا لهم الأم اقتصاد ! فهذا وربكم شر ونكر، ولكن خلو العالم من العظماء أشر وانكر ، وأدهى وأمر .

وكذلك نرى فى مذهب هؤلاء الوثنيين على علاته فضلا وقيمة ثمينة ، وهو وان لم يكن اليوم بحق فقد كان فى يومه حقا . أليست كأنها صوت آبائنا الأول يصيح من أعماق القرون الغابرة يهيب بنـا نحن أبنـاءهم الذين لا تزال عروقنا تزخر بدمائهم يقول : « هذا رأينا فى الدنيا . هذا كل ما استطعنا أن نصور به لأنفسنا سر هذه الحياة وهذا الكون ، فلا تحتقروا رعاكم الله رأينا ومبلغ جهدنا ، واجعلوا بدل احتقاركم لنـا شكرا لله الذى رفعكم فوقنا درجات فأصبحتم بحمده أكثر منـا اشرافا على كونه وأصح رؤية ، ولـكن لا تحسبوا أنكم بلغتم القمة ، فان رأيكم وان فضل رأينا لـكنه ما زال جزئيا ناقصا ، والأمر أعظم من أن تناله مدارك انسان لا أثناء الزمان ولا خارج الزمان ، وكأنى بالانسان بعد أن تمر عليه من هـــذه اللحظة آلاف السنين بالرقى والنهوض لايزال يجد أن أقصى جهده هو الالمام بطرف من أطراف هذا الـكون . فان الأمر كما قلت أكبر من الانسان ، وليس فى وسعه أن يفهمه . وكيف وهو شىء عديم النهاية .

الايمان بأن الكون شيء الهي مقدس ، ومناجاة المرء للقوى الخفية البادية آثارها فيما حوله من الكائنات ، هو عنصر خرافات الأسكاندناف وسائر الخرافات . ولعل الوثنية الاسكاندنافية أصدق فيهذا الأمر منجميع ماعداها ، اذ الاخلاص اكبر خواصها . وهذا الاخلاص هو عزاؤنا على خلو ذلك المذهب مما يزين وثنية اليونان من الرقة والتهذيب . فقد أحس أن هؤلاء الشماليين كانوا يتأملون الطبيعة بعين بصيرة وروح يقظى وقلوب صحيحة مخلصة جمعت بين معنيى الطفولة والرجولة ، الى سذاجة فى شرف احساس، وعمق فىنشاط وصفاء ، واجلال فى شغف ، واخلاص فى شجاعة . فلله أولئك القوم ما كان أشجعهم وأصدقهم ، وكذلك ترى ان هذا الايمان بالطبيعة قد كان اكبر عناصر الوثنية ، فاما الايمان بعظمة الانسان وواجباته الالهية والأدبية ، وان لم يكن مفقودا من الوثنية ، فهو العنصر الأهم فى الأديان والأطهر والأصفى . كذلك ترى ان الانسان يذهب فى اول امره الى الطبيعة وقواها فيرتاع لها ويعبدها ، ثم يعرف انه لا قوة فى الحقيقة الا القوة الأدبية ، وان اهم الأمور هو تمييزه بين الخير والشر ، بين الفرض والمحرم ، الا بعد تصرم الدهور الطويلة .

اما من حيث الخرافات المذكورة فى كتابهم المسمى الـ « ادا » فهى كما ذكرت آنفا احدث عهدا من مدة « أودين » ، ولعلها لم تكن فى نظر أولئك الأقوام الا ضربا من اللهو والفكاهة . ولم تكن انجيلا لهم ولا توراة. اذ ان العقيدة كما قدمت لابد أن توجد أولا ، ثم تزدحم حولها الاقاصيص الشعرية التفاف الجسد بالروح. ولا أحسب العقيدة الشمالية الا انها كانت قبل نظم الأشعار

حية فعالة فى نفوس اهلها وكذلك سائر العقائد تكون انشط وانمى كلما كانت اسكت واصمت .

ومما يرى فى كتابهم الـ « ادا » ذلك الكتاب المبهم المظلم يؤخذ ان رءوس العقائد لم تكن الا ما ياتى الايمان بالمنتخبين ، وهم الآلهة الموكلون بانتخاب من يقضى عليهم بالقتل فى ساحة الوغى وحومة الحرب ، ثم الايمان بالقضاء المحتوم وهو ان من قضى عليه أن يموت قتلا فلا مرد لذلك القضاء ولا مفر . ثم الاعتقاد بأن أول واجبات المرء هو أن يكون شجاعا ، أليست هذه الثلاثة هى أعظم أصول الشرائع العظمى .. شريعة لوثر وشريعة محمد ؟ بل ازيدكم وشريعة نابليون أيضا ، بل هى سنة الانسان أينما كان وكيفما كان ، وهى السلك الذى يؤلف نظام فكره أجمع ، والخيط الذى منه ينسج ثوب عقيدته . وهؤلاء المنتخبون يسوقون الشجعان الذين قضوا فى معترك القتال الى قاعة « أودين » ، أما الأرقة الأخساء والجبناء الأذلاء فينبذون فى ديار «هيلا» الهة الموت .

هذا هو فيما أراه روح الوثنية الشمالية جميعها ، فقد كان أولئك الأقوام يعتقدون أن الشجاعة راس كل شىء ، وانها على الحر الكريم فرض محتوم وضربة لازب ، وانهم يستوجبون سخط « أودين » ويستنزلون عقابه لهذا هم لم يشجعوا فى جميع المواطن . فانظروا بربكم ، أما ترون فى ذلك معنى عاليا كبيرا ؟ حقا انه لواجب أبدى وفرض سرمدى حتى اللحظة ، كما كان حقا فى تلك العصور ، ان يكون الانسان شجاعا ، ومازال أول واجبات المرء أن يقهر الخوف . وحقا انه ينبغى لنا ان نقطع دابر الخوف فانه لاسبيل الى العمل حتى

نصنع ذلك . فاذا لم يجعل المرء الخوف وراء ظهره وتحت قدمه كان خليقا أن تخبث نفسه ويفسد طبعه وتكون أعماله تقليدية لا استقلالية وأفكاره زورا وباطلا لصدورها عن نفس ذليل وقلب جبان .

ولذلك ارى أنه لو استخلص لباب المذهب الأودينى من قشوره لألفى حقا الى هذه الساعة . كيف لا وانما اول واجبات الانسان أن يكون كما قدمنا شجاعا ، وأن يمضي قدما فى سننه ، ويكون رجلا فى كل ما يحاول ويزاول ، ثم هو فى جميع ذلك يؤمن بقضاء الله وقدره. وما زال ظفر المرء على الخوف وظهوره على الجبن هو ميزان فضله ومقياس رجولته فى كل آن .

ولا شك فى ان شجاعة أولئك الشماليين القدماءكانت وحشية جدا ، وقد روى المؤرخ « سونورو » أنهم كانوا يرون الموت فى غير مواطن الحرب عارا وسبة .

تسيل على حد الظباة نفوسنا
وليست على غير الظباة تسيل
وما مات منا سيد حتف أنفه
ولا طل منا حيث كان قتيل

فاذا احس احدهم دنو الأجل واقتراب الموت الطبيعى احدث الجراح فى بدنه تزلفا بذلك الى « اودين » ليفسح له فى جنساته مقاما . وكان الملوك اذا أشرفت عليهم مناياهم امروا بانفسهم ان يجعلوا فى سفن ثم ترسل السفينة فى اليم منشورة القلاع تدب فى خشبها ناربطيئة السرى فاذا انساب بها زاخر التيار وهبت له الريح ، تأججت فى بدنها النار وطار فى اركانها شواظها ، وكذلك يلقى البطل العظيم بين احشاء الماء وجوانح الهواء قبرا

ـ شجاعة وحشية قاسية حمراء دامية ولكنها شجاعة ، وخير من لاشيء . ثم أى نجدة روعاء وهمة قعساء وأى عزيمة ومضاء قد كانت لملوك البحر من اولئك الشماليين ! لكأنى والله أراهم مشمرين على ظهور سفنهم صامتين مقفلى الشفاه غير شاعرين بأنهم قد أوتوا منتهى البسالة والنجدة ـ يكافحون البحر الثائر وعفاريت أمواجه وشياطين حيتانه ونينانه ، بل يكافحون البر والبحر وكل ما عليهما . أولئك آباء بحارتنا : رالى وبلاك ونلسون ! لقد ذهب أولئك الأبطال وما ترنم بعظائم اعمالهم شاعر كهوميروس . الا انى أرى مآثر أجامنون (أحد أبطال اليونان فى شعر هوميروس) تتضاءل فى جانب مسعاة رجل من أولئك الأبطال الشماليين ، رجل مثل « رولف » أو « رولو » أمير نورماندى ، ذلك الملك البحرى الفاتك ، فانى أرى له الآن يدا فى حكومة انجلترا وان كان قد مرت على عهده القرون والدهور .

ولم يكن بلا فائدة كل ما فعله أولئك الأقوام من الجولان فى البحار ومن الحروب والوقائع أثناء عدة أجيال ، لأن ذلك لم يكن الا تنازع الرئاسة ليعلم أى امة اقوى فتسود . ثم رأيت ان من أولئك الملوك الشماليين من كان يلقب قاطع الشجر ، أعنى الملوك الذين كان من شأنهم قطع الغابات وفى ذلك معنى وأيم الله كبير . ولقد أخطأ المؤرخ « سكالدز » حيث زعم أن هؤلاء الملوك كان امرهم مقصورا على الحرب ، بدليل ان الحرب وحدها لا ترزق أمة ولا تمير شعبا وكيف وثمارها قليلة وخيراتها نزرة ! وانى لأحسب ان المحارب

الصادق يكون كذلك الغابي (١) الصـادق ، اعني انه يكون أيضا المصلح الصادق والمفكر الصـادق والعامل الصـادق ، لايدع امرا الا ويتناوله برفق وصدق . وما ذلك الا لأن الشجاعة الصادقة هي الأساس لكل هذه الأمور ، والشجاعة الصادقة شيء ، والقسوة والفظاعة شيء آخر ، فقطع الغاب ضرب من الشجاعة الصادقة قد أبداه أولئك القوم ضد الغابات وضد الظلم الوحشي من قوى الكون ليذللوا لنا الطبيعة ! او لم نسر نحن أبناءهم في ذلك الطريق الذى نهجوه لنا ؟ اذن افلا يعد الله تلك الهمة وهاتيك الشجاعة .

ويظهر لى أن تعليم أودين قومه فضيلة الشجاعة ، واجابة القوم اياه لاصابة قوله هوى في نفوسهم ، وظنهم ان كلامه وحي جاء به من السماء ، وانه لذلك اله — يظهر لى أن هذا هو أول بذرة نبتت منهـا الديانة الشمالية وفروعها من الخرافات على اختلاف ضروبها والوانها ، والرموز الشعرية والقصـائد والقصص والأناشيد والأغاني الخ .. أأقول نبتت ؟ ! عجبا عجابا! انما يقال نبت للشيء الحى ، وقد قلت ان هذا المذهب الوثني لم يك الا ظلمة حالكة يبرق فى جوفها ذهن أودين كالنجم في الديجور. نعم ، ولكنها ظلمة حية . تدبروا رعاكم الله ذلك . هـذه الظلمة هي الذهن المتوحش الجاهل — ذهن تلك الأمة البربرية الشمالية ، يصبو ويتلهف على أن يلهمه الله الفطنة والنطق فيستمر الى ماشاء الله في فطنته ونطقه ! نعم ان الفكر بذرة تنبت وتنمو ثم تنمو ثم لا تزال تنمو وتنمو ، كشجرة الهند متى أصبت بذرة منها فقد حصلت من شجرها على ما

---

(١) أعنى قاطع الغاب .

لانهاية لعدده ، وذلك ان البـذرة تخرج شجرة ، فأى فروع هذه الشجرة أصاب الأرض صار فى الحال جذرا لشجرة جديدة تنبت فروعا فتصير جذورا وهكذا الى ماشاء الله . والفكر حي لايموت . وأول من فـكر من الرجال على ظهر هذه الأرض فهو بادىء الجميع — ثم الثاني والثالث . بل كل مفكر صادق انما هو من قبيل « أودين » ، أو ان شئت فقل انما هو « أودين » على النكرة . ثم هو قد بعثه الله ليعلم الناس رأيه فى الله وفى الـكون والانسـان ، ولينشر ظل صورته على أجزاء من تاريخ العالم .

فأما مزايا ذلك المذهب الشعرية فهذا ما لاموضـع له هنا . كلا ، ولا كبير أهمية ، وقد توجـد أشـعار نبوئية جادة حارة ، ولـكنها على كل حال ضرب من اللهو أضافها الى قواعد الدين أناس متأخرون ، وما احسب انه قد بقى من اشعارهم الا الأغاني . وأمثـال هؤلاء المتأخرين لايزال منهم من يترنم بالأشعار شـأن المصورين المحدثين ، لايبرحون يصورون لا من صميم القلوب كما كان قدماء المصورين وكما هو الأصـل فى التصوير والباعث عليه ، بل ربما ليس من القلوب البتة. فاعلموا ذلك ولا تنسوه .

وقد حاول شاعرنا « جراى » أن يصف لنا عيشة أولئك الوثنيين القدماء فخاب خيبـة الشاعر بون اذ ترجم « الاليـاذة » فلم يؤاته الشـعر على ابراز روح هوميروس . وحسب جراى أن حياة أولئك القوم كانت موحشة مظلمة ترفرف عليهـا ظـلال الروع والرعب ، فصورها كذلك ولم يدر ان أهم عنـاصرها هى وعورة كوعورة صـخورها ، وخشونة كخشونة قفارها ، الى

انس لا وحشة وانشراح لا انقباض وشيء من الفكاهة والضحك بين مناظرها المهيبة ومشاهدها الرهيبة ، وكان القوم غاية فى السذاجة لم يميلوا فى تصويرآلهتهم ووقائع هذه الآلهة الى ما مال اليه اخوانهم اليونان من روائع الرواية التمثيلية ، فكأني بأولئك الشماليين لايجدون فى وقتهم فسحة لأن يقفوا مبهوتين مرتعدى الفرائص أمام مدهشات المسرح ، ثم يعجبنى جدا سذاجتهم وصدقهم واستقامة نظرهم ، فمن ذلك ما يتخيلون من ان « ثورا » اله الرعد يقطب جبينه فى حنق صادق ويقبض على سيفه قبضة تبيض من شدتها مفاصل أصابعه . ثم أجد كذلك الرحمة بادية فى أجمل مظاهرها فى خرافاتهم تلك ، فمن ذلك ان «نولدار» الاله الأبيض — اله الشمس الكريم المنعم الجميل يموت ، فلم يدعوا فى الطبيعة شيئا الا نقبوا فيه عن دواء ، ولكنه مات وقضى الأمر ، فتبعث أمه «فريجا» رسولا اسمه « هرمودر » ليبحث عنه ، ويطوى الرسول تسع ليال وتسعة أيام يخب فى اودية منخفضة مظلمة ومنعرجات معتمة مشكلة حتى يبلغ القنطرة وسقفها الذهبى ، ويقول له الحارس : « نعم » لقد عبر « بولدار » ههنا آنفا ، ولكن مملكة الموت هنالك بعيدة جدا الى جهة الشمال . فيستمر الرسول فى سبيله حتى يصل باب مملكة الموت ويرى بولدار يحادثه فاذا هو رهين بذلك الملك ، قد قضى عليه الا يغادره قضاء محتوما لا مفر منه ، وقد ابت ملكة الموت أن تطلقه . كلا ، ولو ارادت ذلك الآلهة جميعا . ثم ان امراته تطلب من أجله أن تموت لتؤنسه فى ديار الموت فيجاب طلبها ، ويبقى الزوجان معا آخر الأبد ، ثم يرسل « بولدار » خاتمه الى « أودين » وترسل

زوجته « نانا » خاتمها على سبيل الذكرى — وا أسفاه ووا رحمتاه !

والحقيقة انالشجاعة ينبوعالرحمة — ينبوع الصدق والشرف والكرم والمروءة والبر وسائر المحامد والمناقب ، وقد قال المؤرخ « اهلاند » اليس من آيات القوة والشجاعة أن تجد نفوس هؤلاء القوم فى اله الرعد رفيقا مؤنسا ؟ والا تخاف ولا تذعر من رعده ، بل ترى انه لابد لحرارة الشمس وللصيف الحلو الجميل من مصاحبة الرعد ؟ وقد كان الرجل الشمالى يرتاح ويستأنس الى « ثورا » ويحبه ويحب سيفه القاذف بالصواعق ويلاعبه ويداعبه ، وكان ذلك الاله عنده هو اله الحرارة الشمسية أيضا ، اعنى اله العمل والأمن والخير والبركة وصاحب الفلاح ورفيقه فى الغرس والحرث ، ثم ان « ثورا » نفسه لايرتفع عن مباشرة جميع الأعمال الخشنة السوقية ، ولايزال يذهب الى ديار الشياطين ليذلل عفاريت الثلج والجليد ويقهرها ، وفى بعض هذه الأقاويل ما فيه من الفكاهة والضحك .

فمن ذلك ما ذكرنا من أن « ثورا » يذهب الى ديار « المردة » ليجلب مرجل « هيمير » حتى تصنع فيه الآلهة نبيذ الشعير ، فيدخل عليه « هيمير » شيخ الأبالسة ولحيته مرصعة بالبرد ، وكلما رمى ببصره عمودا من العمد انفلق من حدة نظرته ، وبعد طويل صخب وعربدة يأخذ « ثورا » المرجل فيلبسه فى رأسه فاذا هو قد بلغ قدميه ، ذلك لأنه مرجل مارد — «هيمير» الذى كأن كل بقرة من بقره هضبة من الثلج .

هذه أفكار ، وأيم الله ، ماردية هائلة الجسامة غير انها تحتاج الى أن تراض وتذلل حتى تصير أفكارا

شاكسبيرية ودانتيـــة (١) وجوتية (٢) ، ثم انى ابصر نسبة قريبـــة بين « ثورا » اله الرعد و « جاك قاتل المردة » وبين « هندايتن » و « اينن الأحمر الايرلندى» اللذين ورد ذكرهما فى أقاصيص شعراء أحدث عهدا من شعراء تلـكم العصور الوثنية ، بل انى لا اجد «هاملت شاكسبير» الا فرعا من تلك الشجرة القديمة الشمالية، وهــذا ما لانزاع فيه ولاريب . نعم ، أن هامليت او امليت قد ورد فى خرافة قديمة من اســـاطير الأولين تحدثت عن مقتل ملك بصب السم فى اذنه أثناء نومه الى غير ذلك من حوادث الرواية الشاكسبيرية. خرافة قديمة أخذها اولا الشاعر القديم « ساكسو » فصاغ منهـــا قصـــة دانيماركية ثم تنـــاول شاكسبير ماصنعه «ساكسو» فصور منها ما ترونه ، فهذا فرع من الشجرة الشمالية المنفسحة الأفياء قد نما طبيعة أو صـــدفة !

وحقا ان فى هذه الأغانى الشمالية معنى صادقا شريفا شأن كل قول يتداوله الرواة وتتوارثه القرون ، وليس هو مجرد جزالة فى اللفظ وشرف فى الديباجة ، ولكنما شرف وجزالة فى المعنى وخشونة فى الروح ووعورة . وارى فى قلوب أولئك القدماء جدا صادقا وأطراقا فى غير ضجر ولا شكوى وكأنى بهؤلاء الشماليين قد رأوا بالبديهة والالهام ما رآه الناس فى جميع العصور بالروية والتفكير ، وهو ان الدنيا باطل وعرض زائل ، بل خيال لا حقيقة . وكذلك رأى الفلاسفة من كل أمة وملة .

العيش نوم والمنيـــة يقظـــة
والمرء بينهما خيـــالٌ سارِ

(١) نسبة الى دانتى أكبر شعراء ايطاليا وأعظم رجالها قاطبة .
(٢) نسبة الى جوتة أكبر شعراء المانيا وأعظم رجالها على الاطلاق .

ومن أقاصيص القوم ذات الحكمة والعظة أن «ثورا» يذهب الى « أتجارد » ـ حديقة ارض المردة ، يصحبه اثنان من أتباعه : « ثيالفى » و « لوكى » ، وبعدحوادث مختلفة يأتون بلاد المردة ، فيجعلون يطوفون فى سهول وقفار بين صخور وأشجار ، حتى اذا جن الليل آنسوا دارا ، وكان جانب من جوانبها كله باب فولجوه ، فاذا مكان خال فأقاموا به ، فلما سجى الليل راعهم ضجيج وضوضاء ، فأخذ « ثورا » معوله واعتور الباب متحفزا للقتال ، وجعل صاحباه يجريان هنا وهنالك فزعا يلتمسان مخرجا فوجدا غرفة صغيرة فعاذا بها ، وأقام ثورا بالباب يترقب عدوا مهاجما ولا عدو . ولما أصبحوا وجدوا ان الضوضاء لم تكن الا شخير مارد جسيم ولكنه مسالم ـ المارد « سكريمير » وكان نائما ناحية منهم ، وكان المكان الذى حسبوه دارا فباتوا فيه انما هو احدى قفازتى ذلك المارد قد ألقاها الى جانبه عندما أراد النوم ، وكانت الغرفة التى عاذا بها هى بيت الابهام ، ولم يكن للقفازة بيوت لسائرالأصابع .. يالها من قفازة عتيقة !

ثم ان المارد « بسكيرمير » صحبهم سحابة اليوم يحمل حقيبتهم ، ولكن « ثورا » ارتاب بالمارد وعزم على قتله متى نام ، وكذلك أتاه وهو رأقد فضربه بمعوله ضربة تصدع الصخر الأصم ، فلم يفعل المارد أكثر من أنه انتبه وحك وجنته وقال : « ورقة سقطت » ، ثم عاد الى نومه . فأرسل « ثورا » على وجهه ضربة أشد ، فلم يك من المارد أكثر من أنه همس قائلا : «ما هى الا حصاة » ، ثم نام . فصب عليه « ثورا » بيديه جميعا ضربة أحدثت أثرا بوجه المارد ، فما زاد على أن

قطع شخيره وقال : «أحسب أن بهذه الشجرة عصافير والا فما هذا الذى سقط على ؟ » . ثم أن « سكيرمير » دخل بأصـــحابه باب حديقة المردة ، وكان يوم لهو وشراب ، فناولوا « ثورا » كأسا وسألوه أن يشتف ما فيه بجرعة واحـدة ، فكرع فيه ثلاثا طوالا وما كاد يحدث أثرا ، فقالوا له : « طفل ولاريب » . ثم اوما له الى قطة فسألوه : ايقدر أن يرفعها ، فحاول «ثورا» فما اسـتطاع أن يرفع بعد الجهد الجهيد الا احـدى اقدامها ، فقالوا له : ما أنت يا هذا برجل ـ انظر ثمة الى تلك العجوز البالية ، ايمكنك أن تصرعها ؟ فعانقها « ثورا » وجهد وكد فما فعل شيئا .

ولما هموا بالرحيل شيعهم رئيس المردة وقال لثورا لقد غلبت ولـكن لا تخجل فان فى الأمر سرا أنا كاشفه لك . فأما الـكأس التى حاولت أن تشرب فلم تقدر ، فذلك البحر ، وحسبك انك احدثت به جزرا ، ومن ذا الذى يا ثورا يستطيع أن يشرب البحر ؟ واما الهرة التى أردت أن ترفعها فتلك هى الحية التى تلتف حول الأرض فتمسك أجزاءها وتضم أركانها ، فقل لى أكنت محاولا برفعك اياها أن تخرب العالم ؟ واما العجوز فهذه هى الدهر والهرم والدوام .. ومن ذا الذى يصـــارع ذلك ؟ لا انسان ولا اله ، فانها غلابة لـكل شىء . وأما الضربات الثلاث التى ضربتها فتاويلها أن تنظر الى هذه الأودية الثلاث . «فهى من صنع ضرباتك» فنظر«ثورا» الى رفيقه فاذا هو المارد « سكيرمير » ، وهذا المارد هو الأرض ذاتها ، وما قفازته الا أحد الـكهوف . واملس المارد فلم يبق له اثر . ثم ان ثورا التفت لينظر حـديقة المردة فاذا هى قد صارت هواء ولم يبق الا صوت المارد

يهتف به ساخرا : « أولى لك الا تعود الى ديار المردة»
هـــذا من الرموز الشعرية الفكاهية لا من الاقاويل التنبؤية الجدية ، ولـكن اليس فيها على خرافتها مادة غزيرة وذهب ابريز؟ نعم ، ذهب أنقى وأصفى مما يوجد فى خرافات اليونان وان كانت اجود صنعة وأرشـق معرضا . وقد أرى لذلك المارد «سكيرمير» فكاهة جميلة أساسها الجد والاعتبار والحزن كأنها قوس قزح وسط الزوبعة السوداء ، ومن هذا القبيل كانت فكاهة شاعرنا الفحل « بين جونسون » ، وهى فكاهة تجرى فى دمائنا حسبما يخيل الى لأنى أكاد اسمعها الآن من أقاصى غابات امريكا يصدح بهاكاتبها الـكبير « آمرسون » .

ومن الرائع الـكبير من افـكار القوم ذلك الذى فى الصورة الآتية ، وهو انه تقوم حرب بين المردة والآلهة فتنتهى بموت الجميع وخـراب الـكون ولـكنه موت مؤقت ريثما يتجدد كون ذو سماء أجمل وابهى وارض انضر واحلى واله اشرف واقوى يعدل بين الناس جميعا ، فعجيب من هؤلاء الناس كيف أدركوا بطريقتهم الخشنة ومذهبهم الوعر سر القيـامة والبعث وهـذا فيما أراه القانون الأساسى لـكل مخلوق احدثه الدهر وأقامه فى دار الأمل (١) .. قانون قد نفذ اليه نظر ذوى الاخلاص والبصيرة وسينفذ ما دام الانسان .

ولننظر الآن الى الخرافة التى يذكر فيها آخر ظهور « ثورا » فى الأرض ونجعلها خاتمة هذا الباب ، ولعلها فيما يخيل الى آخر هذه الخرافات عهدا ، وفيها انكار لانتشار النصرانية مشفوع برنة حزن على ما تولى من

---

(١) الدنيا .

عهود الوثنية ــ وضعها على سبيل العتاب والشكوى رجل من محافظى الوثنيين فى أوائل انتشار النصرانية ببلاد النرويج وهذا فحواها :

بينما الملك « أولاف » أمير النرويج ، ذلك الذى كانت له اليد الطولى فى هدم صروح الوثنية ونشر ألوية النصرانية فى البلاد ، سائحا فى حاشيته على سواحل النرويج يتنقل من ثغر الى ثغر ويبث العدل فى الرعية أو يصلح من أمورها ، اذا بغريب بادى الوقار أصهب اللحية نبيل الصورة مهيب الطلعة قد طرأ ، ثم كان من حديثه ما أعجب الملك وراعه ، ولكنه ما لبث أن غير لهجة كلامه فخاطب الملك قائلا : «نعم أيها الملك «أولاف» ما أجمل هذا الشاطىء يزهو فى رونق الضحى ، وما أندى خضرته وأبهى نضرته ، فحبذا السهل وحبذا الجبل ، وهنيئا لك الملك والدولة والسلطان ، ولكن اذكر انك ما كنت ممتعا بذلك لولا ما مهده لك «ثورا» من أمر البلاد ، وما وطأه لك من شأن الملك ، فكم كافح دونه المردة ، وكم دافع عنه الأبالسة ، وكم لاقى فى ذلك من يوم أرونان (شديد) ونهار عصيب . والآن اذ استتب لك الأمر تناسيت « ثورا » ودفنت ذكره ؟ فيا أيها الانسان انتبه من رقدتك وكن من أمرك على حذر!» قال الغريب ذلك وقطب جبينه ، والتفت الملك وحاشيته فاذا هو قد غاب عن الأبصار ، وكان هذا آخر ظهوره على مسرح العالم !

وانى لأرى باعث حزن وشجن فى ذلك الصوت ــ آخر أصوات الوثنية الذى فنى معه «ثورا» والعالم الشمالى بأكمله فناء لا رجعة بعده ، وكذلك كل جليل ورائع وعظيم ، فالى الفناء مصيره . وما من شىء حبيب الينا

عزيز علينا الا وتجرى بالفراق بيننا وبينه بارحات الطير ونجوم النحس ويروعنا بنواه يوم وداع .

وكذلك كان لأولئك الشماليين الأمجاد فى تقديس الشجاعة (هكذا يمكننا أن نعرف وثنيتهم) ما كفاهم دينا وشرعا ، وما تقديس الشجاعة بالأمر الهين . ثم لا احسب الا أن عرفاننا بعض الشيء عن وثنية آبائنا شيء مفيد ، ذلك ان الدين لا يبرح منه فى نفوسنا ، وان لم نشعر بذلك ، أثر . فشعورنا به جدير أن يجعل صلتنا بالماضى آكد ، وفهمنا له أصفى وأثقب ، والماضى تعلمون ميراث لنا وأى ميراث ، وهو جزء من الحقيقة التى هى مجموع كل عصر وكل امة ، فعلمنا بالجميع خير من جهلنا به . وقد جاء فى كلام «جوته» ان رجلا اسمه « مايستر » سأل استاذه بأى الأديان الثلاثة انت مؤمن ؟ فأجاب : « بجميعها .. لأن من اجتماعها يتكون الدين الحق » .

البطل فى صورة رسول

محمد - الاسلام

نتنقل الآن من تلك العصور الخشنة ـ الوثنية الشمالية الى دين آخر فى أمة أخرى ـ دين الاسلام فى أمة العرب . وما هى الا نقلة بعيدة وبون شاسع ، بل اى رفعة وارتقاء نراه هنا فى أحوال العالم العامة وأفكاره .

فى هذا الطور الجديد لم ير الناس فى بطلهم الها ، بل رسولا يوحى اليه من الاله . وهذه هى الصورة الثانية للبطل ، فأما الاولى واقدم الجميع فقد ذهبت الى حيث لا تعود أبدا ، ولن ترى الناس يؤلهون البطل مهما عظم . بل لنا ان نسأل : أكان من أى ناس قط انهم عمدوا الى رجل يرونه ويلمسونه فقالوا هذا خالق الكون ؟ انا لا اظن ذلك ، انما يقولون هذا القول فى رجل يتذكرونه أو كانوا رأوه . على ان هذا ايضا لن يكون قط ، ولن يؤله البطل من ثم فصاعدا ولو بلغ منتهى العظمة .

لقد كان اعتبار الرجل العظيم الها غلطة وحشية فاحشة ، ولكن دعنا نقل أن الرجل العظيم ما برح فى جميع الأزمان لغزا من الألغاز لا ندرى كيف نفسره ولا

كيف نستقبله ونعامله ! ولعل اهم مزايا جيل من الاجيال هو كيفية استقباله لرجله العظيم؛ كاله .. وسواء استقبلوه كاله أو كنبى أو كيفما كان فذلك هو السؤال الأكبر .. ومن طريق اجابتهم عن هذا السؤال وكيفية مذهبهم فى ذلك الأمر يمكننا أن نبصر صميم حالتهم الروحانية كما لو كان من خلال نافذة .

فان الرجل العظيم اذا كان مصدره واحداً ـ أعنى من ذات الله ـ فهو جنس واحد : «أودين» أو «لوثر» أو « جونسون » أو « بارنز » وارجو أن أوفق الى افهامكم ان جميع هؤلاء من طينة واحدة ، وانه لم يحدث الخلاف العظيم بين أحدهم والآخر الا الهيئة التى يكتسونها هم أو الطريقة التى يستقبلها بها أهل زمنهم .

لقد أصبح من أكبر العار على أى فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغى الى ما يظن من ان دين الاسلام كذب وان محمداً خداع مزور . وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فان الرسالة التى أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرنا لنحو مائتى مليون (١) من الناس أمثالنا ، خلقهم الله الذى خلقنا . أفكان أحدكم يظن ان هذه الرسالة التى عاشت بها وماتت عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والاحصاء كذبة وخدعة ؟ أما انا فلا أستطيع ان ارى هذا الراى أبدا . ولو ان الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ويصادقان منهم مثل ذلك التصديق والقبول فما الناس الا بله ومجانين ، وما الحياة الا سخف وعبث وضلالة كان

(١) كان هذا عدد المسلمين أيام كارلايل فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . الآن أصبح عددهم حوالى ٦٠٠ مليون.

الأولى بها الا تخلق .

فوا أسفاه ! ما اسوا مثل هـذا الزعم وما اضعف اهله وأحقهم بالرثاء والمرحمة .. (وبعد) فعلى من أراد ان يبلغ منزلة ما فى علوم الـكائنات الا يصدق شيئا البتة من أقوال أولئك السفهاء ! فانها نتائج جيل كفر وعصر جحود والحاد . وهى دليـل على خبث القلوب وفساد الضمائر وموت الأرواح فى حياة الأبدان . ولعل العالم لم ير قط رأيا أكفر من هذا والأم ؟ وهل رأيتم قط معشر الاخوان أن رجلا كاذبا يستطيع أن يوجـد دينا ، عجبا ! والله ان الرجل الـكاذب لا يقدر أن يبنى بيتا من الطوب ! فهو اذا لم يكن عليما بخصائص الجير والجص والتراب وما شاكل ذلك فما ذلك الذى يبنيه ببيت وانما هو تل من الأنقاض وكثيب من أخلاط المواد. نعم وليس جديرا أن يبقى على دعائمه اثنى عشر قرنا يسكنه مائتا مليون من الأنفس ، ولـكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم فكأنه لم يكن. وانى لأعلم انه على المرء ان يسير فى جميع أموره طبق قوانين الطبيعة والا ابت أن تجيب طلبته وتعطيه بغيته . كذب والله ما يذيعه أولئك الكفار وان زخرفوه حتى خيلوه حقا ، وزور وباطل وان زينوه حتى أوهموه صدقا ، ومحنة والله ومصاب أن ينخدع الناس شعوبا وامما بهذه الأضاليل ، وتسود الـكذبة وتقود بهاتيك الأباطيل ، وانما هو كما ذكرت لـكم من قبيل الأوراق المالية المزورة يحتال لها الـكذاب حتى يخرجها من كفه الأثيمة ويحيق مصابها بالغير لا به . واى مصاب وابيكم ؟ مصاب كمصاب الثورة الفرنسية واشـباهها من الفتن والمحن تصـيح بملء أفواههـا : « هذه الأوراق كاذبة ! » .

أما الرجل الـكبير خاصة فاني أقول عنه يقينا انه من المحال أن يكون كاذبا ، فاني أرى الصدق أساسـه وأساس كل ما به من فضل ومحمدة . وعندى انه ما من رجل كبير ـ ميرابو أو نابليون أو بارنز أو كرومويل ـ كفء للقيام بعمل ما الا وكان الصـدق والاخلاص وحب الخير أول بواعثه على محـاولة ما يحاول . أعنى انه رجل صادق النية جاد مخلص قبل كل شيء . بل أقول أن الاخلاص ـ الاخلاص الحر العميق الـكبير ـ هو أول خواص الرجـل العظيم كيفما كان . لا أريد اخلاص ذلك الرجل الذى لايبرح يفتخر للناس باخلاصه ، كلا ؛ فان هذا حقير جدا وأيم الله ـ هـذا اخلاص سطحى وقح ـ وهو فى الغالب غرور وفتنـة . انما اخلاص الرجل الـكبير هو مما لايستطيع أن يتحدث به صاحبه ، كلا ولا يشعر به . بل لأحسب انه ربما شعر من نفسـه بعدم الاخـلاص . اذ اين ذلك الذى يستطيع ان يلزم منهج الحق يوما واحدا ؟ نعم ، ان الرجل الـكبير لا يفخر باخلاصه قط بل هو لا يسأل نفسه : أهى مخلصة ، أو بعبارة أخرى أقول ان اخلاصه غير متـوقف على ارادته ، فهو مخلص على الرغم من نفسه .. سواء أراد أم لم يرد .. هو يرى الوجود حقيقة كبرى تروعه وتهوله ـ حقيقـة لايستطيع أن يهرب من جلالها البـاهر مهما حاول ، هكذا خلق الله ذهنه ، وخلقة ذهنه على هذه الصورة هو أول أسباب عظمته . هو يرى الـكون مدهشا ومخيفا وحقا كالموت وحقا كالحياة ، وهذه الحقيقة لا تفارقه أبدا وان فارقت معظم الناس فساروا على غير هدى وخبطوا فى غياهب الضلال والعماية . بل تظل هذه الحقيقة كل لحظة بين جنبيه ونصب عينيـه ، كأنما هى مكتوبة بحروف من

اللهب لاشك فيها ولاريب ، ها هى : ها هى : فاعرفوا هداكم الله ان هذه هى أول صفات العظيم وهذا حده الجوهرى وتعريفه . وقد توجد هذه فى الرجل الصغير، فهى جديرة أن توجد فى نفس كل انسان خلقه الله . ولكنها من لوازم الرجل العظيم ولا يكون الرجل عظيما الا بها .

مثل هذا الرجل ما نسميه رجلا أصليا صافى الجوهر كريم العنصر — فهو رسول مبعوث من الأبدية المجهولة برسالة الينا .. فقد نسميه شاعرا أو نبيا أو الها . وسواء هذا أو ذاك او ذلك فقد نعلم ان قوله ليس بمأخوذ من رجل غيره ولكنه صادر من لباب حقائق الأشياء . نعم هو يرى باطن كل شىء لايحجب عنه ذلك باطل الاصطلاحات وكاذب الاعتبارات والعادات والمعتقدات وسخيف الأوهام والآراء . كيف ؟ وان الحقيقة لتسطع لعينه حتى يكاد يعشى لنورها . ثم اذا نظرت الى كلمات العظيم شاعرا كان او فيلسوفا او نبيا أو فارسا أو ملكا الا تراها ضربا من الوحى ؟.. والرجل العظيم فى نظرى مخلوق من فؤاد الدنيا واحشاء الكون ، فهو جزء من الحقائق الجوهرية للأشياء ، وقد دل الله على وجوده بعدة آيات أرى أن احدثها واجدها هو الرجل العظيم الذى علمه الله العلم والحكمة فوجب علينا أن نصغى اليه قبل كل شىء .

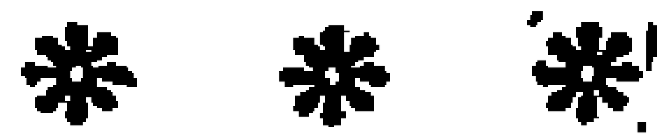
وعلى ذلك فلسنا نعد محمدا هذا قط رجلا كاذبا متصنعا يتذرع بالحيل والوسائل الى بغية أو يطمح الى درجة ملك او سلطان او غير ذلك من الحقائر والصغائر. وما الرسالة التى اداها الا حق صراح ، وما كلمته الا صوت صادق صادر من العالم المجهول. كلا

ما محمد بالكاذب ولا الملفق وانما هو قطعة من الحياة قد تفطر عنها قلب الطبيعة فاذا هي شهاب قد أضاء العالم أجمع . ذلك أمر الله وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وهذه حقيقة تدمغ كل باطل وتدحض حجة القوم الكافرين .

وهب ان لمحمد (عليه السلام) غلطات وهفوات ـ وأي انسان لايخطيء ؟ انما العصمة لله وحده ـ فانه ليس في طاقة أية هفوات أو غلطات أن تزرى بتلك الحقيقة الكبرى وهي انه رجل صادق ونبي مرسل .

وأرانا على العموم تجسم الهفوات ونجعل من الجزئيات حجبا تستر عنا الحقائق الكلية ـ الهفوات؟ أيحسب الناس انه يخلو منها انسان ؟ ان أكبر الهفوات عندي أن يحسب المرء انه بريء من الهفوات . ما بال الناس لايذكرون نبي الله داود ؟ ..
يرتكب داود أفظع الجرائم وأشنع الآثام .. الا ما أهون أمر الذنوب وأصغر خطر الأغلاط ـ الجزئيات والقشور ـ اذا كان لبابها كريما وسرها حرا شريفا وكان في التوبة النصوح والندم الصادق ووخز الضمير ولذع الذاكرة أكبر مكفر للسيئات ومطهر لأدران الروح من أدران الشوائب . أليست التوبة أكرم أعمال المرء قاطبة وأقدس أفعاله ؟ انما آلام الذنب هو كما قلت حسبان المرء انه بريء من كل ذنب . وكل نفس هذا شأنها فهي في نظري مطلقة من الوفاء والمروءة ، بعيدة عن التقى والبر والحق ـ أو هي ميتة ـ أو ان تشأ فقل هي بقية بقاء الرمل الجاف الميت . واني أحسب ان سيرة داود وتاريخه كما هو مدون في مزاميره لأصدق آية على ارتقاء المرء في معارج المكرمات وعلى حرب العقل والهوى ـ

حربا طالما ينهزم فيها العقل هزيمة تضعضع جانبه وتتركه لقى مشفيا على الانقراض . ولكنها حرب بغير نهاية ، مشفوعة أبدأ بالبكاء والتوبة واستنهاض العزم الصادق الذى لايبرح يتجدد بعد كل هزيمة . يا ويل النفس الانسانية ، ما أشد خطبها بين ضعفنا وقوة شهواتها : أوليست حياة الانسان فى هذه الدنيا سلسلة عثرات ؟ وهل فى استطاعة المرء خلاف ذلك ؟ وهل يطيق فى ظلمات هذه الحياة الا الاعتساف والتخبط ؟ فما ينهض من عثرة الا لأخرى ، وبين هذه وتلك نحيب وعبرات وشهيق وزفرات. وانما الأمر الهام هو: ايظفر على هواه بعد كل هذه المجاهدات؟ وانا لنصفح عن كثير من الجزئيات ما دام اللباب حقا والصميم صحيحا وما كانت الجزئيات وحدها لتعرفنا حقيقة انسان .



كانت عرب الجاهلية أمة كريمة تسكن بلادا كريمة ، وكأنما خلق الله البلاد وأهلها على تمام وفاق ، فكان ثمة شبه قريب بين وعورة جبالها ووعورة أخلاقهم ، وبين جفاء منظرها وجفاء طباعهم . وكان يلطف من قسوة قلوبهم مزاج من اللين والدماثة ، كما كان يبسط من عبوس وجود البلاد رياض خضراء وقيعان ذات امواه واكلاء . وكان الاعرابى صامتا لايتكلم الا فيما يعنيه ، اذ كان يسكن ارضا قفرا تخالها بحرا من الرمل ، يصطلى جمرة النهار طوله ، ويكافح بحر وجهه نفحات القر ليله .

رأت رجلا اما اذا الشمس عارضت
فيضحى واما بالعشى فيخصر

ولاحسب اناسا شأنهم الانفراد وسط البيد والقفار

يحادثون ظواهر الطبيعة ويناجون أسرارها ، الا ان يكونون أذكياء القلوب ، حداد الخواطر، خفاف الحركة ، ثاقبي النظر. واذا صح أن الفرس هم فرنسيو المشرق فالعرب ولا شك طليانه . والحق أقول :

لقدكانأولئك العرب قوما اقوياء النفوس كأناخلاقهم سيول دفاقة لها من شدة حزمهم وقوة ارادتهم أحصن سور وأمنع حاجز. وهذه وابيكم أم الفضائل ، وذروة الشرف الباذخ . وقد كان أحدهم يضيفه ألد أعدائه ، فيكرم مثواه وينحر له ، فاذا أزمع الرحيل خلع عليه وحمله وشيعه ، ثم هو بعد كل ذلك لا يحجم أن يقاتله متى عادت به اليه الفرص . وكان العربي أغلب وقته صامتا فاذا قال أفصح . ويزعم ان العرب من عنصر اليهود ، والحقيقة انهم شاركوا اليهود في مرارة الجد وخالفوهم في حلاوة الشمائل ورقة الظرف وفي المعيشة القريحة واريحية القلب ، وكان لهم قبل زمن محمد (عليه السلام) منافسات في الشعر يجرونها بسوقعكاظ في جنوب البلاد حيث كانت تقام أسواق التجارة فاذا انتهت الأسواق تناشد الشعراء القصائد ابتغاء جائزة تجعل للأجود قريضا والأحكم قافية ، فكان الأعراب الجفاة ذوو الطباع الوحشية الوعرة يرتاحون لنغمات القصيد ويجدون لرناتها أية لذة فيتهافتون على المنشد كالفراش ويتهالكون .

وأرى للعرب صفة واضحة فيهم وأحسبها ثمرة الفضائل جميعها والمحامد بحذافيرها ، الا وهي التدين. فانهم ، مذ كانوا ، مابرحوا شديدي التمسك بدينهم كيفما كان . وكانوا يعبدون الكواكب وكثيرا من الكائنات الطبيعية يرونها مظاهر للخالق ودلائل على

عظمته ، فهذا وان يك خطأ فليس من جميع وجوهه ، فان مصنوعات الله مابرحت بوجه ما رموزا له ودلائل عليه . السنا كما قدمت نعتدها مفخرة للشاعر وفضيلة أن يدرك ما بالكائنات من أسرار الجمال والاجلال أو « أسرار الجمال الشعرى » كما اصطلح الناس على تسميته ؟ وقد كان لهؤلاء العرب عدة أنبياء كلهم أستاذ قبيلته ومرشدها حسبما يقتضيه مبلغ علمه ورأيه . ثم ، أليس لدينا من البراهين الساطعة ما يثبت لنا اى حكمة بليغة ورأى مسدد واى تقوى واخلاص قد كان لهؤلاء البدو المفكرين ؟ وقد اتفق النقاد أن «سفرايوب» احد اجزاء التوراة كتابنا المقدس ، قد كتب فى بلاد العرب . ورايى فى هذا الكتاب ، فضلا عن كل ماكتب عنه ، انه من أشرف ما سطر يراع- ودونت يد كاتب ، ولا يكاد المرء يصدق انه من آثار العبرانيين لما فيه من عمومية الأفكار مع شرفها وسموها — عمومية تخالف التعصب والتحيز . وحسب الكتاب شرفا انه يضرب بعرق فى كل نفس ، ويمت بصلة الى كل قلب ، ويكون كالبيت يفضى اليه منتهى السبل ، وكالأرج الضائع تتنازعه جميع الانوف . والكتاب المذكور هو اول ما جاءنا عن مسألة المسائل — حياة الانسان وفعل الله به فى هذه الدار — وقد اتانا بذلك فى انصع بيان واشد اخلاص واحسن سهولة . وانى لاتبين فيه العين البصيرة والقلب النافذ الفهم الجم الخشوع. فهو الحق من حيث جئته ، والنظر الراسب فى قرارة كل شيء وصميم كل أمر — مادى وروحى ؟ الا تذكرون ما جاء فيه من ذكر الفرس « الله الذى اودع الرعد حنجرته » « فهل ترى صهيله الا قهقهة لرؤية الرماح ؟ » هذا والله اجود الاستعارة، وما احسب ان فى عالم التشبيه كله مايماثل

ذلك أو يقاربه . ذلك الى ما فى الكتاب المذكور من آيات الحزن الشريف والتوكل الحسن الجميل . وما قرأت فيه قط الا حسبت قلب الانسانية يترنم شجى ووجدا، ودمع الانسانية يفيض حرقة وكمدا . فيالها من رقة فى شدة ورأفة فى قوة . وما أشبهها الا بسحر الليلة الصائفة - رقة نسيم فى جلال مشهد عظيم . والا بالكون وكل ما فيه من أنجم وبحار وليل ونهار . وما أحسب ان فى جميع التوراة شيئا يدانيه فضلا وقيمة.

والحجر الأسود ، كان من أعم مقدسات العرب ، ولا يزال للآن بمكة فى البناء المسمى « الكعبة » ، وقد ذكر المؤرخ الرومانى « سيسلاس » الكعبة فقال انها كانت فى مدته أشرف معابد العالم طرا واقدمها وذلك قبل الميلاد بخمسين عاما . وقال المؤرخ « سلفستاردى ساسى » « أن الحجر الأسود ربما كان من رجوم السموات فاذا صح ذلك فلابد ان انسانا قد بصر به ساقطا من الجو، والحجر موجود الآن الى جانب البئر زمزم والكعبة مبنية فوقهما ، والبئر كما تعلمون ، منظر حيثما كان سار مفرح تنبجس من الحجر الأصم كالحياة من الموت فما بالكم بها اذا كانت تفيض .

بديمومة لا ظل فى صحصحانها
ولا ماء لكن قورها الدهر عوم
ترى الآل فيها يلطم الآل مائجا
وبارحها المسموم للوجه الطم
أظل اذا كافحتها وكأننى
بوهاجها دون اللثام ملثم

وقد اشتق لها اسم زمزم من صوت تفجرها وهديرها. والعرب تقرر انها انبجست تحت أقدام هاجر واسماعيل

فيضا من الله وصفاء . وقد قدسها العرب والحجر الأسود وشادوا عليهما الكعبة منذ آلاف من السنين. وما أعجب هذه الكعبة وأعجب شأنها ، فهى فى هذه الآونة قائمة على قواعدها عليها الكسوة السوداء التي ترسل كل عام ، والتي يبلغ ارتفاعها سبعا وعشرين ذراعا حولها دائرة مزدوجة من العمد ، وبها صفوف من المصابيح وبها نقوش وزخارف عجيبة وتوقد تلك المصابيح لتشرق تحت النجوم المشرقة . فنعم أثر الماضي هى ونعم ميراث الغابر . هذه كعبة المسلمين ومن أقاصي المشرق الى أخريات المغرب — ومن دلهى الى مراكش تتوجه ابصار العديد المجمهر من عباد الله المصلين شطرها ، وتهفو قلوبهم نحوها خمس مرات كل يوم . نعم ! لهى والله من أجل مراكز المعمورة واشرف أقطابها .

وانما من شرف البئر زمزم ، وقدسية الحجر الاسود ، ومن حج القبائل الى ذياك المكان كان منشأ مدينة مكة . ولقد كانت هذه المدينة وقتا ما ذات بال وشان وان كانت الآن قد فقدت كثيرا من أهميتها . وموقعها — من حيث هى مدينة — سيىء جدا ، اذ هى واقعة فى بطن من الأرض كثير الرمال وسط هضاب قفرة وتلال مجدبة على مسافة بعيدة من البحر ، ثم تمتار لها جميع ذخائرها من جهات اخرى حتى الخبز ولكن الذى أضطر الى ايجاد هذه المدينة هو ان كثيرا من الحجيج كانوا يطلبون المأوى ثم ان اماكن الحج ما زالت من قديم الزمان تستدعى التجارة ، فأول يوم يلتقى فيه الحجيج تلتقى فيه كذلك التجار والباعة ، والناس متى وجدوا أنفسهم مجتمعين لغرض من الأغراض رأوا انه لابأس عليهم أن يقضوا كل ما يعرض لهم من المنافع وان لم يكن فى الحسبان .

لذلك صارت مكة سوق بلاد العرب جميعها ، والمركز لكل ما مر من التجارة بين الهند وبين الشام ومصر بل وبين ايطاليا . وقد بلغ سكانها في حين من الأحيان مائة الف نسمة بين بائعين ومشترين وموردين لبضائع الشرق والغرب وباعة للمأكولات والغلال ، وكانت حكومتها ضربا من الجمهورية الأرستقراطية عليها صبغة دينية ، ذلك انهم كانوا ينتخبون لها بطريقة غير مهدية عشرة رجال من قبيلة عظمى فيكون هؤلاء حكام مكة حراس الكعبة ، وكانت لقريش في عهد محمد ، وأسرة محمد ، من قبيلة قريش ، وكان سائر الأمة مبددا في انحاء تلك الرمال قبائل تفصلها بين الواحدة والأخرى البيد والقفار وعلى كل قبيلة أمير أو أمراء : وربما كان الأمير راعيا أو ناقل أمتعة ، وكانت الحرب لا تخمد بين بعض هذه القبائل وبعضها ، ولم يك يؤلف بينهم حلف على الا التقاءهم بالكعبة حيث كان يجمعهم على اختلاف وثنياتهم مذهب واحد والا رابطة الدم واللغة ، وعلى هذه الطريقة عاش العرب دهورا طوالا خاملي الذكر ، غامضي الشأن ــ اناسا ذوى مناقب جليلة وصفات كبيرة ينتظرون من حيث لايشعرون اليوم الذى يشاد فيه بذكرهم ويطير في الآفاق صيتهم وما ذلك ببعيد . وكأنما كانت وثنياتهم قد وصلت الى طور الاضمحلال وآذنت بالسقوط ، وقد حدثت بينهم دواعي اختلاط وفوران، وكان قد بلغهم على مدى القرون غوامض انباء عن أكبر حادثة وقعت على وجه البسيطة ــ أعني حياة المسيح ووفاته وهي التي أحدثت انقلابا هائلا في جميع سكان العالم ــ فلم تعدم هــذه الأنباء تأثيرها من الفوران في احشاء الأمة العربية .

وكان بين هؤلاء العرب التى تلك حالهم ان ولد الرجل محمد (عليه السلام) عام ٥٨٠ ميلادية ، وكان من أسرة هاشم من قبيلة قريش ، وقد مات أبوه قبيل مولده ، ولما بلغ عمره ستة أعوام توفيت أمه ـ وكان لها شهرة بالجمال والفضل والعقل ، فقام عليه جد شيخ كان قد ناهز المائة من عمره وكان صالحا بارا . وكان ابنه عبدالله احب أولاده اليه فأبصرت عينه الهرمة فى محمد صورة عبد الله فأحب اليتيم الصغير يملء قلبه ، وكان يقول : ينبغى ان يحسن القيام على ذلك الصبى الجميل الذى قد فاق سائر الأسرة والقبيلة حسنا وفضلا. ولما حضرت الشيخ الوفاة والغلام لم يتجاوز العامين عهد به الى أبى طالب أكبر اعمامه رأس الأسرة بعده فرباه عمه ـ وكان رجلا عاقلا كما يشهد بذلك كل دليل ـ على أحسن نظام عربى .

ولما شب محمد وترعرع صار يصحب عمه فى أسفار تجارية وما أشبه ، وفى الثامنة عشر من عمره نراه فارسا مقاتلا يتبع عمه فى الحروب . غير ان أهم أسفاره ربما كان ذاك الذى حدث من قبل هذا التاريخ ببضع سنين ـ رحلة الى مشارف الشام اذ وجد الفتى نفسه هنالك فى عالم جديد ازاء مسألة أجنبية عظيمة الأهمية جدا فى نظره ـ أعنى الديانة المسيحية . وانى لست أدرى ماذا أقول عن ذلك الراهب سرجياس «بحيرا الراهب» الذى يزعم ان ابا طالب ومحمدا سكنا معه فى دار، ولا ماذا عساه يتعلمه غلام فى هذه السن الصغيرة من أى راهب ما ، فان محمدا لم يكن يتجاوز اذ ذاك الرابعة عشرة ولم يكن يعرف الا لغته . ولاشك ان كثيرا من أحوال الشام ومشاهدها لم يك فى نظره الا خليطا

مشوشا من اشياء ينكرها ولا يفهمها ، ولـكن الغلام كان له عينان ثاقبتان ولابد من أن يكون قد انطبع ــ على لوح فؤاده أمور وشئون فأقامت فى ثنايا ضميره ولو غير مفهومة ريثما ينضجها له كر الغداة ومر العشى وتحلها له يد الزمن يوما ما فتخرج منها آراء وعقائد ونظرات نافذات . فلعل هـذه الرحـلات الشامية كانت لمحمد أوائل خير كثير وفوائد جمة .

ثم لا ننسى شيئا آخر وهو انه لم يتلق دروسا على استاذ ابدا ، وكانت صناعة الخط حديثة العهد اذذاك فى بلاد العرب . ويظهر لى ان الحقيقة هى ان محمدا لم يكن يعرف الخط والقراءة ، وكل ما تعلم هو عيشـة الصحراء وأحوالها ، وكل ما وفق الى معرفته هو ما امكنه أن يشاهد بعينيه ويتلقى بفؤاده من هذا الـكون العديم النهاية ، وعجيبة وايم الله أمية محمد ، نعم انه لم يعرف من العالم ولا من علومه الا ما تيسر له أن يبصره بنفسه او يصل الى سمعه فى ظلمات صحراء العرب ، ولم يضره ولم يزر به انه لم يعرف علوم العالم لاقديمها ولا حديثها لأنه كان بنفسه غنيا عن كل ذلك . ولم يقتبس محمد من نور اى انسان آخر ولم يغترف من مناهل غيره ، ولم يك فى جميع اشباهه من الأنبيـاء والعظماء ــ اولئك الذين اشبههم بالمصابيح الهادية فى ظلمات الدهور ــ من كان بين محمد وبينه أدنى صلة . وانما نشأ وعاش وحده فى أحشـاء الصـحراء ، ونما هنالك وحده بين الطبيعة وبين افـكاره .

ولوحظ عليه منذ فتائه انه كان شابا مفكرا . وقد سماه رفقاؤه الأمين ــ رجل الصدق والوفاء ــ الصدق فى افعاله واقواله وافكاره . وقد لاحظوا انه ما من كلمة

تخرج من فيه الا وفيها حكمة بليغة . وانى لاعرف عنه انه كان كثير الصمت يسكت حيث لا موجب للكلام فاذا نطق فما شئت من لب وفضل واخلاص وحكمة ، لا يتناول غرضا فيتركه الا وقد انار شبهته وكشف ظلمته وابان حجته واستثار دفينته ، وهكذا يكون الكلام والا فلا . وقد رايناه طول حياته رجلا راسخ المبدأ صارم العزم بعيد الهم كريما برا رءوفا تقيا فاضلا حرا — رجلا شــــديد الجد مخلصا وهو مع ذلك سهل الجانب لين العريكة جم البشر والطلاقة حميد العشرة حلو الايناس، بل ربما مازح مداعب ، وكان على العموم تضىء وجهه ابتسامة مشرقة من فؤاد صادق ، لأن من الناس من تكون ابتسامته كاذبة ككذب أعمــاله واحواله — هؤلاء لايستطيعون أن يبتسموا . وكان محمد جميل الوجه ، وضىء الطلعة حسن القامة زاهى اللون له عينان سوداوان تتلألآن . وانى لأحب فى جبينه ذلك العرق الذى ينتفخ ويسود فى حالة غضبه « كالعرق المقوس الوارد فى قصة القفازة الحمراء لوالترسكوت» وكان هذا العرق خصيصة فى بنى هاشم ولــكنه كان ابين فى محمد واظهر. نعم ، لقد كان هذا الرجل حاد الطبع نارى المزاج ولــكنه كان عادلا صادق النية ، كان ذكى اللب شهم الفؤاد .

لوذعيـــــــا كأنما بين جنبيــــ
ــه مصابيـــــح كل ليــل بهيم

ممتلئا نارا ونورا ، رجــلا عظيما بفطــرته لم تثقفه مدرسة ولا هذبه معلم وهو غنى عن ذلك ، كالشـــوكة استغنت عن التنقيح ، فادى عمله فى الحياة وحده فى اعماق الصحراء .

وما أروع وما أوضح قصته مع خديجة وكيف انه كان اولا يسافر فى تجارات لها الى أسواق الشام وكيف كان ينهج فى ذلك اقوم مناهج الحزم والأمانة ، وكيف جعل شكرها له يزداد وحبها ينمو ، ولما زوجت منه كانت فى الأربعين وكان هو لم يتجاوز الخمسة والعشرين ، وكان

لايزال عليها مسحة من ملاحة ، ولقد عاش مع زوجه هذه على أتم وفاق والفة وصفاء وغبطة ، يخلص لها الحب وحدها ، ومما يبطل دعوى القائلين ان محمدا لم يكن صادقا فى رسالته ، بل كان ملفقا مزورا — انه قضى عنفوان شبابه وحرارة صباه فى تلك العيشة الهادئة ، المطمئنة ، لم يحاول اثناءها احداث ضجة ولا دوى مما يكون وراءه ذكر وشهرة وجاه وسلطة . ولما يك الا بعد الأربعين ان تحدث برسالة سماوية ومن هـــذا التاريخ نبتدىء حوادثه وشـــواذه حقيقية كانت أو مختلقة ، وفى هذا توفيت خديجة . نعم لقد كان حتى ذاك الوقت يقنع بالعيش الهادىء الساكن ، وكان حسبه من الذكر والشهرة حسن آراء الجيران فيه وجميـــل ظنونهم به . ولم يك الا بعد ان ذهب الشباب واقبل المشيب ان فار بصدره ذلك البركان الذى كان هاجعا وثار يريد أمرا جليلا وشأنا عظيما .

ويزعم المتعصبون من النصارى والملحدون أن محمدا لم يكن يريد بقيامه الا الشهرة الشخصية ومفاخر الجاه والســلطان .. كلا وأيم الله ، لقد كانت فى فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن القفار والفلوات ، المتـوقد المقلتين العظيم النفس المملوء رحمة وخيرا وحنانا وبرا وحكمة وحجى واربة ونهى — افكار غير الطمع الدنيوى ، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه . وكيف لا وتلك نفس صامتة

ورجل من الذين لايمكنهم الا أن يكونوا مخلصين جادين، فبينما ترى آخرين يرضون بالاصطلاحات الكاذبة ويسيرون طبق اعتبارات باطلة ، ترى محمدا لم يرض ان يلتفع بمألوف الأكاذيب ويتوشح بمتبع الأباطيل . لقد كان منفردا بنفسه العظيمة وبحقائق الأمور والكائنات .

لقد كان سر الوجود يسطع لعينيه كما قلت بأهواله ومخاوفه وروائقه ومباهره . لم يك هنالك من الأباطيل ما يحجب ذلك عنه فكأن لسان حال ذلك السر الهائل يناجيه « هأنذا » .. فمثل هذا الاخلاص لا يخلو من معنى الهى مقدس ، وما كلمة مثل هذا الرجل الا صوت خارج من صميم قلب الطبيعة ، فاذا تكلم فكل الآذان برغمها صاغية وكل القلوب واعية وكل كلام ما عدا ذلك هباء وكل قول جفاء وما زال منذ الأعوام الطوال ـ منذ أيام رحلاته وأسفاره تجول بخاطره الآلاف من الأفكار : ماذا انا ؟ وما ذلك الشيء العديم النهاية الذى اعيش فيه والذى يسميه الناس كونا ؟ وما هى الحياة وما هو الموت ؟ وماذا أعتقد ؟ وماذا أفعل ؟ فهل اجابته عن ذلك صخور جبل حراء أو شماريخ طود الطور أو تلك القفار والفلوات؟ كلا ولا قبة الفلك الدوار واختلاف الليل والنهار ولا النجوم الزاهرة والأنواء الماطرة .. لم يجبه لا هذا ولا ذاك ، وما للجواب عن ذلك الا روح الرجل والا ما أودع الله فيه من سره .

وهذا ما ينبغي لكل انسان أن يسأل عنه نفسه ، فقد احس ذلك الرجل القفرى ان هذه كبرى المسائل واهم الأمور وكل شيء عديم الأهمية في جانبها . وكان اذا بحث عن الجواب فى فرق اليونان الجدلية أو فى روايات اليهود المبهمة أو نظام وثنية العرب الفاسد لم

يجده . وقد قلت ان أهم خصائص البطل واول صفاته وآخرها هى أن ينظر من خلال الظواهر الى البواطن ، فأما العادات والاستعمالات والأعتبارات والاصـطلاحات فينبذها جيدة كانت أو رديئة وكان يقول فى نفسـه : « هذه الأوثان التى يعبـدها القوم لابد من أن يـكون وراءها ودونها شىء ماهى الا رمز له واشارة اليه ، والا فهى باطل وزور وقطع من الخشب لا تضر ولا تنفع ، وما لهذا الرجل والأصنام ، وانى تؤثر فى مثله أوثان ولو رصعت بالنجوم لا بالذهب ، ولو عبدها الجحاجح من عدنان والأقيال من حمير؟ اى خير له فى هـذه ولو عبدها الناس كافة ؟ انه فى واد وهم فى واد .. يعمهون فى ضلالهم وهو ماثل بين يدى الطبيعة قد سـطعت لعينيه الحقيقة الهائلة ، فاما أن يجيبها والا فقد حبط سعيه وكان من الخاسرين . فلتجبها يا محمد ! أجب . لابد من أن توجد الجواب .. أيزعم الـكاذبون انه الطمع وحب الدنيا هو الذى أقام محمدا واثاره . حمق وأيم الله وسخافة وهوس . اى فائدة لمثل هذا الرجل فى جميع بلاد العرب وفى تاج قيصر وصولجان كسرى ، وجميع ما بالارض من تيجان وصولجانات . وأين تصير الممالك والتيجان والدول جميعها بعد حين من الدهر؟ .. أفى مشـيخة مكة وقضيب مفضض الطرف أو فى ملك كسرى وتاج ذهبى الذؤابة منجاة للمرء ومظفرة ؟ كلا .. اذن فلنضرب صفحا عن مذهب الجائرين القائلة ان محمدا كاذب ، ونعد موافقتهم عارا وسخافة وحمقا ، فلنربأ بنفوسنا عنه لنترفع .

وكان من شأن محمد ان يعتزل الناس شهر رمضان ، فينقطع الى السكون والوحدة داب العرب وعادتهم ،

ونعمت العادة. ما أجلها وانفعها ولا سيما لرجل كمحمد؟ لقد كان يخلو الى نفسه فيناجي ضميره صامتا بين الجبال الصامتة ، متفتحا صدره لأصوات الكون الغامضة الخفية . أجل ، حبذا تلك عادة ونعمت. فلما كان فى الأربعين من عمره وقد خلا الى نفسه فى غار بجبل « حراء » قرب مكة شهر رمضان ليفكر فى تلك المسائل الكبرى اذ هو قد خرج الى خديجة ذات يوم ـ وكان قد استصحبها ذلك العام وانزلها قريبا من مكان خلوته ـ فقال لها انه بفضل الله قد استجلى غامض السر واستثار كامن الأمر ، وانه قد انارت الشبهة وانجلى الشك وبرح الخفاء ، وان جميع هذه الأصنام محال وليست الا اخشابا حقيرة ، وأن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، فهو الحق وكل ما خلاه باطل ، خلقنا ويرزقنا وما نحن وسائر الخلق والكائنات الا ظل له وستار يحجب النور الأبدى والرونق السرمدى. الله أكبر ولله الحمد : ثم الاسلام .. وهو أن نسلم الأمر لله ونذعن له ونسكن اليه ونتوكل عليه . وان القوة كل القوة هى فى الاستقامة لحكمته والرضا بقسمته أيا كانت فى هذه الدنيا وفى الآخرة . ومهما يصيبنا به الله ولو كان الموت الزؤام فلنتلقه بوجه مبسوط ونفس مغتبطة راضية ونعلم انه الخير وأن لاخير الا هو .

ولقد قال شاعر الألمان وأعظم عظمائهم «جوته» اذا كان ذلك هو الاسلام فكلنا اذن مسلمون . نعم ، كل من كان فاضلا شريف الخلق فهو مسلم. وما قيل ان منتهى العقل والحكمة ليس فى مجرد الاذعان للضرورة ـ فان الضرورة تخضع المرء برغم أنفه ولا فضل فيما يأتيه الانسان مكرها ـ بل فى اليقين بأن الضرورة الأليمة المرة

هى خير ما يقع للانسان وافضل ما يناله وان لله فى ذلك حكمة تلطف عن الأفهام وتدق عن الأذهان ، وانه من الأفن والسخف أن يجعل الانسان من دماغه الضئيل ميزانا لذلك العالم وأحواله . بل عليه أن يعتقد ان للكون قانونا عادلا وان غاب عن ادراكه . وان الخير هو أساس الكون ، والصلاح روح الوجود والنفع لباب الحياة . نعم عليه أن يعرف ذلك ويعتقده ويتبعه فى سكون وتقوى .

اقول وما زالت ، هـذه الخطة المثلى والمذهب الأشرف الأطهر ، وما زال الرجل مصيبا وظافرا وحرا وكريما وسائرا على المنهج الأقوم وسالكا سبيل السعادة ما دام معتصما بحبل الله متمسكا بقانون الطبيعة الأكبر الأمكن غير مبال بالقوانين السطحية والظواهر الوقتية وحسابات الربح والخسارة . نعم هو ظافر اذا اتبع ذلك القانون الكبير الجوهرى ــ قطب رحى الكون ومحور الدهر ــ وليس بظافر اذا فعل غير ذلك . وحقا ان أول وسيلة تؤدى الى اتباع هـذا القانون هى الاعتقاد بوجوده ثم بأنه صالح بل لا شىء صالحا غيره ! وهذا يا اخوانى هو روح الاسلام ! وهذا هو أيضا روح النصرانية ، والاسلام لو تفقهون ضرب من النصرانية . والاسلام والنصرانية يأمراننا أن نتوكل على الله قبل كل شىء ، وأن نفطم النفس عن الشهوات ، وننهى القلب عن الهوى ، والا نجمح فى عنان المنى ، وأن نصبر على البث والأسى ، وأن نعرف انا لا نعرف شيئا ، وأن نرضى من الله كل ما قسم ونعدها يدا بيضاء ونعمة غراء ونقول الحمد لله على كل حال وتبارك الله ذو الفضل والجلال ونقول : « انا بقسمة الله راضون ولو كان ما

قسم لنا المنون » .

فمن فضائل الاسلام تضحية النفس فى سبيل الله ، وهذا أشرف ما نزل من السماء على بنى الأرض . نعم هو نور الله قد سطع فى روح ذلك الرجل فأنار ظلماتها. هو ضياء باهر كشف تلك الظلمات التى كانت تؤذن بالخسران والهلاك وقد سماه محمد (عليه السلام) وحيا و « جبريل » . وأينا يستطيع ان يحدث له أسماء ؟ الم يجىء فى الانجيل ان وحى الله يهبنا الفهم والادراك؟ ولا شك ان العلم والنفاذ الى صميم الأمور وجواهر الأشياء لسر من اغمض الأسرار لايكاد المنطقيون أن يلمسوا منه الا قشوره ، وقد قال نوفاليس : « أليس الايمان هو المعجزة الحقة الدالة على الله ؟ » فشعور محمد اذ اشتعلت روحه بلهيب هذه الحقيقة الساطعة بأن الحقيقة المذكورة هى أهم ما يجب على الناس علمه لم يك الا امرا بديهيا ، وكون الله قد انعم عليه بكشفها له ونجاه من الهلاك والظلمة ، وكونه قد أصبح مضطرا الى اظهارها للعالم اجمع — هذا كله هو معنى كلمة « محمد رسول الله » وهذا هو الصدق الجلى والحق المبين .

ويخيل الينا ان الصالحة خديجة أصغت اليه فى دهشة وشك ثم آمنت وقالت : «أى وربى انه لحق». ونتصور ان محمدا شكر لها ذلك الصنيع ورأى فى ايمانها بكلمته المخلصة المقذوفة من بركان صدره جميلا يفوق كل ما أسدت اليه من قبل ، فانه ليس أروح لنفس المرء ولا أثلج لحشاه من أن يجد له شريكا فى اعتقاده . ولقد قال نوفاليس : ما رأيت شيئا قط آكد ليقينى وأوثق لاعتقادى من انضمام انسان آخر الى فى رأيى.

نعم انه لصنيع أغر ونعمة وفيرة ، وكذلك ما انفك محمد يذكر خديجة حتى لقى ربه حتى ان عائشة ــ زوجه الصغيرة المحبوبة تلك التي اشتهرت بين المسلمين بجميع المناقب والفضائل طول حياتها ــ هذه السيدة البارعة الجمال والفطنة سألته ذات يوم : الست الآن أفضل من خديجة ؟ لقد كانت أرملة مسنة قد ذهب جمالها وأراك تحبنى أكثر مما كنت تحبها . فأجاب محمد : « كلا والله لست أفضل منها » . وكيف وهى التى آمنت بى والكل كافر ومنكر ، ولم يك لى فى هذا العالم الا صديق واحد ــ وهذا الصديق هى . وآمن به مولاه (زيد بن حارثة) كذلك وعلى هؤلاء الثلاثة أول من آمن به .

وجعل يذكر رسالته لهذا ولذاك فما كان يصادف الا جحودا وسخرية حتى انه لم يؤمن به فى خلال ثلاثة أعوام الا ثلاثة عشر رجلا وذلك منتهى البطء وبئس التشجيع ولكنه المنتظر فى مثل هذه الحال . وبعد هذه السنين الثلاث أدب مأدبة لاربعين من قرابته ، ثم قام بينهم خطيبا فذكر دعوته ، وانه يريد أن يذيعها فى سائر انحاء الكون ، وانها المسألة الكبرى بل المسألة الوحيدة ، فأيهم يمد اليه يده ويأخذ بناصره ؟ وبينما القوم صامتون حيرة ودهشة وثب على وكان غلاما فى السادسة عشرة وكان قد غاظه سكوت الجماعة فصاح فى احد لهجة انه ذلك النصير والظهير ، فانه لايحتمل ان القوم كانوا منابذين محمدا ومعاديه وكلهم قرابته وفيهم أبو طالب عم محمد وأبو على . ولكن رؤية رجل كهل أمى بعينه غلام فى السادسة عشرة يقومان فى وجه العالم بأجمعه كانت مما يدعو الى العجب المضحك ،

فانفض القوم ضاحكين . ولكن الأمر لم يك بالمضحك بل كان غاية فى الجد والخطر ! أما على فلا يسعنا الا أن نحبه ونتعشقه فانه فتى شريف القدر كبير النفس يفيض وجدانه رحمة وبرا ويتلظى فؤاده نجدة وحماسة وكان أشجع من ليث ، ولكنها شجاعة ممزوجة برقة ولطف ورأفة وحنان جدير بها فرسان الصليب فى القرون الوسطى ، وقد قتل بالكوفة غيلة ، وانما جنى ذلك على نفسه بشدة عدله حتى حسب كل انسان عادلا مثله ، وقال قبل موته حينما استشير فى قاتله : « ان أعش فالأمر الى ، وان أمت فالأمر لكم ، فان آثرتم ان تقتصوا فضربة بضربة ، وأن تعفوا أقرب الى التقوى » .

وكان فى عمل محمد هذا اساءة ولا شك الى قريش حراس الكعبة وخدمة الأصنام . وانضم اليه منهم رجلان أو ثلاثة أولو بأس ونفوذ . وسرى أمر محمد ببطء ولكنه سريان على كل حال . وكان عمله بالطبع سيىء الوقع لدى كل انسان ، حيث جعلوا يقولون : من هذا الذى يزعم انه أعقل منا جميعا والذى يعنفنا ويرمينا بالحمق وعبادة الخشب . وأشار عليه أبوطالب أن يكتم أمره ويؤمن به وحده وأن يكون له من نفسه ما يشغله عن العالم والا يسخط القوم ويثير غضبهم عليه فيخطر بذلك حياته . فأجابه محمد : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » كلا ، فان فى هذه الحقيقة التى جاء بها لشيئا من عنصر الطبيعة ذاتها لا تفضله الشمس ولا القمر ولا أى مصنوعات الطبيعة . ولابد لتلك الحقيقة من أن تظهر برغم الشمس والقمر مادام قد أراد أن تظهر ، وبرغم

قريش جميعها وبكره سائر الخلائق والـكائنات . نعم، لابد من أن تظهر ولا يسعها الا ان تظهر . بذلك اجاب محمد ويقال : « انه اغرورقت عيناه » . لقد أحس من عمه البر والشـفقة وادرك وعورة الحال وعلم انه أمر ليس بالهين اللين ولـكنه أمر صعب المراس مر المذاق.

واستمر يؤدى الرســالة الي كل من أصغى اليه ، وينشرمذهبه بين الحجيج مدة اقامتهم بمكة ، ويستعمل الأتباع هنا وهنـالك وهو يلقى أثنـاء كل ذلك منابذة ومناوأة ومناصبة بالعداوة ومجاهرة وشرا باديا وكامنا. وكانت قرابته تحميه وتدافع عنه ولكنه عزم هو وأتباعه على الهجرة الى الحبشة فوقع خبرذلك العزم من قريش أسوأ موقع وضاعف حنقهم عليه فنصبوا له الاشراك وبثوا الحبائل واقسموا بالآلهة ليقتلن محمدا بأيديهم . وكانت خـديجة قد توفيت وتوفى أبوطالب ، وتعلمون أصلحكم الله أن محمدا ليس بحاجة الى أن نرثى له ولحاله النكراء اذ ذاك ومقاومة الضنك وموقفه الحرج ، ولـكن اعرفوا معي ان حاله اذ ذاك من الشدة والبلاء كما لم ير انسان قط ، فلقد كان يختبىء في الكهوف ويفر متنكرا الى هذا المـكان والى ذاك لا مأوى ولا مجير ولا ناصر ، تتهدده الحتوف ، وتتوعده الهلكات ، وتفغر له أفواهها المنايا ، وكان الأمر يتوقف أحيانا على أدنى صـغيرة ـ كاجفال فرس من أفراس اتباع محمد ـ فلو حدث ذلك لضاع كل شيء ، ولـكن أمر محمد ـ ذلك الأمر العظيم ـ ما كان لينتهي على مثل تلك الحال .

فلما كان العام الثالث عشر من رسالته وقد وجـد أعداءه متألبين عليه جميعا ، وكانوا أربعين رجـلا كل من قبيلة ائتمروا به ليقتلوه ، والفى المقام بمكة مستحيلا،

هاجر الى يثرب حيث التف به الانصار ، والبلدة تسمى الآن المدينة أى مدينة النبى ، وهى من مكة على ٢٠٠ ميل ، تقوم وسط صخور وقفار ، ومن هذه الهجرة يبتدىء التاريخ فى المشرق . والسنة الأولى من الهجرة توافق ٦٢٢ ميلادية وهى السنة الخامسة والخمسون من عمر محمد ، فترون انه كان قد أصبح اذ ذاك شيخا كبيرا ، وكان أصحابه يموتون واحدا بعد واحد ويخلون امامه مسلكا وعرا وسبيلا قفرا وخطة نكراء موحشة ؛ فلو انه لم يجد من ذات نفسه مشجعا ومحركا ويفجر بعزمه ينبوع أمل بين جنبيه فهيهات أن يجد بارقات الأمل فيما يحدق به من عوابس الخطوب ويحيط به من كالحات المحن والملمات ، وهكذا شأن كل انسان فى مثل هذه الأحوال . وكانت نية محمد حتى الآن أن ينشر دينه بالحكمة والموعظة الحسنة فقط ، فلما وجد أن القوم الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته السماوية وعدم الاصغاء الى صوت ضميره وصيحة لبه حتى ارادوا أن يسكتوه فلا ينطق بالرسالة — عزم ابن الصحراء على أن يدافع عن نفسه دفاع رجل ثم دفاع عربى ، ولسان حاله يقول : « واما وقد أبت قريش الا الحرب فلينتظروا اى فتيان هيجاء نحن! وحقا راى». فان أولئك القوم اغلقوا آذانهم عن كلمة الحق وشريعة الصدق وابوا الا تماديا فى ضلالهم يستبيحون الحريم ويهتكون الحرمات ويسلبون وينهبون ويقتلون النفس التى حرم الله قتلها ويأتون كل اثم ومنكر وقد جاءهم محمد من طريق الرفق والاناة فابوا الا عتوا وطغيانا ، فليجعل الأمر اذن الى الحسام المهند والوشيج المقوم والى كل مسرودة حصداء وسابحة جرداء ! وكذلك قضى محمد بقية عمره وهى عشر سنين أخرى فى حرب وجهاد لم يسترح غمضة عين ولا

مدر فواق .. وكانت النتيجة ما تعلمون !

ولقد قيل كثيرا فى شأن نشر محمد دينه بالسيف ، فاذا جعل الناس ذلك دليلا على كذبه فشد ما أخطأوا وجاروا ، فهم يقولون ما كان الدين لينتشر لولا السيف ولكن ما هو الذى أوجد السيف ؟ هو قوة ذلك الدين وانه حق . والرأى الجديد أول ما ينشأ يكون فى رأس رجل واحد فالذى يعتقده هو فرد ـ فرد ضد العالم أجمع فاذا تناول هذا الفرد سيفا وقام فى وجه الدنيا فقلما والله يضيع وأرى على العموم ان الحق ينشرنفسه بأية طريقة حسبما تقتضيه الحال أولم تروا ان النصرانية كانت لاتأنف أن تستخدم السيف أحيانا . وحسبكم ما فعل شارلمان بقبائل السكسون وانا لا أحفل أكان انتشار الحق بالسيف أم باللسان أم بأية آلة أخرى فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالنار، لندعها تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها واظافرها ، فانها لن تهزم الا ما كان يستحق أن يهزم وليس فى طاقتها قط أن تفنى ما هو خير منها ، بل ما هو أحط وأدنى ، فانها حرب لا حكم فيها الا الطبيعة ذاتها ، ونعم الحكم . ما أعدل وما اقسط وما كان أعمق جذرا فى الحق وأذهب اعراقا فى الطبيعة ، فذلك هو الذى ترونه بعد الهرج والمرج والضوضاء والجلبة ناميا زاكيا وحده .

اقوال الطبيعة أعدل حكم ، بلى ما أعدل وما أعقل وما أرحم وما أحلم انك تأخذ حبوب القمح لتجعلها فى باطن الأرض وربما كانت هذه الحبوب مخلوطة بقشور تبن وقمامة وتراب وسائر أصناف الأقذاء ، ولكن لا بأس عليك من ذلك والق الحبوب بجميع ما يخالطها من القذى فى جوف الأرض العادلة البارة فانها لاتعطيك

الا قمحا خالصا نقيا ، فأما القذى فانها تبلعه فى سكون وتدفنه ولا تذكر عنه كلمة ، وما هى الا برهة حتى ترى القمح زاكيا يهتز كأنه سبائك الذهب الابريز ، والأرض الكريمة قد طوت كشحا على الأقذاء واغصت. بل انها حولتها كذلك الى أشياء نافعة ولم تشك منها شجوا ولا نصبا ، وهكذا الطبيعة فى جميع شئونها ، فهى حق لا باطل ، وهى عظيمة وعادلة ورحيمة حنون. وهى لا تشترط فى الشىء الا أن يكون صادق اللباب ، حر الصميم ، فاذا كان كذلك حمته وحرسته ، أو كان غير ذلك لم تحمه ولم تحرسه . فترى لكل شىء تحميه الطبيعة روحا من الحق . اليس شأن حبوب القمح هذه والطبيعة هو وا أسفاه شأن كل حقيقة كبرى جاءت الى هذه الدنيا أو تجىء فيما بعد ؟ أعنى ان الحقيقة مزيج من حق وباطل ، نور فى ظلام ، وتجيئنا الحقائق فى أثواب من القضايا المنطقية ونظريات علمية من الكائنات لايمكن أن تكون تامة صحيحة صائبة . ثم لابد من أن يجىء يوم يظهر فيه نقصها وخطؤها وجورها فتموت وتذهب . نعم ، يموت ويذهب جسم كل حقيقة ولكن الروح يبقى ابدا ويتخذ ثوبا أطهر وبدنا أشرف ، ولايزال يتنقل من الأثواب والأبدان من حسن الى أحسن ومن جيد الى أجود .. سنة الطبيعة التى لا تتبدل . نعم ، ان جوهر الحقيقة الكريم حى لايموت ، وانما النقطة الهامة والأمر الوحيد الذى يعرض فى محكمة الطبيعة ومجلس قضائها هو : هل هذا الروح حق وصوت من أعماق الطبيعة ؟ وليس بهام عند الطبيعة ما نسميه نقاء الشىء أو عدم نقائه ، وليس هو بالسؤال النهائى. ليس الأمر الهام عند الطبيعة حينما تقدم اليها أنت لتصدر حكمها فيك هو : أفيك أقذار وأكدار أم لا .. وانما هو

افيك جوهر حق وروح صدق ام لا ؟ او بعبارة تشبيهية ليس السؤال الهام عند الطبيعة هو : افيك قشور ام لا بل : افيك قمح ؟ ايقول بعض الناس انه نقى ؟ انى اقول له : « نعم نقى ـ نقى جدا ولكنك قشر ـ ولكنك باطل واكذوبة وزور وثوب بلا روح مجرد اصطلاح وعادة وما امتد بينك وبين سر الكون وقلب الوجود سبب ولا صلة والواقع انك لا نقى ولا غير نقى وانما انت لاشيء والطبيعة لا تعرفك وانها منك براء » .

نحن سمينا الاسلام ضربا من النصرانية ولو نظرنا الى ما كان من سرعته الى القلوب وشدة امتزاجه بالنفوس واختلاطه بالدماء فى العروق لايقنا انه كان خيرا من تلك النصرانية التى كانت اذ ذاك فى الشام واليونان وسائر تلك الاقطار والبلدان ـ تلك النصرانية التى كانت تصدع الراس بضوضائها الكاذبة وتترك القلب ببطلانها قفرا ميتا : على انه قد كان فيها عنصر من الحق ولكنه ضئيل جدا وبفضله فقط آمن الناس بها . وحقا انها كانت ضربا كاذبا من النصرانية كالدعى بين الأصلاء ، ولكنها ضرب حي على كل حال ذو حياة قلبية وليست مجرد قضايا قفرة ميتة .

ونظر محمد من وراء اصنام العرب الكاذبة ومن وراء مذاهب اليونان واليهود ورواياتهم وبراهينهم ومزاعمهم وقضاياهم ـ نظر ابن القفار والصحارى بقلبه البصير الصادق وعينه المتوقدة الجلية الى لباب الامر وصميمه فقال فى نفسه : الوثنية باطل ، وهذه الاصنام التى تصقلونها بالزيت والدهن فيقع عليها الذباب اخشاب لا تضر ولا تنفع ، وهى منكر وفظيع وكفر لو تعملون. انما الحق ان لا اله الا الله وحده لاشريك له ، خلقنا

وبيده حياتكم وموتكم ، وهو أرأف بكم منكم ، وما أصابكم من شيء فهو خير لكم لو كنتم تفقهون .

وان دينا آمن به أولئك العرب الوثنيون وامسكوه بقلوبهم النارية لجدير أن يكون حقا وجدير ان يصدق به .. وان ما أودع هذا الدين من القواعد هو الشيء الوحيد الذى للانسان أن يؤمن به ، وهذا الشيء هو روح جميع الأديان ــ روح تلبس أثوابا مختلفة واثوابا متعددة وهى فى الحقيقة شيء واحد . باتباع هذه الروح يصبح الانسان اماما كبيرا لهذا المعبد الأكبر «الكون» جاريا على قواعد الخالق تابعا لقوانينه لا محاولا عبثا أن يقاومها ويدافعها . ولم أعرف قط تعريفا للواجب أحسن من هذا ، والصواب كل الصواب فى السير على منهاج الدنيا ، فان الفلاح فى ذلك (اذا كان منهاج الدنيا هو طريق الفلاح) : وجاء محمد وشيع النصارى تقيم اسواق الجدال وتتخابط بالحجج الجائرة وماذا افاد ذلك وماذا أثمر؟ اما انه الأهم ليس صحة ترتيب القضايا المنطقية وحسن أنتاجها وانما هو ان خلق الله وأبناء آدم يعتقدون تلك الحقائق الكبرى . لقد جاء الاسلام على تلك الملل الكاذبة والنحل الباطلة فابتلعها وحق له أن يبتلعها لأنه حقيقة خارجة من قلب الطبيعة . وما كاد يظهر الاسلام حتى احترقت فيه وثنيات العرب وجدليات النصرانية وكل ما لم يكن بحق .. فانها حطب ميت أكلته نار الاسلام فذهب والنار لم تذهب .

اما القرآن فان فرط اعجاب المسلمين به وقولهم باعجازه هو أكبر دليل على اختلاف الأذواق فى الأمم المختلفة . هذا وان الترجمة تذهب بأكثر جمال الصنعة وحسن الصياغة ، ولذلك لا عجب اذا قلت ان الأوربى

يجد قراءة القرآن أكبر عناء فهو يقرؤه كما يقرأ الجرائد، لايزال يقطع فى صفحاتها قفـارا من القول الممل المتعب ويحمل على ذهنه هضابا وجبالا من الكلم لكى يعثر فى خلال ذلك على كلمة مفيدة ، أما العرب فيرونه على عكس ذلك لما بين آياته وبين أذواقهم من الملاءمة ، ولأنه لا ترجمة ذهبت بحسنه ورونقه . فلذلك رآه العرب من المعجزات وأعطوه من التبجيل ما لم يعطه أتقى النصارى لانجيلهم وما برح فى كل زمان ومكان قاعدة التشريع والعمل ، والقانون المتبع فى شئون الحياة ومسائلها ، والوحى المنزل من السماء هدى للناس وسراجا منيرا يضىء لهم سبل العيش ويهديهم صراطا مستقيما ، ومصدر أحكام القضاة ، والدرس الواجب على كل مسلم حفظه والاستنارة به فى غياهب الحياة ، وفى بلاد المسلمين مساجد يتلى فيها القرآن جميعه كل يوم مرة يتقاسمه ثلاثون قارئا على التوالى ..

وكذلك ما برح هذا الكتاب يرن صوته فى آذان الألوف من خلق الله وفى قلوبهم ، اثنى عشر قرنا فى كل آن ولحظة . ويقال ان من الفقهاء من قرأه سبعين ألف مرة .

اذا خرجت الكلمة من اللسان لم تتجاوز الآذان ، واذا خرجت من القلب نفذت الى القلب . والقرآن خارج من فؤاد محمد فهو جدير أن يصل الى أفئدة سامعيه وقارئيه . وقد زعم « براديه » وأمثاله انه طائفة من الأخاديع والتزاويق لفقها محمد لتكون اعذارا له عما كان يرتكب ويقترف وذرائع لبلوغ مطامعه وغاياته . ولكنه قد آن لنا أن نرفض جميع هذه الأقوال ، فانى لأمقت كل من يرمى محمدا بمثل هذه الاكاذيب ، وما كان ذو

نظر صادق ليرى قط فى القرآن مثل ذلك الراى الباطل، والقرآن لو تبصرون ما هو الا جمرات ذاكيات قذفت بها نفس رجل كبير النفس بعد أن أوقدتها الأفكارالطوال فى الخلوات الصامتات ، وكانت الخواطر تتراكم عليه بأسرع من لمح البصر وتتزاحم فى صدره حتى لاتكاد تجد مخرجا ، وقل ما تطق به فى جانب ما كان يجيش بنفسه العظيمة القوية ، هذا وقد كان تدافع الوقائع وتدفق الخطوب يعجله عن روية القول وتنميق الكلم ، ويا لها من خطوب كانت تطيح به وتطير فلقد كان فى هذه السنين الثلاث والعشرين قطبا لرحى حوادث متلاطمات متصادمات ، وعالم كله هرج ومرج وفتن ومحن — حروب مع قريش والكفار ، ومخاصمات بين أصحابه، وهياج نفسه وثوراتها — كل ذلك جعله فى نصب دائم وعناء مستمر ، فلم تذق نفسه الراحة بعد قيامه بالرسالة قط ، وقد أتخيل روح محمد الحادة النارية وهى تتململ طول الليل الساهر يطفو بها الوجد ويرسب، وتدور بها دوامات الفكر حتى اذا اسفرت لها بارقة رأى حسبته نورا هبط عليها من السماء ، وكل عزم مقدس يهم به يخاله جبريل ووحيه ، أيزعم الأفاكون الجهلة انه مشعوذ ومحتال ؟ ! كلا ، ثم كلا ! ما كان قط ذلك القلب المحتدم الجائش كأنه تنور فكر يفور ويتأجج ليكون قلب محتال ومشعوذ .. لقد كانت حياته فى نظره حقا وهذا الكون حقيقة رائعة كبيرة .

والاخلاص المحض الصراح يظهر لى انه فضيلة القرآن التى حببته الى العربى البدوى . وهى أولى فضائل الكتاب أيا كان وآخرتها ، وهى منشأ فضائل غيرها ، بل لا شىء غيرها يمكنه أن يبعث للكتاب فضائل

أخرى . ومن العجب أن نرى فى القرآن عرقا من الشعر يجرى فيه من بدايته الى نهايته ثم يتخلله نظرات نافذات ــ نظرات نبى وحكيم . أجل لقد كانت لمحمد فى شئون الحياة عين بصيرة ، ثم كانت له قدرة عظيمة على أن يوقع أذهانها كل ما أبصره ذهنه . أنا لا أحفل كثيرا بما جاء فى القرآن من الصلوات والتحميد والتمجيد لأنى أرى لها فى الانجيل شبيها ، ولكنى شديد الاعجاب بالنظر الذى ينفذ الى أسرار الأمور ، فهذا أعظم مايلذنى ويعجبنى ، وهو ما أجده فى القرآن وذلك كما قلت فضل الله يؤتيه من يشاء .

وكان محمد اذا سئل أن يأتى بمعجزة قال حسبكم بالكون معجزة ، انظروا الى هذه الأرض ، أليست من عجائب صنع الله وآية على وجوده وعظمته ؟ هذه الأرض التى خلق الله لكم ونهج لكم فيها سبلا تسعون فى مناكبها وتأكلون من رزقه ، وهذا السحاب المسير فى الآفاق لايدرى من أين جاء وهو مسخر فى السماء كل سحابة كمارد أسود ، ثم يسح بمائه ويهضب ليحيى أرضا مواتا ويخرج منها نباتا ونخيلا واعنابا .. أليس ذلك آية ؟ والأنعام خلقها لكم تحول الكلأ لبنا وهى فخر لكم .. والسفن ــ وكثيرا ما يذكر السفن ــ كالجبال العظيمة المتحركة تنشر أجنحتها وتحتفز فى سواء اليم لها حاد من الريح وبينا تسير اذا هى وقد وقفت بغتة وقد قبض الله الريح معجزات .. وأى معجزات بعدها تريدون ؟ ألستم أنتم معجزات ؟ لقد كنتم صغارا وقبل ذلك لم تكونوا أبدا ، ثم لكم جمال وقوة وعقل ، ثم وهبكم الرحمة ، أشرف الصفات ، وتهرمون ويأتيكم المشيب وتضعفون وتهن عظامكم ،

وتموتون فتصبحن غير موجودين « ثم وهبكم الرحمة » لقد أدهشتني جداً هذه الجملة ، فان الله ربما كان خلق الناس بلا رحمة ، فماذا كان يكون أمرهم ؟ هذه من محمد نظرة نافذة الى لباب الحقيقة . وكذلك أرى في محمد دلائل شاعرية كبيرة وآيات على أشرف المحامد وأكرم الخصال ، واتبين فيه عقلا راجحا عظيما وعينا بصيرة وفؤادا صادقا ورجلا قويا عبقريا لو شاء لكان شاعرا فحلا أو فارسا بطلا أو ملكا جليلا أو أى صنف من أصناف البطولة .

نعم ، لقد كان العالم في نظره معجزة ، أى معجزة ، وكان يرى فيه كل ما كان يراه أعاظم المفكرين حتى أمم الشمال المتوحشة ، وهو ان هذا الكون الصلب المادى انما هو في الحقيقة لا شيء — انما هو آية على وجود الله منظورة ملموسة ، وهو ظل علقه الله على صدر الفضاء لا غير . وكان يقول : هذه الجبال الشامخات ستحلل وتذوب مثل السحاب وتفنى . وكان يقول : الجبال أوتاد الأرض وانها ستفنى كذلك يوم القيامة وان الأرض في ذلك اليوم العظيم تنصدع وتتفتت وتذهب في الفضاء هباء منثورا فتنعدم وكان لايزال واضحا لعينيه سلطان الله على كل شيء وامتلاء كل مكان بقوة مجهولة ورونق باهر وهول عظيم هو القوة الصادقة والجوهر والحقيقة وهذا ما يسميه علماء العصر القوى والمادة ولا يرونه شيئا مقدسا ، بل لايرونه شيئا واحدا وانما أشياء تباع بالدرهم وتوزن بالمثقال وتستعمل في تسيير السفن البخارية ، فسرعان ما تنسينا الكيماويات والحسابيات ما يكمن في الكائنات من سر الله ! وما أفحش ذلك النسيان عارا واكبر هذه الغفلة اثما . واذا نسينا ذلك فأى الأمور يستحق الذكر اذن ؟ فمعظم العلوم أشياء

ميتة خاوية بالية ـ بقلة ذابلة . نعم ، وما أحسب العلوم لولا ذلك الا خشبا يابسا ميتا وليس هو بالشجرة النامية ولا بالغابة الكثيفة الملتفة التى لا تبرح تمدك بالخشب اثر الخشب فيما تمدك وتعطيك : ولن يجد المرء السبيل الى العلم حتى يجده أولا الى العبادة . اعني انه لا علم الا لمن عبد ، والا فما العلم الا شقشقة كاذبة وبقلة كما قلت ذابلة .

وقد قيل وكتب كثيرا فى شهوانية الدين الاسلامى؟ ! وأرى كل ما قيل وكتب جورا وظلما . فان الذى أباحه محمد مما تحرمه المسيحية لم يكن من تلقاء نفسه وانما كان جاريا متبعا لدى العرب من قديم الأزل وقد قلل محمد هذه الأشياء جهده ووضع عليها من الحدود ماكان فى امكانه أن يضع . والدين الاسلامى بعد ذلك ليس بالسهل ولا بالهين ، وكيف ومعه كل ما تعلمون من الصوم والوضوء والقواعد الصعبة الشديدة : اقامة الصلاة خمسا فى اليوم والحرمان من الخمر . وليس كما يزعمون ان نجاح الاسلام وقبول الناس اياه كان لسهولته ، لأنه من أفحش الطعن على بنى آدم والقدح فى أعراضهم ان يتهموا بأن الباعث لهم على محاولة الجلائل واتيان الجسائم هو طلب الراحة واللذة والتماس الحلو من كل صنف فى الدنيا والآخرة ! كلا فان أحسن الآدميين لايخلو من شيء من العظمة والجلال ، فالجندى الجاهل الجلف الذى يؤجر يمينه وروحه فى الحروب بأجر بخس له مع ذلك « شرف » يحلف به فتراه لا يبرح يقول : لأفعلن ذلك وشرفى . وليست امنية أحقر الآدميين هى أن يأكل الحلوى بل أن يأتى عملا شريفا وفعلا محمودا ويثبت للناس انه رجل فاضل كريم . ليعمد أيكم الى

ابلد انسان فيريه سبيل المكرمات والمحامد فاذا هو قد تأجج قلبه حماسا واتقدت نفسه غيرة وصار في الحال بطلا ـ وما أظلم الذين يتهمون الانسان بقولهم انه ميال بفطرته الى الراحة وانه يستهوى بالترف ويستغوى باللذة ، انما مغريات الانسان وجاذباته هي الأحوال والصعائب والاستشهاد والقتل . أقدح ما بنفس المرء من زناد الفضل تلك نارا تحرق سائر ما فيه من الخسائس والنقائص ، وما كان قط اعتناق الناس لدين من دواعي الشرف والعظمة .

وما كان محمد أخا شهوات برغم ما اتهم به ظلما وعدوانا . وشد ما نجور ونخطىء اذا حسبناه رجلا شهويا لا هم له الا قضاء مآربه من الملاذ ـ كلا . فما ابعد ما كان بينه وبين الملاذ أيا كانت . لقد كان زاهدا متقشفا في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر أموره واحواله ، وكان طعامه عادة الخبز والماء ، وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار . وانهم ليذكرون ـ ونعم ما يذكرون ـ انه كان يصلح ويرفو ثوبه بيده ، فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة ؟ فحبذا محمد من رجل خشن اللباس خشن الطعام مجتهد في الله قائم النهار ساهر الليل دائب في نشر دين الله ، غير طامح الى ما يطمح اليه اصاغر الرجال من رتبة او دولة او سلطان ، غير متطلع الى ذكر او شهرة كيفما كانت . رجل عظيم وربكم والا فما كان ملاقيا من اولئك العرب الغلاظ توقيرا واحتراما واكبارا واعظاما ، وما كان ممكنه أن يقودهم ويعاشرهم معظم أوقاته ثلاثا وعشرين حجة وهم ملتفون به يقاتلون بين يديه ويجاهدون حوله . لقد كان في هؤلاء العرب جفاء وغلظة وبادرة وعجرفية ، وكانوا حماة الأنوف اباة

الضيم وعر القادة صعاب الشكيمة ، فمن قدر على رياضتهم وتذليل جانبهم حتى رضخوا له واستقادوا ، فذلكم وايم الله بطل كبير ، ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا له ولا أذعنوا . وكيف وقد كانوا أطوع له من بنانه ؟ وظني انه لو كان أتيح لهم بدل محمد قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه لما كان مصيبا من طاعتهم مقدار ما ناله محمد في ثوبه المرقع بيده . فكذلك تكون العظمة وهكذا تكون الأبطال .

وكانت آخر كلماته تسبيحا وصلاة — صوت فؤاد يهم بين الرجاء والخوف أن يصعد الى ربه ، ولا نحسب أن شدة تدنيه أزرت بفضله . كلا ، بل زادته فضلا. وقد تروى عنه مكرمات عالية منها قوله حين رزيء غلامه : العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول ما يسخط الرب : ولما استشهد مولاه « زيد بن حارثة » في غزوة « مؤتة » قال محمد : لقد جاهد زيد في الله حق جهاده ولقد لقي الله اليوم فلا بأس عليه . ولكن ابنة زيد وجدتها بعد ذلك تبكي على جثمان أبيها — وجدت الرجل الكهل الذي دب في راسه المشيب يذوب قلبه دمعا ! فقالت : « ماذا أرى ؟ » قال : «صديقا يبكي صديقه» مثل هذه الأقوال وهذه الأفعال ترينا في محمد أخا الانسانية الرحيم — أخانا جميعا الرءوف الشفيق ، وابن أمنا الأولى وابينا الأول .

واني لأحب محمدا لبراءة طبعه من الرياء والتصنع . ولقد كان ابن القفار هذا رجلا مستقل الرأي لا يعول الا على نفسه ولا يدعي ما ليس فيه : ولم يك متكبرا ولكنه لم يكن ذليلا ضرعا ، فهو قائم في ثوبه المرقع كما أوجده الله وكما أراد يخاطب بقوله الحر المبين

قياصرة الروم وأكاسرة العجم يرشـــدهم الى ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة . وكان يعرف لنفسه قدرها . ولم تخل الحروب الشديدة التى وقعت له مع الأعراب من مشاهد قسوة ولـكنها لم تخل كذلك من دلائل رحمة وكرم وغفران .

وكان محمد لا يعتذر من الاولى ولا يفتخر بالثانية . اذا كان يراها من وحى وجدانه وأوامر شعوره ولم يكن وجدانه لديه بالمتهم ولا شعوره بالظنين . وكان رجـلا ماضي العزم لايؤخر عمل اليوم الى غد . وطالما كان يذكر يوم « تبوك » اذ أبى بعض رجـاله السـير الى موطن القتال واحتجوا بأنه أوان الحصيد وبالحر ، فقال لهم : الحصيد! انه لايلبث الا يوما . فماذا تتزودون للآخرة؟ والحر! نعم انه حر ، ولـكن جهنم اشد حرا . وربما خرج بعض كلامه تهكما وسخرية . اذ يقول للـكفار : « ستجزون يوم القيامة عن أعمالـكم ويوزن لكم الجزاء ثم لا تبخسون مثقال ذرة » .

وما كان محمــد بعابث قط ولا شاب شيئا من قوله شائبة لعب ولهو ، بل كان الأمر عنده أمر خسران وفلاح ومسألة فناء وبقاء . ولم يك منه ازاءها الا الاخـلاص الشديد والجد المر . فأما التلاعب بالأقوال والقضـايا المنطقية والعبث بالحقائق فما كان من شأنه قط . وذلك عندى افظع الجرائم ، اذ ليس هو الا رقدة القلب ووسن العين عن الحق . وعيشة المرء فى مظاهر كاذبة . وليس كل ما يستنكر من مثل هذا الانسان هو أن جميع اقواله واعماله اكاذيب ، بل انه هو نفسه أكذوبة . وأرى خصلة المروءة والشرف ـــ شماع الله ـــ متضائلا فى مثل ذلك الرجل مضطربا بين عوامل الحياة والموت . فهو رجل

كاذب لا انكر انه مصقول اللسان مهذب حواشي الكلام محترم في بعض الأزمان والأمكنة . لا تؤذيك بادرته ، لين المس رفيق الملمس ، كحمض الكربون تراه على لطفه سما بقيعا وموتا ذريعا .

وفى الاسلام خلة اراها من أشرف الخلال واجلها ، وهى التسوية بين الناس . وهذا يدل على أصدق النظر واصوب الرأى . فنفس المؤمن راجحة بجميع دول الأرض. والناس فى الاسلام سواء والاسلام لايكتفى بجعل الصدقة سنةمحبوبةبل يجعلها فرضاحتما على كل مسلم ، وقاعدة من قواعد الاسلام . ثم يقدرها بالنسبة الى ثروة الرجل فتكون جزءا من اربعين من الثروة . تعطى الى الفقراء والمساكين والمنكوبين . جميل والله كل هذا. وما هو الا صوت الانسانية ــ صوت الرحمة والاخاء والمساواة يصيح من فؤاد ذلك الرجل ــ ابن القفار والصحراء .

وينكر البعض تغلب الحسية والمادية على جنة محمد وناره ، فأقول أن العيب فى ذلك على الشراح والمفسرين لا على ماجاء فى الكتاب. فان القرآن قد أقل جدا من اسناد الحسيات والماديات الى الجنة والنار ، وكل ما فيه عن هذا الشأن ايماء وتلميح ، وانما المفسرون والشراح الذين لم يتركوا لذة حسية ولا متعة شهوية حتى الحقوها بالجنة ، ولا عذابا بدنيا والما جسمانيا حتى اسندوه الى النار . ثم لا تنسوا ان القرآن جعل اكبر ملاذ الجنة روحانيا اذ قال : « وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » فالسلام والأمن هما فى نظر كل عاقل أقصى امانى المرء وأعظم الملاذ قاطبة ، والشيء الذى عبثا يتلمسه الانسان فى الحياة الدنيا .

وقال ايضا : « ونزعنا مافى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين » وأى رذيلة أخبث من الغل مصدر المحن والمصائب والنقم والآفات ؟ وأى شيء اهنأ من التآلف والتصافى ؟

وأى دليل اشهر ببراءة الاسلام من الميل الى الملاذ من شهر رمضان الذى تلجم فيه الشـــهوات وتزجر النفس عن غاياتها وتقرع عن مآربها وهذا هو منتهى العقل والحزم . فان مباشرة اللذات ليس بالمنكر وانما المنكر هو أن تذل النفس لجبار الشهوات وتنقاد لحادى الأوطار والرغبات . ولعل أمجد الخصال واشرف المكارم هو أن يكون للمرء من نفسه على نفسه سلطان ، وان يجعل من لذاته لا سلاسل وأغلالا تعيبه وتعتاص عليه اذا هم أن يصدعها ، بل حليا وزخارف ، متى شاء فلا أهون عليه من خلعها ولا أسهل من نزعها . وكذلك امر رمضان سواء كان مقصودا من محمد معينا أو كان وحى الغريزة والهاما فطريا فهو والله نعم الأمر .

ويمكننا القول على كل حال بأن الجنة والنار هاتين هما رمز لحقيقة أبدية لم تصادف من حسن الذكر قط مثلما صـــادفت فى القرآن . وماذا ترون تلك الجنة وملاذها وهاته النار وعذابها وقيام الساعة التى يقول عنها : « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى » ماذا ترون كل هذا الا ظلا تمثل فى خيال ذلك النبى الشاعر للحقيقة الروحانية الـكبرى راس الحقائق ، أعنى الواجب وجسامة أمره . لقدكان هذا الرجل يرى الحياة امرا جسيما ويرى لـكل عمل انسانى مهما حقر خطورة كبرى ، فما كان من سيىء

فله من السوء نتيجة أبدية وما كان صالحا فله من الصلاح ثمرة سرمدية . وان المرء قد يسمو بصالحاته الى أعلى عليين ، ويهبط بموبقاته الى أسفل سافلين ، وان على عمره القصير تقوم دعائم أبدية هائلة خفية . كل ذلك كان يلتهب فى روح ذلك الرجل القفرى كأنما قد نقش ثمة بأحرف النار ، وكل ذلك قد حاول فى أشد اخلاص وأحد جد أن يخرجه للناس ويصوره لهم فأخرجه وصوره فى صورة تلكم النار والجنة . وأى ثواب لبسته هذه الحقيقة وأى قالب صبت فيه فلا تزال أولى الحقائق مقدسة فى أى أسلوب وأى صورة .

وعلى كل حال فهذا الدين ضرب من النصرانية وفيه للمبصرين أشرف معانى الروحانية وأعلاها . فاعرفوا له قدره ولا تبخسوه حقه . ولقد مضى عليه مائتان وألف عام وهو الدين القويم والصراط المستقيم لخمس العالم ، وما زال فوق ذلك دينا يؤمن به أهله من حبات أفئدتهم . ولا أحسب ان أمة من النصارى اعتصموا بدينهم اعتصام المسلمين باسلامهم — اذ يوقنون به كل اليقين ويواجهون به الدهر والأبد . وسينادى الحارس الليلة فى شوارع القاهرة أحد المارة : « من السائر ؟ » فيجيبه السائر : « لا اله الا الله » وان كلمة التوحيد والتكبير والتهليل لترن آناء الليل واطراف النهار فى أرواح تلك الملايين الكثيفة ، وان الفقهاء ذوى الغيرة فى الله والتفانى فى حبه ليأتون شعوب الوثنية بالهند والصين والملاى فيهدمون اضاليلهم ويشيدون مكانها قواعد الاسلام .. ونعم ما يفعلون .

ولقد اخرج الله العرب بالاسلام من الظلمات الى النور ، وأحيا به من العرب أمة هامدة وأرضا هامدة ، وهل كانت

الا فئة من جوالة الأعراب خاملة فقيرة تجوب الفلاة منذ بدء العالم لا يسمع لها صوت ولا تحس منهـا حركة ، فأرسل الله لهم نبيا بكلمة من لدنه ورسـالة من قبله فاذا الخمول قد اسـتحال شـهرة والغمـوض نبـاهة والضعة رفعة والضعف قوة والشرارة حريقا وسع نوره الأنحاء وعم ضوءه الأرجاء وعقد شعاعه الشـمال بالجنوب والشرق بالمغرب ، وما هو الا قرن بعد هـذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب رجل فى الهند ورجل فى الأندلس ، وأشرقت دولة الاسـلام حقبا عديدة ودهورا مديدة بنور الفضل والنبل والمروءة والبـأس والنجدة ورونق الحق والهـدى على نصف المعمورة . وكذلك الايمان عظيم ، وهو مبعث الحياة ومنبع القوة ، وما زال للأمة رقى فى درج الفضـل وتعريج الى ذرى المجد ما دام مذهبها اليقين ومنهاجها الايمان . ألستم ترون فى حالة أولئك الاعراب ومحمدهم وعصرهم كأنما قد وقعت من السماء شرارة على تلك الرمال التى كان لا يبصر بها فضل ولا يرجى فيها خير فاذا هى بارود سريع الانفجار وماهى برمل ميت ، واذا هى قد تأججت واشتعلت واتصلت نارها بين غرناطة ودلهى . ولطالمـا قلت ان الرجل العظيم كالشهاب من السماء وسـائر الناس فى انتظاره كالحطب فما هو الا أن يسـقط حتى يتأججوا ويلتهبوا .

البطل فى صورة شاعر
دانتى - شكسبير

البطل فى صورة اله والبطل فى صورة نبى هما من ثمرات العصور الغابرة لا يعود بهما الزمان بعد ذلك أبدا ، وهما يدلان على جفاء فى الفكر وغلظة فى الفهم يمحوهما مجرد تقدم العلوم الطبيعية ، ومحال على الناس أن يحملهم فرط العجب والاعجاب برجل من الرجال حتى يخالوه ألها أوناطقا بصوت اله الا اذا كانوا عائشين فى عصر خال البتة من الأوضاع العلمية الطبيعية . نعم، لقد انقضى زمن الآلهة والأنبياء وجاء الزمن الذى يلبس فيه البطل صورة أقل عظمة وأبهة وان لم تك أقل فضلا وحقا ، أعنى صورة الشاعر ، والشاعر نوع من البطل لا ينفرد به عصر دون آخر ، جدير أن تنتجه أقدم العصور وأحدثها .

بطل نبى شاعر — الى غير ذلك من شتى الأسماء نعطيها للرجل العظيم فى شتى الأزمان والأمكنة وذلك حسبما نرى بينهم من الفروق وحسبما برعوا فيه من فنون الفضل وأبواب العلم ! أو على هذه القاعدة يمكننا أن نعطى كثيرا من الأسماء غير ذلك . وانى لأوقن بأنى لا احسب ان هناك رجلا عظيما لايمكنه أن يكون عظيما

فى كل فن ، فالشاعر الذى لا يستطيع الا ان يجلس الى يراعه وقرطاسه فينظم قصيدة مستحيل عليه ان ينظم قصيدة بارعة ، ولا أحسبه يجيد صفة الفارس الأروع الا اذا كان هو نفسه فارسا أروع ، ولا أحسب الشاعر الكبير الا انه يجمع فى نفسه بين السياسى والمفكر والمشرع والفيلسوف وانه قد كان يمكنه ان يكون — بل هو بالفعل — كل هذه . ثم لا افهم لماذا كان يستحيل على رجل مثل «ميرابو» صاحب القلب الكبير المتوهج المتاجج نارا المفعم دموعا ان يكون شاعرا ينظم القصيد والمبكيات التمثيلية والمقطعات فيقرع بها القلوب والاكباد لو قد ساقته الأحوال والأسباب الى ذلك . والأمر الأولى الجوهرى هو أن يكون الرجل عظيما، وأن فيما قاله نابليون لكلمات لا تقل قيمة عن أكبر وقائعه، وقد أذكر قواد لويس الرابع عشر فيخيل الى انهم كذلك شعراء ، وان فى كلمات القائد تورين ما يماثل اقوال صامويل جونسون حكمة وبلاغة ، فالقلب الكبير والعين البصيرة هما راس الفضائل ، وما كان لامرىء قط أن يجل ويعظم بغيرهما . أو لاتذكرون ان الشاعرين « بترارك » و « بوكاشيو » كانا يقومان بأعمال سياسية فيحسنا القيام بذلك ؟ ! أم لا تحسبون ان الشاعر « بارنز» لو قد جعله الله مكان « ميرابو » لأتى ما لم يستطعه ؟ ولا نعلم اى عمل من الأعمال كان شاكسبير لايؤديه على اكمل حال لو قد اسند اليه .

ولست انكر أن لكل امرىء طبيعة خاصة واستعدادا فطريا ، وان هنالك فروقا فى الغرائز، ولكن فروق الأحوال والعلل أكثر واكبر . وما عظماء الرجال فى ذلك الأمر الا كأصاغرهم ، فانك لتتناول الطفل الممكن

تصييره اى صانع فتعلمه حتى يصبح حدادا او نجارا او بناء ، ومتى أصبح هذا اوذاك بقى كذلك طول عمره.
واذا كنا لا نزال كما قال « أديسون » نجد الرجل الأعرج الموهون يعتمد على عصاه وهو مع ذلك حمال ينوء تحت ثقله الفادح ، وآخر ضخم الجثة شديد القوى عبل الشوى عادى الألواح كأنه الهيكل المبنى وهو مع ذلك خياط لايحمل الا خيطا وابرة يخف محمولهما على النملة ، على أن الأمر غير متوقف على الاستعداد الطبيعى . وكذلك الرجل العظيم ماذا يصير وبم يحترف ـ أيصير غازيا أم سلطانا أم فيلسوفا أم شاعرا ؟ انها لمناظرة عويصة معضلة بينه وبين العالم ! وما عليه الا أن يقرأ العالم وقوانينه ، والعالم وقوانينه صحيفة منشورة أمامه ، وما لدى العالم مسألة أهم وأخطر مما يراه ويقضى به فى شأن الرجل العظيم .

ان بين الشاعر وبين النبى فى نظر المتأخرين فرقا كبيرا . ولقد كان مدلولهما فى بعض اللغات القديمة واحدا . فلفظة « فاتيس » معناها شاعر أو نبى . والحقيقة انه ما زال بين النبى والشاعر لو يفقه الناس شبه قريب . وما برح جوهرهما واحدا من حيث أن كليهما ينفذ ببصره الى سر الكائنات المقدس ، أو ما يسميه «جوته» السر الجلى ، الجلى لكل انسان ولا يكاد يراه مع ذلك انسان . السر الالهى الكائن فى كل كائن ـ المستقر فى باطن « الظاهر » كما يقول «فيشتى» ـ السر الذى ما جميع الظواهر من النجوم الزاهرة الى الرياض الناضرة الى ظواهر الانسان وافعاله الا ثوب له وبدن يتراءى فيه ويظهر ، نعم . السر الالهى فى كل زمان ومكان موجود ولاريب ، وربما أغفله الناس فى

معظم الأوقات والجهات اذ يحسبون الكون الذى هو « فكر الله المحقق » شيئا عاديا تافها هامدا كأنما هو شيء جامد تولى صنعه النجار والحداد . ولا داعى هنا للاكثار فى ذلك الموضوع ولكنى أقول : ويل للذين لايفقهون ذلك ولا يؤمنون به ، ويل لهم واسف عليهم ، ويا بؤس الحياة اذا كانت غير مشفوعة بذلك !

ولكنى اقول : من كان من الناس ينسى ذلك ويغفله فان « الفاتيس » اعنى الشاعر أو النبى باحدى اللغات القديمة لم ينسه ولم يغفله ولكنه نفذ اليه ببصيرته ، وانما أرسله الله ليفعل ذلك وليكشف من سر الله ما غمض .

هذه هي ابداء رسالته الى الناس . أن يجلولنا غامض السر ـ ذلك السر الذى هو اليه أقرب وبه أعرف من سائر الخلق ، فاذا نسوه فقد ذكره مسوقا الى ذكره بأقوى دافع من ذات نفسه عائشا فيه من حيث لم يرد ولم يشعر . فهو ليس بتابع لمعتاد القول ولكنه رجل نظارة مبتدىء محقق ، فهو لايستطيع الا أن يكون مخلصا ، ومن عاش من الناس وسط الظواهر فهو العائش فى صميم الحقائق ، المجتهد فى الله ، الجاد فى شئون الحياة والكائنات ، ولو عبث العالم طرا فالاخلاص أول أسباب شاعريته ونبوته . وهكذا يشترك الشاعر والنبى فى ادراك سر الله الجلى ، فهما من حيث ذلك واحد .

اما الفرق بينهما فذاك : وهو أن النبى قد تناول هذا السر المقدس من وجهة نظر الخير والشر ، المحظور والمباح ، وتناوله الشاعر من وجهة الجمال والحسن والجلال وما شاكل ، فأحدهما الهادى الى ما نفعل ،

وثانيهما الدال على ما نعشق . على انهما بعد متداخلان ، وفرعان متعانقان لايمكن الفصل بينهما وفصم عروتهما ، ولا يخلو النبى من تتبع الجمال أيا كان ، والا فكيف له أن يبصرنا ما يجب علينا اتيانه . ولقد جاء فى التوراة — وهو قول نبى — آية جديرة ان تحسب كأبدع مانظم شاعر وهى : « انظر الى زهر الرياض فانك لا تراه يكدح ولا يغزل ولا ينسج وهو مع ذلك قد كسى من ثياب البهجة وبرود الحسن ما لم يكسه سليمان فى ريعان سلطانه » اليست هذه الآية ثمرة البصيرة النافذة الى أعمق أعماق الجمال ؟ « زهر الرياض » رافل من فنون الوانه فى أقشب من مطارف الأمراء وآنق من حلل الملوك وهى بعد نابتة من الثرى المتواضع والتراب المتطامن كأنها عيون الملاح ترنو اليه من خلال بحر الجمال الباطن . وهل كان للأرض ان تصوغ هذه الأزهار لو لم يكن الجمال جوهرها رغما من ظاهرها الجعد المتلبد ؟ ومن ثم قال «جيتا» قولا استنكره الكثيرون وهو « الجمال أفضل من الخير والجمال يشتمل على الخير وأكثر » وانما قصد الى الجمال الحق الذى يفضل الجمال الكاذب كما تفضل حدائق الجنة غابات « بولونيا » . وحسبنا ذلك بيانا للفرق بين الشاعر والنبى .

قليل فى شعراء العصور القديمة والحديثة من يحسبهم الناس كاملين قد بلغوا الغاية القصوى . وهذا القول وايم الله ان كان ظاهره الصدق فهو فى الواقع أخدوعة ، اذ الحقيقة انه ليس فى جميع الشعراء كامل ، وانما الشعر عرق يجرى فى طبيعة كل أمرىء لا يخلو منه ، وكل انسان يجد فهم قصيدة فهو فى أثناء قراءتها شاعر . وما الفؤاد الذى يرتاع لتلاوة جحيم : «دانتى»

الا من طينة فؤاد ذلك الشاعر وان كان بعد أقل شاعرية. ولم يك غير شاكسبير بقادر على اشتقاق قصة هامليت من تلك الحكاية القديمة ـ حكاية الشاعر « ساكسو جراماتيكاس » ولكنه ليس من انسان الا ويستطيع أن يصنع قصة ما من تلك الحكاية يكون مقدارها من الجودة والرداءة بمقدار ما وهبه الله من قوة الخيال أوضعفه . وارى التعريفات كلها اختيارية ذوقية ما لم يكن هنالك فرق محدود كما بين المربع والدائرة ، فكل رجل فاق حظه من المزية الشعرية حظوظ سائر قومه وجيله حتى نصع أمره بينهم كالغرة فى الفرس البهيم والأبلق وسط الدهم كان جديرا أن يسموه شاعرا . وكذلك شأن انتقادهم أكابر شعراء العالم ، فان من رأوه من الشعراء قد برز فى مضمار الشعر حتى بز القرناء وحلق فى سماء الخيال حتى علا النظراء اجمعوا على اجلاله وسموه شاعرا عاما . على ان مثل هذا الحكم ليس فى الحقيقة الا مسألة ذوق ورأى خاص ، فان فى جميع الشعراء بل فى جميع الناس معنى من الشعور العام أو الشاعرية العامة لم يخل فرد من ذلك ، وسرعان ما ينسى الناس معظم الشعراء . ثم لا تحسبن ان الأعاظم الأفضلين منهم : أمثال شاكسبير ، وهوميروس ، الا ملاقين من النسيان حظوظهم ، ولابد من يوم يصبح أمرهم فيه نسيا منسيا .

ولسائل أن يسأل أى فرق هنالك بين الشعر الحر وبين الحر من الكلام غير الشعرى ؟ فالأجوبة على ذلك كثيرة ولا سيما ما كتبه نقاد الألمان فى ذلك الصدد ، وفيها الذى لا يفهم لأول وهلة . فمن ذلك قولهم : ان الشاعر تكون روحه عديمة النهاية ثم هو ينفض هذه الخاصية ، أعنى عدم النهاية على كل شيء يصفه أو

يصوره . فهذا الـكلام وان لم يكن بمحكم ولكنه جدير بالذكر اذ كان انما قيل فى موضوع مبهم مثل الشعر ، ثم هو لا يخلو من بعض المعنى اذا تؤمل وتدبر . اما انا ، فانى أجد معنى جما فى التعريف القديم للشـعر وهو : انه الـكلام الموزون المودع شيئا من الموسـيقى حتى لهو ضرب من الغناء . وحقا لو اضطر الانسان الى اعطاء تعريف للشـــعر لما كان متجاوزا ذلك التعريف القديم ، فاذا كان نظمك موسيقيا لا فى اللفظ فقط بل فى اللب والمادة وفى جميـع الأفـكار والمعـانى والنظام والنسق فهو شعر والا فلا ، والمعنى الموســـــيقى هو ما اذا خرج من ذهن نفذ الى لباب الشيء وادرك مكنون سره ، أعنى النغمة الـكامنة فى جوفه — اعنى ما يستتر فى ضمير ذلك الشيء من موسيقى الائتلاف والوئام — من تلك الموسيقى التى ليس الا بفضلها يوجد ذاك الشيء ويكون أهلا لان يوجد فى هذه الدنيا . ولقد يمكننا القول بأن لباب كل شيء موسيقى ، أعنى انه اذا بدا للناس بدا فى منطق موسيقى ، أى بدا فى صـوت الغناء . وأنى أرى معنى الغناء عويصا عميقا ، اذ أين ذلك الذى يستطيع ان يصف لنا تأثير الغنـاء بالقلم أو باللسان ، والغناء ضرب من الـكلام المستحيل النطق والمتناهى العمق الذى يذهب بنا الى شواطيء المجهول فيتركنا ننظر برهة فى ذلك البحر .

أجل ان فى جميـع الـكلام حتى فى اكثره استعمالا لشيئا من النغم والغناء ، وليس ثمة قرية فى العالم مهما حقرت الا ولأهلها لهجة قد خص بها منطقهم وكلامهم — فهذه اللهجة هى النغمة التى يغنى بها أولئك القوم ما يقولونه من الـكلام ! نعم ان اللهجة ضرب من النشيد

والترنم ، وما من قوم الا ولهم لهجة خصوا بها وان كانوا لا يفطنون الا للهجات غيرهم . ثم اذكروا أيضا ان كل كلام صـــــادر عن انفعال فانه يلبس بطبيعته ثوبا موسيقيا ، بل أرى كلام الغضـبان صـوتا من الغناء ، وهكذا كل لباب وصميم وشيء عميق فهو غناء ، بل يظهر لى ان الغناء هو لبابنا الجوهرى ، وان كل ما فينا بعد ذلك اللباب أو الغناء فانما هو لفائف وقشور واغلفة ! نعم ، الغناء هو أول عناصرنا وعناصر جميـع الأشياء . ولقد كانت اليونان تقول فى خرافاتها : ان للفلك فى مسيره موسيقى .. ولعل ذلك كان دليلا على ما كانوا يشـعرون به من تركيب الـكائنات البـاطنى ونظامها الداخلى ، وان روح أصواتها وتعبيراتها لم يك الا غناء وموسيقى . وعلى ذلك فسنسمى الشـعر : فكرا موسيقيا : والشاعر هو الذى يفكر على هـــذه الصورة ، وأساس ذلك هو فى الحقيقة قوة الذهن ، وانه الاخلاص ونفاذ البصيرة هما اللذان يجعلان المرء شاعرا . انظر الى صميم الأشياء يكن نظرك موسيقيا ، فان قلب الطبيعة هو الموسيقى لو أمكنك ان تنفذ اليه.

ويظهر لى أن الشـاعر ــ كاشـف اسرار الوجود بنغماته ــ ينزل من نفوس الناس منزلة منحطة جدا عن منزلة النبى ، اذ يرون عمله تافها ووظيفته صـغيرة ، فكان البطل عندهم أولا الها ، ثم نبيا ، ثم شاعرا . اليس فى ذلك دليل على انحدار الرجل العظيم فى انظارنا على توالى الزمن ؟ فانا نراه أولا الها ، ثم ذا وحى الهى ثم لا نرى فيه بعد ذلك الا ناظم اشعار جميلة ورجلا نابغة وبارعا وما اشبه ! هذا هو الظاهر لى ولـكنى احمل نفسى على الاعتقاد بأن الأمر خلاف ذلك شعورا

منى بأنه لايزال فى بنى آدم الاجلال المفرط ـ لم ينقص مثقال ذرة ـ للعظمة والبطولة فى اية هيئة بدت واى اسم اعطيت .

وقد اعلم أنه اذا كنا الآن لا نرى فى الرجل العظيم الها ولا نبيا فما ذلك ان رأينا فى الله وفى ينبوع الضياء الأقدس الأعلى ومنبع العظمة والعقل الأوفر الاوفى قد اتضع وخبا ، بل بالعكس لأنه قد سما وطاب . وجدير بكم أن تعوا ذلك وتذكروه .

ولا أنكر ان الشك والكفر والاستخفاف ، آفات هذه العصور ، قد أحدثت ضررا عظيما فى هذا الأمر الأجل الأعلى باضعافها فى نفوس الناس اجلالهم للبطل حتى أصبح معظمهم ينكرون وجود العظماء المستحقين للاجلال ، وهذه وأبيكم الأم العقائد وانكاها وأوخمها مغبة ، ولن يكون مع اعتقادها الا اليأس المطلق من الانسانية وسائر أمورها وأشيائها . ومع كل ذلك فانظروا الى نابليون ! ضابط صغير على طائفة من جند المدافع هذا هو ظاهر نابليون ولكنه مع ذلك قد أصاب من طاعة رجاله وتقديسهم اياه ما لم يصبه كثير من الأنبياء وجبابرة الملوك . ثم انظروا الى الشاعر بارنز ، كيف كان اذا أطرد به مجرى الحديث استوقف الأميرات وخدم الاصطبلات بسحر بيانه ، فلم يبق منهم الا من شعر بأن لذلك الرجل فتنة وجلالا لم يروهما لأحد غيره ، وانه هكذا تكون الرجال والا فلا ! فترون من ذلك انه قد كان يكمن فى قلوب هؤلاء القوم وان لم تصرح به السنتهم ، ويلمح من خلال حركاتهم وان لم يظهر ساطعا جليا ، انهم كانوا يرون عظمة وقوة وجلالة لايجدونها لسائر الرجال فى ذلك الفلاح الكثيف

الحاجبين الوقاد المقلتين صاحب الكلمات التى تستوكف الأعين تارة بهوامر الدموع وطورا تقوم بالضحك الشديد حنايا الضلوع ، أو لانشعر نحن أيضا بذلك ؟ ولـكنه لو طهر الله نفوس الناس من ادران الشك والاستخفاف والعبث وسائر هاتيك الرذائل — وسيفعل الله ذلك يوما ما — نعم ، لو ابدلت القلوب من رذيلة الايمان بالمظاهر الـكاذبة فضيلة الايمان بالجواهر الصـــادقة اذن فأى منزلة تكون لمثل الشاعر بارنز فى نفوســنا واى محبة واكبار تمجيد .

وعلى كل ذلك ألا ترون ان لدينا شاعرين ، هما وان لم ينالا منزلة الألوهية فقد نالا فى هذه العصور على ما بها من رذائل الاســتخفاف والنـكران والشـك منزلة التقديس والولاية ، نعم ان شاكسبير ، ودانتى لوليان من أولياء الشعر حرام على كل انسان ان ينال مقامهما الشريف بأدنى اساءة . وهذه نتيجة وصل اليها العالم بالالهام والفطرة رغما مما قام فى طريقه من ظلمات الجهل والشك وعقبات الجحود والـكفر . ويفصـل هـذين الشاعرين من الزمن مسافة قصـية وكلاهما قائم فى فضاء الدهر كراهب فى فضاء القفر له مملـكة من الوحدة ودولة من الوحشة غريب فى جيله وقومه .

غربتــه العلى على كثرة الأهـــ
ـــل فأضحى فى الأقربين غريبــا

لا مثيل لهما فى سائر الشعراء ، تباركا عن الأنداد والأقران ، يحفهما فى نظر العالم نور من الجلال ورونق من الـكمال ، فهما مقدســان وان لم يتول تقديسهما بطـارقة وقســوس . وهكذا ترون كيف ان ما أودع نفوس البشر من فطرة البطل لايزال يحيا فى قلوبهم برغم

انتشار السخرية والاستخفاف واستيلاء الجحود والكفر . وسنلقي نظرة في تاريخ هذين البطلين .

لقد ألفت عدة تراجم لدانتي وجملة حواش وشروح لكتابه ولكنها على العموم قليلة الثمرة . أما تاريخ حياته فقلما يعرف عنه شيء . لقد فقد معظمه حتى لايمكن تداركه ، لم يك دانتي في زمانه الا رجلا صغير الشأن شريدا طريدا مكسور الفؤاد مهيض الجناح ، قليلا اهتمام الناس به مدة حياته ، واسوأ من ذلك ان معظم أنباء ذاك الخمول والبلاء تراها على علاتها قد بادت على ممر خمسة قرون . وعلى كثرة ما كتب عنه من التراجم والشروح فكتابه هو جل ما نعرفه عنه . كتابه وصورته المنسوبة الى المصور « جيوتو » التي اذا ما نظرت اليها لم يسعك الا الشهادة لصانعها بالاحسان والاجادة أيا كان . أما أنا فأرى ذلك الوجه أمس الوجوه لكبدي ، وأقرعها لأحشائي . وارى آية الحزن والألم وآية الفوز كذلك والظفر على صحيفة ذلك الوجه البادي في رقعة المصور منفردا وحيدا لا يحفه شيء من الأثاث والمتاع الا ما يرفرف عليه من روح الوحشة — ارى كل ذلك عنوانا على تاريخ دانتي ! وظني انه أشجى وجه صور من عالم الحقيقة — وجه محزن مفتت للفؤاد ، أساس معانيه الرقة والرحمة والحنان لا كما تكون في الرجل بل كما تكون في الطفل ، ولكن قد خالط هذه المعاني الرقيقة معان أقسى وأمر ، معاني وحشة وسخط ، وألم في تجلد وتعزز ، ويأس في رفعة وكبرياء . روح رقيقة هواء قد لبست آية البأس والقسوة والاستبداد والعبوس والاكفهرار ، كأنما تنظر اليك من وراء سجف من الثلج ! وقد قلصت شفتاه

احتقارا وازدراء ـ لا كازدراء الانس ، بل كازدراء الآلهة ـ للشيء الذي يذيب حشاه ويأكل فؤاده ـ كأن ذلك الشيء هو أحقر ما يكون وادنى ، وكأن صاحب الوجه هو أشرف من ذلك الشيء وان كان يتجرع منه مر البلاء ويسام به سوء العذاب ، انما هو وجه رجل منابذ للدنيا ، مناصب لها ، معارض لأحكامها ، قد صب عليها غارة شعواء ، وأقام لها من الحرب سوقا ، بضاعها أبدا نافقة ، ورحى ما تبرع العمر دائرة . وهل هى الا محبة تحولت حنقا ـ لا يفتر ولا يستريح ـ متمهلا مطردا ساكنا كحنق اله ! ثم ترى للعين نظرة اندهاش واستفهام كأنها تسأل : لماذا خلق الله الدنيا على هذه الصفة ! هذا هو دانتى هذا هو صوت عشرة قرون خرس . هـذا هو الرجل الذى صدح لنا صوتا عن الجحيم والجنة !

وارى هناك مطابقة بين مانعرفه عن حياة دانتى وبين صورته وكتابه ـ ولد هذا الشاعر بمدينة فلورنس من اعمال ايطاليا فى عام ١٢٦٥ ، وعلم وثقف على أحسن نظام كان اذ ذاك ، وكان فيما تلقاه كثير من الفقه والمنطق والأدب اللاتينى ـ وله قدم راسخة فى بعض أبواب العلم ، ولم يدع دانتى فيما نظن شيئا يتعلم حتى حصله ، وكان ذا فهم صفى مهذب ، وذكاء مشتعل ، وعقل راجح ، وكان قد اتقن من العلم ماجاء فى الأزمان القريبة من عصره ، فأما ما بعد عنه فى أقاصى الغابر فلم يجد اليه سبيلا لخلو عصره من المطبوعات ومن أسباب التواصل ، وسلك فى حياته المذاهب المعتادة ، فصحب جيش بلاده فى حربين ، وذهب مرة سفيرا الى بعض الولايات ، وأصبح بفضل ذكائه وجده أحد القضاة

الاكابر وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره ، وكان قد عرف فى طفولته صبية حسناء فى مثل سنه ومنزلته ، وكان يراها احيانا وكانت تمتد بينهما صلات على بعد ، وكلكم يعرف ما كان من أمره معها وما كان من الشتات والفرقة ومن اقترانها برجل غيره ووفاتها بعد ذلك بقليل ، وهى تشغل جزءا عظيما من كتاب دانتى ومن حياته أيضا . ويظهر لى انه لم يحب قط غيرها انسانا، وكان حبا من صميم الأحشاء وان فؤاده ما برح يناجيها — والقبر ما بينه وبينها — وينزع اليها وهى مع الله ماتت ، وزوج من امراة اخرى ولكنه لم يسعد ، وشتان ما بينه وبين السعادة .

ولسنا متوجعين لدانتى آسفين لما أصابه ، فانه لولا تلك المصائب لما كان دانتي الا أحد قضاة بلده ولخسر العالم كلمات من ابرع ما أنشد وما تغنى به . نعم لقد كان يزيد قضاة « فلورنس » واحدا ولكن العشرة قرون الخرس كانت تستمر على خرسها والعشرة التالية المصغية (لأنه سيتم طبعا بعد تاريخ وفاة دانتى عشرة قرون واكثر) تحرم تلك القصيدة الرائعة — كتاب دانتي — وتخسر لذيذ مسموعها . نعم ، لا أسف ولا حرقة ولا حسرة وكيف وانما اراد الله لذلك الشاعر حياة أشرف وأسمى ، ولعلنا لا نعرف ايهما الأسعد الأهنأ — عيشة المرء الأليمة ، أم عيش هادىء عادى ، والسعادة والشقاء سر من الأسرار يعيى به البشر ، وكلهم فيه خابط عشواء وحاطب ليل .

وبينما دانتى عائش فى وطنه قائم بوظيفة القضاء اذ ثارت فتنة ادت الى نفيه وسائر جزبه فكتب عليه منذ ذاك الشقاء والويل وانتزعت أملاكه واصبح وهو :

ناء عن الأهل صفر الكف منفرد
كالسيف عرى متناه عن الخلل

وكان يشعر وفى حشاه جمرة تتوقد بأن ما لقيه من افحش الظلم وأفظع الجور ، وحاول جهده أن يرجع الى وطنه وثروته ولم تدع وسيلة الا اتخذها حتى السلاح ولكن عبثا حاول وما زاده اجتهاده الا خطبا على خطب ومحنة فوق محنة فأهدر دمه ونودى متى قبض عليه أعدم احراقا ، هكذا وجد فى بعض الآثار وألفى أيضا رسالة تاريخها واقع بعد هذه الحوادث بعدة سنين ردا من دانتى على اقتراح قدمه اليه قضاة بلده يعدونه بالعفو والعودة الى منصبه وأملاكه اذا هو قبل أن يقدم معذرة وغرامة ، فأجاب فى عزة وكبرياء : « اذا أنا لم ارجع برىء الساحة موفور الكرامة ، فلا رجعت أبدا » .

وكذلك راح دانتى فى هذه الأرض الرحبة الفضاء بلا دار ينتقل من مضيف الى مضيف ، ومن محل الى محل منطبقا عليه قوله : « آه ، ما أوعر المسلك ، وما اخشن الطريق » ولم يكن دانتى بالجليس الممتع ، وأنى يكون كذلك من كان هو كسير القلب كسيف البال ؟.. كلا ، ولا كان دانتى وهو صاحب الطبع الحاد ، والفؤاد الجاد ، والأحزان والأشجان بجديرأن يلهىالغير بفكاهته ويضحكهم بنادرته . وقد روى عنه بترك انه لما كان فى بلاط الأمير « كانديلاسكالا » وقد لامه ذلك الأمير على اطراقه واكتئابه وصمته ، اجابه بجواب خشن ، وكان الأمير اذ ذاك وسط مجانه ومزاحه يضحكونه بغرائب النوادر ، فأقبل على دانتى يقول له : « اليس عجيبا ان نرى ذلك الماجن المسكين يجتهد ليجعل فى مقاله متاعا

ولذة ، وانت على ما بك من عقل وحكمة تطوى اليوم فى اليوم ، والشهر فى الشهر ، مطرقا صامتا ، لا تفوه بكلمة يكون لنا فيها مستمتع ومستلذ ؟ » فقال دانتى : « لا عجب ! او لاتذكر المثل : ان الطيور على اشكالها تقع » . فمثل هذا الرجل الكبير صاحب الأجوبة المسكتات ، والكلمات الموجعات ، والصمت والاطراق، لم يك ممن تروج بضاعتهم بأفنية الملوك . وكذلك ما زالت الأيام بدانتى حتى افهمته انه اصبح ولامأوى له على ظهر الأرض ، ولا ملاذ ، ولا ملجأ ، ولا أمل ، وان الدنيا قد نبذته ولفظته ليضرب فى انحائها شريدا .

كأنما هو فى حل ومرتحل
موكل بفضاء الأرض يذرعه

وانه ليس تحت نجوم الفلك قلب ينبض رحمة له أو حشا يخفق وجدا عليه ، وانه لا خل ولا صاحب ، ولا سلوى ، ولا عزاء .

وكذلك كلما صدت عنه الدنيا وتجافت جنح بالطبع الى جنح بالطبع الى الآخرة وتوجه وامتلأ خياله بصورة العالم الأبدى ـ ذلك العالم الحق الذى ليست هذه الدنيا وبلدانها ومناصبها ومصائبها الا ظلا كاذبا يرفرف عليه ، وناجته نفسه : اما وطنك « فلورنسا » فلست ناظرا آخر الأبد ، واما الجحيم والجنة فسوف ترى ! وماذا وطنك والأمراء وماذا العالم والحياة ؟ ! تلك لا شىء ! وكذلك اذ أصبح دانتى فى الدنيا بلا مأوى جعل مأواه فى عالم الآخرة الرائع الهائل وكذلك أصبح لايرى حقيقة غير الآخرة ، فصارت مسرح خواطره ومراح أفكاره . والآخرة سواء حسبها الناس شيئا معنويا او شيئا حسيا فانها ما برحت أهم أمورهم ، ولكن دانتى

كان يعتقد انها حسية تنظر بالعين وتوطأ بالقدم وتمس باليد ، وكذلك كانت عقيدة تلك العصور ، فلم يشك دانتى فى انه سيبصر طبقــات الجحيم وينظر بها بركة « ماليبولج » كما يشك أحدكم فى انه يبصر القسطنطينية لو اصبح على شاطىء البوســفور ، فلمــا أفعم فؤاد دانتى من هذه الأفكار والخواطر ، وطال عليه تأملها فى سكوت وتدبرها فى صمت ، طفح بها اناء صدره وفاض فبرزت للعالم فى ذلك الشعر الباهر والغناء الساحر — كتابه المســمى « القصــة المقدســة » أشرف الــكتب الحديثة وأشهرها .

ولقد كان من أقوى اسباب العزاء لدانتى ، بل من أعظم دواعى ألفخر ، انه استطاع ان يخرج ذلك الكتاب الأجل فى منفاه ومحنته ، وانه لم يك فى طاقة « فلورنسا » ولا فى قدرة اى رجل أو رجال أن يحولوا بينه وبين اتيان تلك المأثرة الــكبرى ، والمفخرة العظمى أو يعيثوه عليها ، وكان يشعر بعض الشعور — انه عمل جليل كأجل ما يستطيعه انسان . وكان ذلك البطل الضخم يقول فى شدة بأسائه وازمة تكرائه : اذا أمضيت عزمك ظفرت — كل من ســار على الدوب وصــل — وكانت مئونة الــكتابة كبيرة عليه جدا ، وكان نصبها شــاقا حتى قال : « هذا الــكتاب الذى تركنى عدة أعوام فى هزال » . أجل ، لقد احرز دانتى قصــبات الســبق بالــكد والألم ، لا بالدعة والعبث — بل بالجد العلقمى والجهد الناصب . كيف لا وانما بدم فؤاده سطر ذلك الــكتاب وخطه ، وكذلك معظم الــكتب الجليلة تنقش بدماء كتابها . والــكتاب مودع سيرته جميعها ، وكانت وفاته بعد ان اكمله بمدة يسيرة ولما يطعن فى السن —

وانما قضى فى السادسة والخمسين من عمره ـ ضحية الحزن والكمد ـ هكذا يقال .. وهو الآن مدفون حيث لاقى منيته فى بلدة « رافينا » . ولما مر على وفاته قرن طلب أبناء وطنه الجثة من أهالى « رافينا » فأبوا كل الاباء . وعلى قبر دانتى هذه الآية : « هانذا ـ دانتى ـ مدفونا بعيدا عن وطنى ومسقط راسى » .

قلت ان قصيدة دانتى غناء ، وقد سماها « تيك » غناء لغزيا عميقا ، وما عدا بذلك عين الحقيقة . وقد قال «كولريج » فى بعض كتاباته : ان كل جملة موسيقية التركيب يجرى فى أثناء لفظها حلو النغم فلابد من أن تـكون ذات معنى جليل شريف لأنه ما زال أبدا بين الجسم والروح ، بين اللفظ والمعنى ، ألفة وشـبه . والشعر القديم الجيد ـ شعر هوميروس مثـلا ـ كله غناء ، بل كل شعر حر غناء . وان كل شعر لا يصلح أن يتغنى به فما هو بشعر ولـكنه قطعة نثر فصلت فى لفظ طنان فيه عقوق لقواعد النحو واذى ومصاب على القراء . واذا كان فى راس أحد الناس خاطر فما باله لايبديه فى عبارة سهلة قريبة ـ أعنى فى جملة نثرية ؟ بل ما باله لايسنريح أو يخرجه ملتويا معقدا تطن به القافية ؟ أما انه لاحق له قط فى النظم والغناء بالقوافى حتى تتملك فؤاده حرارة الانفعال وموسـيقى الوجـد فيصبح صوت منطقه بفضل موسيقية أفـكاره وعمقها وعظمتها موسيقيا ، اذن فله علينا أن ندعوه شـاعرا ونصغى اليه على انه غريد الناطقين وهزار اللافظين ، والأدعياء فى ذلك كثيرون ولذلك كانت قراءة النظم على القارىء الأريب عملا شاقا ان لم نقل عملا لا يطاق ! وما أقبح النظم الذى لم تكن هناك ضرورة الى نظمه ـ الذى

كان أولى له أن يلقى الينا معناه فى وضوح واختصار من غير تقطيع ولا رنة ولا طنين . وانى أنصح الى كل من امكنه أن يقول أفكاره الا يغنيها ، وأن يفهم انه لا مجال فى الأحوال الجدية وبين القوم الجادين للطنين بأفكاره والتلاعب بها ما دامت ليست مما يقذفه الجنان برغم صاحبه شعرا . وكما ان الغناء الحر يلذنا ويطربنا ، فكذلك الكاتب منه يؤلمنا ويوجعنا ولا يقع منا الا موقع الضوضاء الممقوتة المنكرة ، ولا نراه الا كطنين الذباب او دوى النحل .

وحسب دانتى فخرا أن أقول ان قصته هى غناء حسن . أجل ، انى لأحس الوزن الموسيقى يطرد فى جميع لفظها فكأنها نشيد من الأناشيد . ولعل لمزية اللغة الطليانية دخلا فى ذلك . بل ارى حركة اللسان فى تلاوتها تجرى على ميزان فكأنها ضرب من الرقص ، ولكن السبب الأكبر فى ذلك هو خروجها من أعماق الفؤاد ، فجوهرها ومادتها من الموسيقى ، وهى بفضل عمقها وحرارتها واخلاصها موسيقية ، وانك ما تعمقت قط الا أصبت الموسيقى فى كل شىء . ثم لا تنس ما بالقصة من حسن الائتلاف والتوازن والتناسب وهذا أيضا من جنس الموسيقى وكأنما أركانها الثلاثة : الجحيم ، والمطهر ، والجنة — فى تواجهها الأركان الثلاثة لقصر مشيد وكأنها كنيسة قدسية عامة باذخة على وجهها آلة الروع والجلال والهيبة ، هذا هو العالم الذى خلقه دانتى وملأه بالأرواح بين منعم ومعذب — هذا هو عالم الارواح الذى خلقه دانتى ؟ وهى أشد أشعار الدنيا اخلاصا ، فالاخلاص هنا أيضا مقياس الفضل ، ولقد خرجت من لباب لبه فهى لا تزال تبلغ لباب ألبابنا .

افرغت في الزجاج من كل قلب
فهي محبـــوبة الى كل نفس

وكان أهل فيرونا اذا بصروا به في احدى الطرقات قالوا : ها هو ذا الرجل الذى كان فى جهنم ! نعم ، وخالق الخلق لقد كان فى جهنم — فى جحيم الحزن والكربة والبلاء . والقصص التى تخرج من القلوب مقدسة لا يكون مصدرها الا الشقاء والبث واللوعة ، أوليس الفكر والعمل الحر أيا كان ، والفضيلة العليا — أفليست كل هذه بنات الألم ؟ فكأنما نتجت من الزوبعة السوداء — أليست مجهودا صادقا كمجهود الأسير اذ يحاول خلاصه ؟ وما زال الألم مصـــفاة النفوس وراووق للطباع .

وقـــد هذبتك الحادثات وربما
صـــفا الذهب الابريز قبلك بالسبك

بل ، ليخيل الى ان شعر دانتى قد سبك فى تنور روحه وبوتقة قلبه . ألم يتركه «مهزولا» عدة سنين ؟ وان الدقة لتمتوز قصته جميعها لم تغادر منهـا فقرة ولا جملة ، فتراها لذلك أصدق ما تكون وأجلى وأنصع . وتراها متجاوبة الأقسام ينزل كل جزء من أجزائها فى موقعه كأنه حجر المرمر انعم نحته وأجيد صقله . وهل هى الا روح دانتى تتضمن روح القرون الوسطى قد برزت للعيون من أبدع قوالب الشعر وأعجب ؟ وتالله ما هو بالعمل السهل وانما أمر عظيم وخطب جلل ، ولكنه أمر نفذ وعمل أكمل .

ولعل الحدة هى أهم مميزات دانتى، فما هو بالرجل الواسع الصدر السمح النفس ولكنه رجل ضيق الطعن متحزب ، وبعض هذا راجع الى طبيعة العصر

وبعضه الى طبيعة الرجل . فترى ان ملكات دانتي وقواه الذهنية قد تجمعت وتكشفت حتى اصبحت حدة نارية وشعورا عميقا ، فهو ينفذ فى جسم كل شىء حتى يرسب فى قراراته . ولست والله أعرف فى الوجود شيئا له مثل هذه الحدة . انظروا الى تصويره الأشياء تروا ان له أقوى قوة بصرية ، فاذا نظر الى الشىء عرف حقيقته فأداها وحده . وتذكرون صفته لقاعة «دايت» بالجحيم اذ قال : « ذروة حمراء ! حديدة محماة جمرية التوقد مخروطية تتوهج فى ظلمة كثيفة طخياء » ما أنصع هذا الوصف وما أبينه وما اوضحه لأول وهلة ثم الى الأبد : وهذا عنوان الرجل . فان فى دانتي لأخصر ايجاز واقتضاب فى دقة واحكام ، وانه ليقذف بالكلمة يصيب بها كبد الحقيقة وكأنها طعنة الفارس الكمى — ثم وراء هذه سكوت أفصح والله من القول .

والشعر لمح تكفى اشـــارته
وليس بالهذر طولت خطبــــه

ما أرشق تشبيهاته وماأدقها وما أحكمها حتى ليخيل الى انه يحز فى الشىء بقلم من نار فيقول عن المارد المنتفخ حينما ارعوى لزجر فرجيل : « انه كالشراع انحطم عموده بغتة فهوى » ويذكر أحد المعذبين فيقول « بوجه مشوى » ثم انظروا ما ذكره من (الثلج النارى) المتساقط على المعذبين (ثلج نارى بلا ريح بطىء مصمم دائب لا ينى ولا ينتهى) ولا احسب هذا التصوير الا قطعة من صميم عقل الرجل وفيه يتجلى لنا ذلك الطبع الطليانى الحاد السريع النارى الصامت الشديد القوى وحركاته الوشيكة المقتضبة وثوراته الساكتة العظيمة .

لأن التصوير وان لم يكن من القوى الظاهرية السطحية

ولـكنه خارج كسائر القوى من جوهر النفس وعنوان على الرجل جميعه ، اوجد رجلا يحسن الوصف توجد رجلا فاضلا ذا قيمة . فانه ما كان ليتبين حقيقة الشيء لو لم يكن في فؤاده حب يلقيه على ذلك الشيء فيكون سببا الى التعمق فيه وانعام النظر — لو لم يكن ذا جد واخلاص . والرجل العديم الفضل لايستطيع أن يصف لك شيئا ، فانه بضعفه واؤمه لايمكنه أن يتعـــدى الظواهر ، ولا يقف الا عند الاكاذيب والأباطيـــل . او لايمكننا القول بأن آية الذهن هو قدرته على اســتبانة حقائق الأشياء ؟ — استبانتها بالامتزاج بها الناشيء عن محبتها والانجذاب نحوها . وكذلك الطبيعة لا تكشف أسرارها الا للولوع بها الذي كله اخلاص لها وصبابة اليها . وقديما كان الحب اول هاد الى خبايا الحقائق، الحب الصادق الصاحي الراكز على أســاس العقـل والحكمة لا الـكاذب الثمل الطـــائر بأجنحة الخديعة والطيش . لأن الحب الصـــادق يستدعي رقة الشعور وسداده ، والشعور الرقيق المســدد هو مقلة النفس المستجليـــة للغوامض المستبطنـــة للدخائل ، ولن ترى الرجل البليد الاحساس الـكليل الا محجوبا عن اسرار الأمور لا يلابس منها سوى القشور ، وهذا هو الواقع حتى في المسائل العملية ، فالرجل الذكي الأريب هو ما ابصر من الأمر المراد اتيـــانه النقطة الجوهرية فأمسك بها وصفح عن كل ما عداها .

وليس الوضوح والاختصار والصدق والجلاء الناصع الذي كأنه وهج الحريق في الليل البهيم هو كل ما يمتاز به وصف دانتي وتصويره ، بل تراه أيضا شريفا جليلا كيفما قلبته ومن أي ناحية أتيته . ثمرة روح شريفة جليلة . انظروا الى ما ورد بالقصة من حديث الغـــادة

« فرانسسكا » وعاشقها ـ ذلك الحديث المذيب الفؤاد المفتت الاكباد تجده كأنه منسوج من ألوان قزح على رقعة من السواد الأبدى ، او كأنه صوت ناى جم النواح مبحوح الأنين يناجى حبات القلوب باديا فيه رقة الشكوى وذلة الولهى ورنة الثكلى ، وأشجى ما فيه ان الحبيبين يلقيان عذاب الجحيم معا ، فحبذا ذاك الاجتماع سلوى فى الشقاء وعزاء فى الضراء . لقد كان الشاعر صديق والد « فرانسسكا » هذه وربما جلست تلك الفتاة على ركبة دانتى صبية بريئة من كل عيب حسناء سمحاء ، ولكنها اذا أذنبت فى حياتها أبى دانتى الا عدل الجزاء فجعلها جحيمه حيث تعلمون ، ولكنه شفع العقوبة بما ترون من نعمة الوصل ومنة الاجتماع بحبيبها ، يا لها رحمة فى قسوة وعفو فى شدة وتلك شيمة الطبيعة وما قصر عن ادراكها دانتى . وما اقيل راى القائلين بأن كتاب دانتى لم يكن الا هجاء فاحشا أراد ان يسىء به الى من أعياه مؤاخذتهم والانتقام منهم ، واحسب لو ان رجلا حمل فى قلبه حنان الأم الرءوم ورأفتها فذاك هو دانتى ، ولكن من لم يعرف القسوة لم يعرف الرحمة أيضا ، والذى تخاله منه رحمة هو فى الحقيقة جبن أو تصنع للرحمة قصد الافتخار . وما أعرف فى العالم رجلا أرحم من دانتى ، ولا أكثر حبا ، وان بين جنبيه لحشا خفاقا ووجدا واشفاقا وفؤادا ملتاعا ، وولها ونزاعا كحنين النايات والعيدان لينا لينا ، أو كمهجة الطفل ، ويشوب كل ذلك مرارة الحنق ووعورة البأس والعناد ! سخط على عمى الحظ وعثرة الجد ، وجور القضاء ولؤم الزمن ، وصبابة وحنين الى حبيبته « بياتريس » ولقائهما فى الجنة ، ونظره فى عينيها النجلاوين تشرقان بشعاع النور المقدس ـ وقربه منها

ـ من الغادة التي طهرتها حياض الفردوس وصـــفاء الأبدية ، كل هذا شبيه عندي بأغاني الملائكة ، ولعله أصفى ما نطق به امرؤ فى هذه الحياة الدنيا من آيات الحب الطاهر .

وأرى هذا الرجل الحاد حادا فى كل شيء ، فلقد نفذ بحدته الى كل جوهر ولب ، وما عمق نظره فى التصوير وعمق نظره فى البرهان والدليل الا ما يعتورجميع ملكاته من الحدة ، وهو فوق كل ذلك كبير من حيث الصلاح والتقى وذاك أساسه وعنصره . فاحتقاره للدنيئةعظيم، وأسفه على أولى البؤس والبلاء عظيم كعظمة حبه ووده. وهل الأسف والاحتقار الا حب قلب تحول عن جهتـه واحيل عن طبيعته ؟ ويقول فى كتابه عن الجناة المجرمين حين يمر بهم فى الجحيم : «لسنا متكلمين عنهم وحسبنا نظرة اليهم ، ثم نضرب صفحا » يا له احتقار فى ترفع ونفرة فى سكوت وانفة فى صمت واعراض !.. ثم قوله يذكر فئة من المعذبين : « لقد انقطع أملهم حتى من الموت » ليخيل الى ان دانتى يعرض بنفسه فى هـذه الجملة . فلقد اتى عليه حين من الدهر كان قد يئس من الراحة ، حتى راحة الموت . ولعله جاءه بعد ذلك يوم برق فيه لفؤاده المكلوم شعاع أمل انه سيلقى بعد كل ذلك الجهد والمصاب والكمد راحـة القبـر ، وان القضاء نفسه لايمكنه أن يحرمه « هذه النعمة » .. مثل هذه الكلمات كانت فى ذلك الرجل واراه فى الحدة والشدة والجد والعمق مقطوع القرين معدوم النظير الا فى أنبياء بنى اسرائيل .. فاذا اردت مثل كلامه فانظر فى التوراة العبرانية .

ولا اوافق قوما يفضلون الجحيم فى قصة دانتى على

قسميها الآخرين ومرجع هـذا التفضيـل هو فى ظنى « بيرونية »(١) فى الذوق والمشرب . ولعـل القسم الثاني « المطهر » أبرع من الجحيم واسمى . أجل ، ما اشرف ذلك الجيل ـ جيل التطهير ـ فهو رمز لاشرف افكار هذا العصر ـ رمز لبراءة الانسان بالتوبة ، واذا كانت الذنوب من وخامة العاقبة كما تعلمون ، والجحيم من العذاب والألم كما تعهدون ، أليس جديرا أن يكون فى التوبة منجاة للمذنب وبراءة ؟ والتوبة أجل اعمـال النصرانية . ثم ما ابدع ما وصفها دانتى وأبرع اذ قال انه بعد خروجه من الجحيم ابصر على مدى العين بريق امواه تترقرق ولمع امواج تهتز وتخفق فى بريق الصباح ولمع الضحى ، فهذه صورة تدل على تحسن الحال ، وهذا ولا شك فجر الأمل والرجاء قد لاح ، والأمل حى لايموت ، واشد ما يكون فى الحزن كالشهاب أسطع ما يكون فى فحمة الديجور :

كالـكوب الدرى أخلص ضـوءه ـ
حلك الدجى حتى تألق وانجلى

وهناك جبل يقوم فى سفحه ويصعد فى أوعاره المذنبون التائبون ، وقمة الجبل فى عليين دونها باب الجنة وما تنى انفاس هؤلاء التائبين المستغفرين تتصاعد الى عرش الله ويقولون لدانتى حين يرونه : استغفر لنا ربك : ولا يأتلون فى ذلك الجبل صعوداً وارتقاء ومشقة وعناء وقد أدنى الـكلال خطاهم وانضى الـكد ابدانهم واسنوا وشـاخوا فى ذلك الصعود ولمـا بلغوا القمـة ولـكنهم مواظبون وجادون حتى يبلغوها وعندها باب الفردوس، وبرحمة من ربهم وغفران سيدخلونها خالدين . وكلما

(١) نسبة الى بيرون ـ يراد طريقة بيرون وهى كرامة العالم .

بلغ القمة واحد عم الفرح الجميع وترنح الجبل طربا ووجف سرورا وهتفت الملائكة بنشيد مقدس ! فهذا فى نظرى تصوير شريف لمعنى شريف .

ولكن أركان القصة الثلاثة متعاونة متآزرة ، ولا غنى لواحدة عن الأخريين وأرى « الفردوس » أحد أركانها موسيقيا صامتا وغناء ساكتا وهى المنكرة لسيئة الجحيم ، والجحيم لولاها ضرب من الباطل ومن الثلاثة يتألف عالم الآخرة كما كانت تمثله نصرانية القرون الوسطى ، وهو شىء جليل حر الجوهر طول الدهر ، ولعله لم يتمثل فى نفس انسان كما تمثل فى نفس دانتى اذ سطعت حقيقته فى ضميره ونقشت صورته على لوح خاطره كالوحى فى الحجر ، وما دانتى الا نبى أرسله الله ليبين هذه الحقيقة للناس وينقشها على جبهة الدهر . وما أغرب والله سهولة انتقاله وسرعة تخلصه فى مبدأ القصة من ذكر الحقائق العادية الى العالم الخفى حتى لنجدنا بعد سبعة ابيات أو ثمانية وسط عالم الأرواح ونسير فيه كأنما نسير بين أشياء ملموسة لاريب فيها ! وكذلك كانت فى نظر دانتى ، وما كانت الحياة الدنيا عنده الا سبيلا الى حياة أخرى خير وأبقى ، ولم تكن الدنيا فى نظر دانتى بأقل غرابة من الآخرة ولا الآخرة بأقل حقا من الدنيا . واذا كانت الآخرة عنده هى عالم أرواح فالدنيا كذلك فى نظره عالم ارواح . أوليس فى كل أمرىء روح ؟ نعم لقد كان ذلك بينا له جليا ، ولقد كان يعتقده وينظره . فهو من أجل ذلك شاعره ، والاخلاص كما قلت أكبر صفات الشاعر .

وجحيم دانتى وجنته ومظهرهما انما هما فى الحقيقة رمز وتمثيل لعقيدته فى الكون ، ولعل ناقدا يقوم

فيقول لنا ما قصة دانتي الا العوبة شعرية وضرب من اللهو والعبث . كلا والله ، انما هي أشرف وعاء ضمن روح النصرانية وهي تمثل بأجسم رموز التمثيل ما أحسه دانتي من ان الخير والشر هما قطبا هذا الوجود اللذان عليهما مدار كل شيء ، وأن الخلاف بينهما ليس هو ان الخير افضل من الشر ـ مذهب الماديين الذين يرجعون في كل أمر الى الحساب والوزن والمكسب والخسارة ـ بل ان الخير هو الصالح فقط والفرض والواجب ، وأن الشر هو الخبيث المحرم اتيانه تحريما كليا لا مقارنة بينهما ولا قياس ولا تفضيل . فأحدهما للآخر كالحياة للموت ـ كالجنة للنار . نعم ، ما شعر دانتي الا رمز لذلك ورمز للعدل السرمدي والتوبة والندم للنصرانية بأكملها كما كانت في تلك القرون ـ رمز ولكنها في نظر دانتي ونظرتلك الأجيال عين الحقيقة التي لاريب فيها ولاشك ولا نزاع ، التي يعتقدها الناس من صميم افئدتهم . ولقد قلنا قبل ان الناس ما كانوا قط مؤمنين بالرموز الشعرية والأقاصيص المنظومة ، ولا احسب ان أهل عصرنا هذا يحسبون قصة دانتي مجرد قصة قصد بها الانتقام ممن أساءوا اليه ، ومجرد عبث وصنعة ، فاذا رأى ذلك أهل العصور الآتية فشد ما يخطئون . وقد قلنا عن الوثنية انها البيان الحق لما كان يجيش في صدر المتوحش من وقع مشاهد الكون وتأثير روائعه ـ بيان كان في وقته حقا صادقا وليس يخلو الآن من فضل وقيمة لنا . ولكن انظروا الفرق بين الوثنية والنصرانية ـ فرق كبير .. لم تكن الوثنية الا تمثيلا لظواهر الكون وافعال الطبيعة وحياة الانسان وطبائع الأشياء وتقلباتها وتصرفات شئونهما واختلاطهما في هذه الدنيا ، وأما النصرانية فتمثل قانون الواجب

الانساني ـ قانون الأخلاق والآداب ، فكانت احداهما للطبيعة الحسية بيانا عاجزا ساذجا لأفكار الانسان الأولية اذ كان أهم الفضائل هي الشجاعة ـ الاستعلاء على الخوف ، ولم تكن الأخرى للعالم الحسي بل للعالم الأخلاقي فان لم يكن من الفرق سوى ذلك ، فأى فضل بين وارتقاء عظيم .

وهكذا وجدت القرون العشر الصامتة التى سبقت عصر دانتى صوتها فى ذلك الشاعر الكبير ولسانها ، و« القصة المقدسة» من يراع دانتى ولكنها فى الحقيقة املاء عشرة قرون نصرانية ، وانما أتمها دانتى وأكملها وتلك ما زالت الحال وكذلك الحداد بالاته وأدواته وصنعته وحذقه ـ قل والله نصيبه هو فيما يأتيك به من بدائع صنعته ، وانما معظم الفضل لجميع من سلف من واضعى الصنعة ومبتدعى أساليبها وأبوابها وكلهم قد صنع معه ما صنع وتلك هى الحال فى كل أمر فدانتى هو لسان القرون الوسطى ، ومن خلال سطوره بلغ آذاننا صوت افكار تلك العصور كما لو كان أعذب النغم واشهى الغناء ويرن فى مسامعنا موسيقيا ابديا ما دعا الله داع وما ترنم فى الايك مسجاع . وما افكاره تلك السامية الجميلة الرائعة الا ثمرة ما فكر جميع الصالحين من قبله ولو افضل والله اولئك وهل خلا هو من الفضل ؟ اما انه لو لم ينطق لبقى الطيب الكثير من تلكم الأفكار كامنا مكتوما ـ لا اقول ميتا : بل حيا صامتا .

وعلى كل حال اليس هذا الغناء اللغزى هو غناء روح من اكبر الارواح وتمثيل حقيقة من أكبر الحقائق ؟ والنصرانية كما يغنيها دانتى شيء خلاف الوثنية الشمالية

وخلاف النصرانية التى هدمها الاسلام بقرى الشام — وانما هى أجل فكرة اعتقدها الناس ، انبرى لها ذلك الشاعر فغناها والبسها ثوبا لا يبليه الدهر .

أبقى على الزمن الباقى من الزمن : أليس خليقا بنا أن نفرح بذلك الكتاب ونغتبط ؟ وظنى به سيبقى الآلاف المؤلفة من السنين لأن فرقا عظيما بين ما خرج من أعمق أعماق النفس وما صدر من خوارج أجزائها ، فالخارجى هو سحابة صيف ومسالة تولد مع الصبح وتموت مع المساء وتزول كالظلال بزوال الأهواء والأميال ولا تزال تتلون وتتشكل بتلون الصروف وتشكل الأحوال ، وأما الداخلى فانه سواء اليوم وفى غد وآخر الأبد . ولا يزال ذوو النفوس الحرة والقلوب الباردة فى كل زمان ومكان يجدون فى دانتى هذا أخا وصديقا وخلا شفيقا لما بين روحه وأرواحهم من النسب وبين قلبه وقلوبهم من الصلة والسبب .

او لم يكن نسب هناك فملؤنا
ماء تحدر من غمام واحد ...

كيف لا ولما كانت نفوسهم ونفسه شعبا متفرعة من اصل واحد أصبح الألم الذى يقدح فى نفسه يقدح كذلك فى نفوسهم ، والأمل الذى يدب فى روحه يدب أيضا فى أرواحهم ، فقلبه وقلوبهم كالناى والعيدان اذا حن وهتف خفقت جوابا وأنت وأعولت . وذلكم نابليون كان يرتاح فى منفاه بسانت هيلانة الى قصيد هوميروس ، ويسر جدا بما فيه من الحق والصدق وبين القارىء والمقروء كما تعلمون عدد السنين . واقوال انبياء الله الأقدمين ما تبرح تخالط نفوسنا لخروجها من نفوس قائليها ، وصدور الكلام من أعماق الروح هو سر

خلوده الوحيد ، ودانتي في عمق الاخلاص كأحد هؤلاء الأنبياء وأقواله كأقوالهم خارجة من القلب ولا عجب اذا كان الله قد قضى لكتابه أن يكون أخلد شيء أخرجته أوربا لأنه ليس أخلد من كلمة الحق شيء . وكل ما بالقارة الاوربية من كنائس ومعابد ونحاس وحديد ومبان مشيدة وثيقة فمهما بلغت من المتانة والرسوخ فهي قصيرة العمر في جانب غناء قلبي كهذا ، وظني انه سيبقى حبيبا الى القلوب شهيا الى النفوس وقد زالت جميع هذه الأشياء عن أوضاعها وليست هيئات محدثة وتألفت في تراكيب جديدة وانعدمت ذواتها وان لم تنعدم مادتها . وان ما صنعت أوروبا وما أتت لكثير جداً : مدن كبيرة ودول مجيدة وعقائد وشرائع وطوائف، آراء وأعمال ولكنها لم تصنع من قبيل آية دانتي الا شيئا قليلا . وذالكم هوميروس حي للآن يخاطبكم وجها لوجه ولكن أين دولة اليونان ؟ بادت من القرون العديدة وذهبت وزالت ولم يبق منها الا كثبان انقاض ان تسلها عن سالف مجدها لم تحر غير السكوت جوابا. حلم كان ومضى . دولة أصبحت في الثرى . كأنها رفات أميرها أجاممنون ! وكذلك قد كانت اليونان . وهي اليوم لا تكون الا ما نطقت .

وماذا نقول للقوم السائلين : « ما فوائد دانتي ! » انه سؤال غريب لا يسعنا أمامه الا الضحك والاستغراب. حسبنا القول بأن العقل الذي أمكنه ان ينغمس في عنصر النغم والغناء ثم يغني لنا من ثمة غناء حسنا جدير أن يكون قد أثر أكبر الأثر في صميم الحياة وقلب الوجود. وانه ما زال طول الدهر ينبوع الغذاء لما في النفوس من جذور كل خير ومكرمة يغذيها بطريقة لا يهتدى الى

قياسها ووزنها علماء الاقتصاد بمقاييسهم وموازينهم ! وهل تقدر فائدة الشمس بمقدار ما تسقط عنا من نفقات الشمع والبترول ؟ والخلاصة ان دانتى اجل من ان تقدر قيمته .

وعلى العموم فما كانت الرجال واعمالهم لتقاس بما نسميه تأثيرهم فى الدنيا - بما نراه نحن انه تأثيرهم - تأثير؟ فائدة ؟ نتيجة ؟ عبث كل هذا وباطل . ليصنع كل امرىء صنعه فما ثمرته الا حسب عناية غيره ، وسيثمر ثمرته وليس يهمنا أخرجت اعماله ترفل فى حلة الملك والدولة وترن من ضجيج الحروب وصدى الوقائع بما يملأ صدور الجرائد والتواريخ التى هى جرائد مصفاة ، ام خرجت عارية من كل هذه - خفية صامتة - نعم ماذا يهم ذلك ؟ ليست هذه الظواهر هى الثمرة الحقيقية . وما قيمة الملك أو الخليفة الا ما أحسن ! واذا كانت اعمال الملك او الخليفة لم تعد على الناس بالخير والمنفعة فانها كالهباء ، وما ذلك الملك الا اكذوبة وباطل وعرض هالك وسقط متاع مهما احدثت أعماله فى الجو من الضجة والجلبة ومهما قلل من مضارب السيوف وادار من اقداح الحتوف ومهما قبض من الآجال والأموال . وملك من اعنة الرجال والأحوال . هذا الملك فى الحقيقة لم يكن . الا فلتكبروا معى دولة السكوت وعالم الصمت ! حياهما الله من عالم ودولة ! لايريان بالحس ولا يدركان باللمس . وهما مع ذلك انفع من الصراخ وأجدى : وخير من الضجة وابقى .

وكما ان الله ارسل دانتى ليصور لنا فى أشجن الغناء والنغم ديانة القرون الوسطى او حياتها الباطنة . فكذلك ارسل شاكسبير ليصور حياتها الظاهرة الخارجية كما

كانت اذ ذاك وما بها من مظاهر الفروسية والنجدة ، والمروءة وشتى الأهواء والمشارب والمطامع والمطامح ، والأساليب الدنيوية للتفكير والعمل والرأى . وكما أنا نبصر فى هوميروس يونان القديمة ، فكذلك سيكون شاكسبير ، ودانتى ، بعد آلاف السنين المعرض الواضح لاوروبا الحديثة تتجلى فيه دينية ودنيوية . نعم ، لئن يك دانتى أدى الينا العقيدة أو الروح فقد أعطانا شاكسبير العمل أو البدن . وكأن الله أبى الا ان نعطى البدن أيضا فأعطاناه على لسان شاكسبير ، وكذلك لما بلغت حياة القرون الوسطى — تلك الحياة الشريفة العالية — حد الكمال وآذنت بالاضمحلال السريع أو البطىء كما نراها الآن فى كل مكان أرسل شاكسبير بعينه البصيرة وصوته المطرب الرنان لينظر تلك الحياة وليتغنى بها غناء يبقى ما ترنم النسيم فى الشجر . وغرد البلبل فى القمر . رجلان كفآن — دانتى عميق حاد فائر كأنه ما بجوف الأرض من النار ، وشاكسبير واسع هادىء بعيد مرمى البصر قصى مدى النظر ، كأنه الشمس نور الأرض الظاهرى أحدهما ثمرة ايطاليا . والثانى بحمد الله ثمرة بلادنا .

وعجيب والله كيف ساقت الصدفة الينا ذلك الرجل وظنى ان شاكسبير هذا قد كان من العظمة والسكينة ، والكمال والاستغناء بالنفس بحيث انه لو لم يخرج من قريته بسبب ما اتى من سرقة الغزلان لكان له فى عيشة القرى وسكنى الريف مقنع عن كل ماعداهما ، وكان قد عاش ومات ولم تفتح اغلاق خزائنه ، ولم تكشف أسرار دفائنه ، فحرم العالم اكبر شعرائه قاطبة. نعم لولا تشرده عن وطنه لذلك الحادث لاكتفى بالغابات والسموات والريف والعيش القروى . ولكن ان كان

شاكسبير هذا قد جاءنا عفوا ، الم يجيء ذلك العصر ـ عصر اليصابات ـ أيضا عفوا كأنما من تلقاء نفسه ؟ وهكذا صروف الزمن وأحوال الدهر تقبل وتدبر وتموت وتحيا وتذبل وتنضر كالشجرة التى جعلها الوثنيون الشماليون رمزا للحياة الدنيا ـ ولكنها تذبل وتنضر وتلقى أوراقها وتورق بقوانين ازلية ونواميس أبدية . لا تظهر عليها ورقة الا بميقات : لا يظهر عليها بطل الا بميقات . عجيب والله ما بين جميع الأشياء والكائنات من الاسباب والروابط ، فما من ورقة ذابلة تعفن على ظهر الطريق الا وهى جزء متداخل فى نظام الكائنات اجمع مستحيل فصله عن سائر الأجزاء . وليست كلمة او فعلة لرجل ما الا ومنشؤها العالم أجمع ولابد أن تعود بالتأثير آجلا أو عاجلا ظاهرا أو باطنا فى العالم اجمع . اجل . هى شجرة « اجد رازيل » التى أصلها فى مملكة الموت وذرا فروعها فى الجنان !

وعهد اليصابات هذا وشاكسبيره من بعض الوجوه ، ثمرة العصور السالفة ـ وينسب الى كاثوليكية القرون الوسطى . وانما نشأت هذه الحياة الظاهرية العملية التى تغنى بها شاكسبير من العقيدة المسيحية التى سجع بها دانتى . لأن الدين كان اذ ذاك كما هو الآن وكما يكون فى كل آن روح العمل ـ كان الحقيقة الأولى الجوهرية فى حياة البشر . ومن العجب ان ظهور شاكسبير لم يكن الا بعد أن نسخت اللوائح البرلمانية تلك الكاثوليكية التى شاكسبير من ثمراتها ـ بقدر ما فى استطاعة تلك اللوائح أن تنسخ دينا وثيق العرى ـ ومع ذلك فقد ظهر شاكسبير برغم البرلمانات ولوائحها .

لقد ارسلته الطبيعة حين شاءت ولم تبال باللوائح

والبرلمانات . فان للملوك والأميرات مذهبا وللطبيعة كذلك مذهبا . واللوائح البرلمانية حقيرة برغم ماتحدث من الجلجلة والدوى . اذ اى لائحة او مناظرة كانت قادرة على اخراج شاكسبير هذا ؟ كلا ولا الولائم بالقصور ولا افتتاح صحائف الاشتراك ولا بيع الأسهم ولا غير ذلك من الطنين الحق او الباطل ! انما جاد ذلك العصر اليصاباتى بمجده وشرفه من غير ما طلائع ولا رواد . ولا احتفال لاستقباله ولا استعداد. وجاء معه شاكسبير منحة الطبيعة وجائزة الدهر. اداه الينا الحظ فى سكوت. فتناولناه فى سكوت . كأنما هو شىء صغير الشأن قليل الخطر . وانه فى الواقع النعمة التى لا تقدر، والهبة التى لا يحد مقدارها ولا يحصر .

ان صفوة الادباء فى جميع الاقطار الاوروبية واعاظم الفحول من النقاد والكتاب والشعراء قد اوشكوا ان يجمعوا على ان شاكسبير سيد شعراء العالم على الاطلاق . والحق اقول انى لا اعرف قط ما يقارب تلك البصيرة النافذة والذهن القوى اذا تأملنا جميع صفاته فى أى انسان آخر. تبارك والله تعالى عن الشبه ذلك العمق الساكن والنفس الجذلة الصافية تتراءى فى جوفها صور جميع الاشياء مبينة واضحة كأنها البحر العميق الصفى : وقد قيل ان فى تركيب روايات شاكسبير فضلا عن سائر الفضائل والمزايا آية على فهم مماثل لما جاء فى كتب بالون « النظام الجديد » « نوفام أورجنام » وهذا حق ، ولا غرابة فيه ، وربما كان أبين اذا نظرنا الى الحوادث التاريخية او الجغرافية العارية الجافة التى احدث منها شاكسبير رواياته البارعة الرائعة واجتهد احدنا ان يصنع من تلك المواد اليابسة الميتة ما صنع

ذلك الشاعر الأكبر! حجارة وأخشاب وحديد متراكم بعضها فوق بعض فى أفسد اختلاط وتشويش ، شاد منها ذلك الرجل قصرا موثق الأركان ، مونق البنيان ، تتلى فى أصغر أجزائه آية الاحكام والصنعة ، حيثما ألقيت البصر لم تلق الا اتقانا واحسانا ، فكأنما ظهر فى الدنيا وحده بقانون أبدى فى فطرته وبناموس الطبيعة السرمدى ، وما هو الا أن ننظر اليه حتى ننسى الأنقاض المبعثرة والأخلاط المشوشة التى صاغ منها وصور ، وان كمال تلك الصنعة التى كأنها صنعة الطبيعة نفسها لتخفى فضل الصانع وتغيبه ، ولنا أن نصف شاكسبير فى ذلك بأنه أكمل من كل انسان وفوق كل امرىء بطبقات ، فانه ليدرك كأنما بالغريزة والفطرة مقتضيات الحال والمواد التى يصوغ منها شعره ومقدار قوته وعلاقة ما بينها وبين تلك المواد والأحوال ، وما نظرته فى ذلك بالسريعة القصيرة ولا غناء فى تلك ، وانما نظرة طويلة جمة الشعاع غزيرة الضياء ينير اشراقها الموضوع كله — وعين ذات ابصار دائب دائم ، ساج ساكن أو بالاختصار عقل كبير ، وعسى أصح قياس لمقدار عقل الرجل هو أن تجعله يصف لك فى قصة أمرا جليلا كان أبصره فتنظر اى تمثيل وصورة يقدم لك ، واى حادثة هى فى نظره أعظم وأجل فيبرزها ، وأى أمر أدنى وأقل فيخفيه ، وما هو أحسن ابتداء واستهلال وأعجب تخلص وانتقال ، وماذا أبرع تقسيم وتبويب ، وأبدع تنسيق وترتيب وكيف يكون حسن الغاية ، وجودة النهاية ؟ فاذا حملت الرجل على ابداء كل ذلك جهدت قوى نظره أشد الجهد ، وكددت أسباب عقله منتهى الكد ، اذ لابد له ان يفهم الشىء الذى يحاوله ، ويبصر الأمر الذى يزاوله ، وعلى قدر عمق النظر يكون أفضل

الجواب ، أتراه يضع الكلام في مواضعه ؟ ويجعل اللفظ الى لفقه وقريبه ، والمعنى الى شكله ونسيبه ، وهل أرسل روح النظام في تلك الأنقاض المبعثرة والأخلاط المشوشة فرد الفوضى نظاما ، والخلاف وئاما ، والف اعناق الشوارد ، وجمع شمل البدائد ! وهل امكنه ان يقول للشيء كن فيكون ! هل أمكنه ان يقول ليكن ثمة ضياء يحول به عالم السديم نظاما ! اما انه ليستطيع ذلك لو كان الضياء في عقله والشعاع في نفسه .

ومن اسباب عظمة شاكسبير ايضا براعة تصويره للأشخاص والأشياء لا سيما الأشخاص . نعم لشدة ما تتجلى عظمته في ذلك وتستبين . ولا أحسب ان انسانا يماثله في تلك القوة المخترعة الهادئة . فاذا نظر الى شيء لم ينظر منه الى ذلك الوجه أو ذاك بل الى صميم لبه . فكان ذلك المنظور يتحلل أمامه في ذوب من الضياء فتنكشف له دخائل تركيبه وبواطن بنائه ، نحن نسمي ذلك ابداعا واختراعا وخلقا — خلقا شعريا وما هو لو تأملت الا النظر الدقيق المستوعب للشيء المحيط بظاهره وباطنه ، ومتى وجد ذلك النظر الثاقب المحيط استدعى بطبيعته اللفظ اللائق فجاء من تلقاء نفسه مسرعا ، ثم أما ترون في شاكسبير ايضا فضائل الحكمة والعظة والعبرة والشجاعة والمروءة والصراحة والحلم والعفو والسداد والصدق وتلك القوة الكبيرة والهمة العظيمة المذللة العقبات الهازمة المشقات للخروج من كل قحمة عزاء ، وورطة نكراء . عظمة ويمين الله في سعة السموات والأرضين . وعقل يمثل لك الحقائق كما هي لا كما يحرفها الذهن المنحرف عن الجادة ويحورها الفكر المصدود عن القصد ، فكأنما والله

عقل شاكسبير المرآة المستوية اذا كانت اذهان غيره من الكتاب والشعراء المرايا المقعرة الحدباء . اعنى ان شاكسبير رجل يعدل فى النظر ويسوى فى الرأى بين جميع الأشياء والبشر — رجل كريم عادل ، براعة والله وقوة وجلال وعظمة من شاكسبير استيعاب بصره لجميع أصناف الرجال من هاميلت الى عطيل الى فولستاف الى روميو الى كوريا لاناس ، وتاديته اياهم فى اكمل خلقهم وصفاتهم ، والتسوية بينهم فى حبه ومعلزته ، وسعته اياهم جميعا بلطفه ورحمته — حبذا هو اخو البشر وشقيق الانسان ، وما كان ذهن بيكون ليقاس بذهن ذلك الشاعر ، فان الأول على كماله وعظمته من طينة ادنى من طينة الثانى — طينة ارضية مادية حقيرة بالقياس الى ذهن الشاعر الأكبر ، وانى لا أجد لشاكسبير فى التاريخ الحديث مثيلا قط وليس منذ أيامه حتى الآن من يذكرنيه الا رجلا واحدا هو « جوته » فانه ايضا نظار الى حقائق الأمور وجواهر الأشياء ويمكنك أن تقول فيه ما قاله هو فى شاكسبير اذ قال : «أشخاص شاكسبير كالساعات الشفافة الوجوه — بينما تريك الساعة فى وجوهها اذا هى ؟ ايضا تريك اللوالب والآلات فى ضمائرها المكشوفة وأحشائها » .

العين بصيرة ، هذه هى الكشافة لبواطن الأمور والكامن فى ألبابها من النظام والائتلاف — الكشافة لما اودعته الطبيعة اجواف الأشياء من الأغراض — من المعانى الموسيقية تحت تلك الظواهر الجافة الخشنة ، نعم لقد أرادت الطبيعة بكل شيء مهما قبح ظاهره غرضا هو للعين البصيرة واضح بين ، افهل هذه الأشياء خبيثة دنيئة ؟ انك قد تضحك من تلك الأشياء ، وقد

تبكي ، وقد تمد بينك وبينها الصلات والأسباب كيفما كانت ، او على الأقل يمكنك أن تصد عنها وتنصرف ، وتعرض وتنحرف ، حتى يحين أن تقتلها وتمحوها ، والعقل الكبير هو اول مواهب الشاعر ، فاذا أوتي ذلك فقد صار شاعرا — شاعرا بالقول فان لم يؤاته ذلك فشاعر بالفعل . وكونه يكتب أو لا يكتب — ثم يكتب شعرا أو نثراً فهذا أمر ثانوى يتوقف على الصدف — ربما على أدنى الصدف ، ولكن القوة التى تمكنه من أن يبصر الباب الأشياء والمودع ضمائرها من النظام (لأن لكل كائن نظاما فى جوفه وائتلافا موسيقيا فى ضميره والا فما كان يتماسك ويكون) ماهى بنتيجة عادات ولا صدف ولكنها منحة الطبيعة وأول مزايا الرجل العظيم كيفما كان . ولذلك أول ما نقول للشاعر بل لكل انسان هو — أنظر ! فاذا عجزت عن ذلك فلا فائدة هنالك فى استمرارك على نظم القريض وتفصيل القوافى ، ولا حاجة هناك الى ذلك الطنين والدوى وتسمية نفسك شاعرا ، واولى لك ان تقطع من ذلك الأمل وتنفض يدك من هذه الأمنية ، فاذا شئت فان لك فى غير الشعر مجالا ومندوحة ، فى التجارة مثلا أو الصناعة أو الزراعة ، وحسبك ذلك . وانت فاضلٌ ما أجدت صنعتك وأحسنت عملكَ أيا كان بشرط أن يكون حلالا طيبا كريما ، ولا عار فىَ العملُ المتقن ما لم يكن خبيثا ، والاتقان نتيجة العقلِ ، فالعقلُ هو أجلّ النعم كما ان فقده أشد المحن .

لكلّ داء دواء يستطب به
الا الحماقة اعيت من يداويها

والحقيقة أن قيمة المرء بمقدار بصيرته ، ولو سئلت

عن اعرف ملكات شاكسبير فقلت ارباء عقله على كل عقل لكنت قد ادركت الغاية وبلغت النهاية . وما هي في الحقيقة تلك الملكات التي تذكرها كأنها أشياء شتى كأن للمرء ذهنا وخيالا وادراكا مثلما له يدان ورجلان وقدمان وهذه غلطة مبينة ثم نسمع ايضا ان للمرء « طبيعة ذهنية » و « طبيعة اخلاقية » كأن هاتين شعبتان كل في ناحية ، اما انه لا باعث على استعمال تلك الألفاظ المختلفة آلا ضرورة النطق ، وأرانا اذ كنا لابد ناطقين ومتخاطبين فلا مناص من استعمال تلك الكلمات المتفرقة ولكن لا ينبغي أن تتجمد الكلمات حتى تصير أشياء ، فان ذلك هو السبب الى خطئنا في هذا الأمر وضلالنا وانما يجب علينا أن نظل نذكر ان هذه الاقسام ليست في الحقيقة الا اسماء ، وأن طبيعة المرء الروحية ــ القوة الحية الكامنة فيه ــ هي شيء واحد لا ينقسم ولا يتشعب ، وان ما نسميه خيالا وادراكا وذهنا ومفكرة وبصيرة وغير ذلك انما هي صور مختلفة لتلك القوة المبصرة ، وكلها شديد اتصال بعضها ببعض ، دليل بعضها على بعض حتى اننا لو عرفنا احدها لأمكننا أن نعرف الباقي . وما أخلاق المرء الا ناحية من تلك القوة الحية التي بها يعمل وبها يكون، وكل افعال المرء لو تفقهون دليل عليه حتى ليمكنك أن تعرف عن هذا الرجل كيف يكون بلاؤه في الحرب من لهجة حديثه وطريقة غنائه ، فان جبنه أو اقدامه ليبدو لك في خلال لفظه . وما كلمة الرجل أو رايه بأقل نميما عن شجاعته او خوره من ضربته أو طعنته ، وهو بعينه واحد يظهر للملأ نفسا واحدة في صور شتى

قد يعيش الرجل من غير يدين قائما على قدميه

يسعى بهما فى الارض ويضرب ، ولكن البصيرة مستحيلة الوجود بلا خلاق . والرجل الذى لا خلاق له المجرد من كل اثر للخير والبر والمكرمة هو معدوم البصيرة بالمرة ، لايرى شيئا حق الرؤية ، ولا يعرف شيئا حق المعرفة ، لأن المعرفة الصادقة التى ماتستوجب المحبة لذلك الشيء والانعطاف نحوه ، اعنى الاتصال به الصلة الكريمة الصادقة . واذا لم يكن من العدل بحيث لايزال ينتصف لكل شيء من نفسه ويأخذ الحق منها لغيرها ويقيمها ويقذعها ويذلها ويقهرها ، ويكون من الشجاعة والمروءة والتقى بحيث يميل الى الحق على ما فيه من عذاب ومضض . فكيف يجد الى العلم بالحقائق سبيلا ؟ وانما الطبيعة وحقائقها للخبيث اللئيم الخسيس كتاب مختوم ، وما يعرف مثل هــذا من الطبيعة الا قشورا واباطيل وخبائث مما يستخدمه فى اغراض ساعته ، وما مثله الا كمثل الثعلب. اوما يعرف الثعلب شيئا من الطبيعة ؟ نعم يعرف اين توجد الأوز! وكذلك الثعلب الآدمى وما اكثره فى كل زمن وبقعة ، اتراه يعرف الا هذا او مثل هذا ؟ كلا بل ان اشتمام الثعلب ريح الدجاج واهتداءه اليها فضيلة ثعلبية ، ولو انه اضاع اوقاته حزينا آسفا مطرقا يفكر فى نحسه وشقائه وظلم القضاء له وجور الدهر عليه واشتغال الحظ عنه بغيره من ناعمات الثعالب ذوات اليسر والرغد ، ولو لم يكن عنده جرأة واقدام وعزم وحزم وغير ذلك من المحامد والمناقب الثعلبية لما أصاب دهره من الدجاج ولا ريشة .

فاذا قلت اذن ان شاكسبير اكبر الأذهان فقد قلت كل ما يقال عنه . على ان فى ذلك الذهن الكبير مزية لعل الناس لم يدركوها بعد هو: ما أسميه ذهنا غير

متعمد . وفيه من الفضل اكثر مما يشعر به صاحبه وقد قال نوقاليس : ما روايات شاكسبير الا ثمرة الطبيعة ولها جلال الطبيعة وعمقها . وارى ذلك صوابا وحقا . فما صناعته بصناعة ، انما هى وحى يتدفق به طبعه عفوا ويهطل به خاطره سحا دراكا .

ويدر درك للآلى يبغـــونه
عفوا بلا مسح ولا ابساس

شىء يحصل بلا كد ولا نصب ولا جهـد ولا تعب يذوب كدمعة المحزون غير معتصر، ويفيض لمنحة الجواد غير معتسر ، ويجيء كوداد المحب غير معتنف ولا مقتسر، ويسقط من تلقاء نفسه كالطل فى السحر وغناء الحمام فى الشجر او كشذا المسك يفوح وينتشر ، وسنا البدر يلوح ويشتهر ، لا تكلف ولا تعمل ولا تصنع ولا تمحل وانما هو نبات ينبت من جوف الطبيعة فيخترق روح ذلك الرجل ، او صوت الطبيعة يخرج الينا من فم ذلك الرجل ، او ان شاكسبير ناى تتناوله الطبيعة فتترنم فيه بأشجى نغماتها وتخرج منه اشهى اصواتها . ولعل الأمم التى ستجيء بعد آلاف السنين ستجد فى شاكسبير هذا معانى جديدة وبيانا لألغاز حياتهم ، وانها لنعمة الطبيعة على الرجل العظيم الصـادق أن يجعل نفسه جزءا منها ، فمؤلفات هذا الرجل مهما تعمد أن يجيدها ويتقنها تخرج من مجاهل اعماق نفسه عفوا لا اثر فيها للصنعة والتكلف ــ كالدوحة نابتة من الثرى ، وكالجبال والأمواه اذ تلبس اشكالا خاصة منطبقة على قوانين الطبيعة ، موافقة لسنة الحق أيا كان ، ومع ما أخرج ذلك الرجل من بدائع الآيات ارايتموه يتسخط ويتشكى ويتلهف ويتشهى ؟ أعهدتموه يتألم ويتحسر ، ويتوجع

ويتضجر ، أم كان خلوا من الألم والبرح والكمد والترح ؟ كلا ولكنه ستار للشجو كتوم للمصيبة ، وكم خفى فى تلك السريرة من الآلام والمحن فلم يظهر الا ثمارها من بارع الكلم ، وروائع الحكم ، كأنها الجذور وكأنها الأغذية النباتية والقوى الكونية الخفية الفعل المستورة الأثر ! عظيم والله الكلام ولكن الصمت اعظم.

وعلى العموم فسكينة هذا الشاعر الجذلة الفرحة هى من جلائل الصفات . ولا أنعى على دانتى كآبته وشقوته فانها حرب بلا ظفر ولكنها حرب صادقة وهى اهم المسائل واخطر الامور ، وارى شاكسبير يعد اعظم من دانتى من حيث انه جاهد فظفر. ولا يخالجكم الشك فى انه قد كان له حظه من الهموم والأحزان وقسطه من القروح والأشجان ، واغانيه تشف عما كابد من غصص الزمن ، وتجرع من مرارة المحن ، وغامس من حومة الخطب ، وكافح من غمرة الكرب ، يكدح فى بحر الشقاء ويضرب ، ويطفو به ذلك العباب ويرسب ، حتى بلغ شاطىء الأمن ، ونجاه الله من الحين . وقد افال الرأى من زعم ان عيش شاكسبير كان خلوا من الأسى صفوا من القذى لم يرد منه الا عذبا زلالا وفراتا سلسالا . وان شاكسبير لم يك الا بلبلا بروضة الصفاء أفنى عمره سجعا وتثويبا وبلغ أجله شدوا وتطريبا سعيد الفال مغبوط الحال ناعم البال هادىء البلبال شأن البلابل والقمارى اللواتى هن :

نواعم لا يعرفن بؤس معيشة
ولا دائرات الدهر كيف تدور

كلا وابيكم ما كان أمرؤ قط هكذا ، وانى لرجل أن ينتقل من سرقة الغزلان الى كتابة مبكيات كمبكيات

شاكسبير من غير أن يكون قد ذاق الحزن ولبس الشجي ، بل كيف يتأتى لرجل أن يصور امثال هامليت وكريالانس وماكبيث وغير هذه من القلوب الكبيرة المتألمة الا وقد عرف قلبه الكبير الألم ؟ ثم انظروا كيف جمع بين ذلك وبين الضحك الغزير الطافح ؟ وقد تقول ولا حرج أن المبالغة عنده مقصورة على فن الفكاهة رهن بباب الضحك ، وكثير فى رواياته اللفظ الموجع والقول المقذع والكلم النافذ المحرق ولكنة عند حد ، وماكان قط ليغلو فى كراهة البشر ولكن ضحكه ينحط عليك كالسيل المنهمر ، واذا نصب من أشخاصه واحدا للفكاهة هال على رأسه ما لايحصى من فنون المزاح والمجون والقاب السخرية ، وما زال ينقله من الأشكال المضحكة فيما يستقصي العجب ويستنفد الاستغراب ، فكأنه يضحك بملء ضلوعه وقلبه . ثم هو ضحك صالح لا يقصد به السخرية من المساكين والبؤساء والضعفاء، ولن يكون الضحك من هؤلاء ضحكا وانما هو سفالة ولؤم ، فان الضحك الحر الكريم من شيء ما يستلزم حبك لهذا الشيء ، وليس الضحك الكريم بمعمعة النار تحت القدر ــ تقهقه النار والقدر تفور وتلتهب : وضحك شاكسبير ممزوج بالرحمة حتى نحو الأغبياء والأدعياء ، وهذا الضحك فى نظرى كبساط الشمس على ساحة البحر المحيط .

ولا مجال هنا للاسترسال فى وصف كل من روايات شاكسبير على حدة وان كان لايزال فى ذلك متسع للقول ومنفسح للكلام ، فلو ان كل قصة من قصصه اتيح لها شارح مثل « جوته » لكان خيرا ، وسيكون ذلك يوما ما ، وقد سمى الفيلسوف الكبير الألماني

« سكليجل » رواية : هنرى الخامس ، وما شاكلها : تاريخا جليلا وطنيا . وتذكرون ماقاله القائد «مارلبرا» من انه لم يعرف من تاريخ بريطانيـا الا ما علمه من شاكسبير . وقل فيكتبنا التاريخية لو تنظرون ما يوازى تلـكم الروايات قيمة وفضلا . وما أبدع وصفه لحرب « اجنكورت » ونعتـه جيش الانجليز المـكدود المنهوك وساعة التصاف اذتوشك الحرب أنتبتدىء تلك الساعة الجليلة التي يكمن فى اثنائها النحس والسـعد ثم تلك الشجاعة الخالدة الذكر « معشر الرماة الذين صيغت اكفهم فى بريطانيا » الا تجدون فى ذلك ريح الوطنية ؟ اما فى ذلك مكذبة للرامين شاكسبير بفتور الوطنيـة وقلة النعرة .. أما تحسون قلب الشاعر الـكبير ينبض فى كل حرف من مؤلفاته العديدة نبض فؤاد هادىء قوى برىء من كل اثر للجلبة والغلواء ، كأنما صـوت نبضه رنين الحديد والصلب ؟ وظنى ان فى صـدر شاكسبير هذا جراة ليث وفى يمينه بطشة قسورة ولو أشـهدته صروف الدهر ساعة الوغى .

هذا هو فلاح قرية « ستراتفورد » الذى ارتفع الى درجة مدير تمثيل ، فكفى بذلك ذل السـؤال والذى رمقه اللورد سواذمبتون بعين رحمته والذى كان السير توماس حفظـه الله يريد ارسـاله الى السجن ! انا لم نعده الها كأودين اذ هو عائش وسطنا ولـكنه رغما من ضعف ايمان الأزمان الحديثة بالأبطال فأىاجلال واكبار لم يصبه شاكسبير هذا من أبناء اللسان الانجليزى ؟ أى رجل بل أى مليون رجل من رجالنا لا نجعلهم فـداء شاكسبير الذى هو اكبر مفاخرنا واعظم مآثرنا ــ مفخرة نزهى بها علىالأجانب، وحلية يزدان بها صدر بريطانيا.

انظروا ماذا يكون الجواب اذا خيرنا بين ان نترك شاكسبير أو بلاد الهند ـ ان نكون لم نمتلك قط شاكسبير أو لم نمتلك قط امبراطورية الهنـد ـ انا اعلم ان رجال السياسة والحكومة يفضلون الهند ولـكنا نحن لنا الحق ايضا فى ان نختار ما نراه افضل فنقول : سواء حكمنا الهند او لم نحكمها فلا غنى لنا عن شاكسبير ! ستذهب الهند يوما ما ولـكن شاكسبير لا يذهب .

بل ان لشاكسبير فضلا عن مزية المجد والفخـار وتهذيب النفوس والاخلاق ، فائدة مادية عملية ، وهى انه الجامعـة الـكبرى والعروة الوثقى لشـتى طوائف البريطانيين فى انحاء المعمورة ، وسيجىء يوم تظـل جزيرتنا هذه لا تعى من أبناء بريطانيا الا الجزء الأخس وسائرهم مبعثر فى نواحي الـكرة مبدد فى جوانبها ، واذا كان ذلك فما الذى يقرب من هذى النفوس المتدابرة ويؤلف بين هاتيك القلوب المتنافرة فيخضر بينهم الثرى ويتحلى ويشرق الجو بينهم ويتلألأ ويصبحون بفضـله أمة واحدة ؟ ما ذاك الذى يكون قطبـا تدور حوله مصالحهم واوطارهم وكعبة تشرئب نحوها اعنـاقهم وابصـارهم ؟ وبماذا يقوم عمود صلاحهم فى مستقره ونصابه ويستحكم رواق عزهم بأوتاده وأسبابه ؟ بماذا يكون ذلك ؟ ابالحكومة ولائحتها، أم بالوزارة واقتراحاتها أم بالسياسة واصطلاحاتها ؟كلا، ثم كلا ! بل بشاكسبير هذا .. فهو الملك الاكبر الحاكم على جميـع طوائف الانجليز فى سائر الأنحاء والأرجاء .

البطل فى صورة قسيس

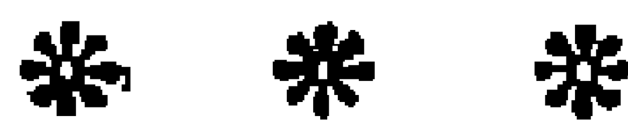
لوثر ـ البروتستانية ـ نوكس ـ البيوريتانية

سيكون كلامنا اليوم عن البطل فى صورة قسيس . والقسيس فى مذهبى نوع من النبى ، اذ لابد من أن يكون منطويا على نور الوحي . والقسيس دليل الناس فى مذاهب الدين وقائدهم فى مناهج العبادة . والوصل بينهم وبين السر الخفى . فهو وزيرهم الروحى ، اذ النبى أميرهم الروحى والقساوسة وزراؤه . وهو (القسيس) العارج بهم الى السماء عن طريق الأرض، الصاعد بهم الى الجنان على درج الصالحات ومراقى الطيبات ومعارج الخيرات والحسنات ، وهو أيضا فى اعتقادنا صوت من العوالم المستورة يترجم للناس أسرارها بعبارة أقرب الى الأذهان وأشبه بالدنيويات من عبارة الأنبياء والرسل : يترجم أسرارالسموات ـ أو ما سماه جوته (السر الجلى) الذى لا يكاد يراه انسان فكلنا ـ الا من اصطفاه الله ـ ازاءه كما قيل :

يا شاهدا يرنو بعينى غائب
ومشاهدا للأمر غير مشاهد

هو نبى عار من روعة جلال النبى وهول مهابته ، يشرق له فى نواحى المعيشة اليومية سراج أقل وهجا

من الشهاب النبوى واسكن لألاء ، هـذا ما يجب أن يكون صفة القسيس الكامل . وكلنا يعلم ان الكمال نادر ، وانه ينبغى الكثير من التسامح والتجاوز عند الانتقال من الشروط النظرية الى الحقائق الواقعية . فأما أن يكون قسيس مجرد من كل هذه الشروط غير محاول أن يكون كل ما وصفت ولا متيمم وجه الفضل وأمد الكمال فذلك ما نحن منه براء ولا شأن لنا معه.



كان لوثر ونوكس قسيسين حرفة ، وقد أديا الوظيفة فى امانة وصدق ، واولى بنا مع ذلك أن نعدهما حسب صورتيهما التاريخية أعنى مصلحين . وربما وجد فى أيام السلم من القسوس من يساوون لوثر ونوكس فى حسن القيام بشئون الوظيفة وصدق النهوض بأعبائها ـ يستنزلون هدى الله على عبيده ويحدون بركب الفناء فى سبيل الحياة الهادئة المطمئنة ولكن اذا جاء عصر أوعرت فيه تلك السبل وأوعثت وقامت فيها القحم والعقبات ، والموارط والهلكات ، ودجت الخطوب واظلمت الفتن ، وازمت الكروب وتشنعت المحن ، فليس القسيس الذى يسير بنا فى هذه الطريق سيرة النوتى والبحر ذى الصخور والحجارة .

تجافى بها النوتى حتى كأنما
يسير من الاشفاق فى جبل وعر

ليس الذى يساور بنا تلك القحم ويواثب ، ويزاحم بنا هذه العوائق ويغالب الا أكبر من غيره ـ ولا سيما فى نظرنا نحن ـ وأخطر. فهوالقسيس المجاهد المقاتل، لم يكن طريقه بالذلول الركوب ، ولا جرت سفينته على يم ساكت مطمئن تحت ريح رخاء سهوة الى مرسى

الهدوء والسكينة ، ولكنه نزل بأناسه سوح (ساحات) القتال فى زمن فتوق ثائرة وخطوب طائرة ، وحروب دائرة ، وصروف جائرة وأمور بائرة ، ونفوس حائرة ، فسنعد هذين الرجلين أكبر قساوستنا من حيث انهما اكبر مصلحينا . أوليس كل مصلح صادق قسيسا قبل كل شيء بطبيعته ؟ وكيف وانه بالله يستنجد ويستغيث من ظلم الظالمين وجور الجائرين ويعلم ان بطش الله فوق كل بطش وان :

يد الله كانت فوق أيديكم التى
أرادت بنا ما فى الظنون الكواذب

اليس هو المؤمن بالأسرار المقدسة ـ كاهنا يهتك ببصره الشبهات عن حقائقها ـ اعنى قسيسا . واذا لم يكن قسيسا قبل كل شيء فلن تراه من الاصلاح والمصلحين فى شيء .

وكما رأينا أعاظم الرجال فى مراكزهم المختلفة يبنون الأديان ـ الأساليب الشريفة للحياة الدنيوية ـ العقائد الحيوية الجديرة بأن يتغنى بها أمثال دانتى ، والأفعال الخليقة بأن يشدو بها أمثال شاكسبير ـ نرى أيضا عكس ذلك ، أعنى هدم هاتيك الأديان . وهو أيضا من الضرورات ، وحرى أن يكون من أعمال الأبطال ومفاخر العظماء . وعجيب أن يكون ذلك ضروريا ولكنه فى الحقيقة ضرورى . حتى ترى نور الشاعر ـ ذلك النور اللين الغض يخلى مكانه لبارقات المصلح السريعة الوميض الطائرة الشعاع . ولابد للكون من المصلح وليس يخلو التاريخ منه قط ولولا المصلحان القديس (وميناكيس) ، والرجل الشديد البأس ، الصعب المراس (ثيباد اريماتس) ما ترنم دانتى ، ولولا ما سبق شاكسبير من

اعمال الأمم ومساعي العالم من (أودين) الى معاصره (والتروالى) ما نطق شاكسبير . بل ان الشاعر الكامل لدليل على أن عصره قد بلغ حد الكمال وانه قد أوشك أن ينتهي ويجيء عصر جديد ودولة جديدة وحال جديدة. فلابد اذن من أن يوجد المصلحون فيقوموا بتلك الحركة.

ولاشك انه قد كان خيرا لنا واجمل لو امكننا ان نفلت من تلك الفتن والثورات ، ونتحامى هـــذه القلاقل والاضطرابات ، ونسير ابدا السير اللين الرفيق على انغام الشعراء . يروضنا شجي غنائهم . وطرب حدائهم. كما كان يفعل (اورفيس) :

حيث استفز الراسيات بلحنه
أورفيس استدنى القطا الحذرات
ودعا الوحوش النافرات فأقبلت
خضع الرقاب نواكس الهامات

وكان خيرا لنا اذ لم يؤتنا غناء الشعراء لو انا سرنا في طريق السكينة والأمن يتولى قيادنا ويأخذ زمامنا قساوسة ذوو هدوء وسلم ، يصلحون من أحوالنا يوما فيوما . لقد كان حسبنا والله ذلك ولكن أبت سنة الطبيعة الا امورا أخرى . اذ ما برحت تقوم العقبات وتعترض العائقات في طريق الحياة الدينية ، بل يصبح الأمر الصالح الذي كان يعد من اسباب الرقي عقبة وعائقا وقيدا لا مناص من خلعه واطراحه ، وفي ذلك ما فيه من الجهد الجهيد والمشقة ، وعجيب والله كيف ترى الخطة الدينية والنظرية الروحانية التى كانت بالأمس تشمل العالم طرا وتسع الأمم جميعا ويرضى بها تمام الرضا ذهن ثاقب دقيق كذهن دانتي تصبح اليوم حديث خرافة للقرن الحاضر ، وموضع تكذيب

واتكار، وسخر واصغار، شبيهة عندهم بنظرية (اودين)، كان دانتي يرى تمثيل الحياة الدنيا وأفعال الله بالعباد بتلك النيران التي صورها في قصـــته وتلك الأودية والجبال . ولـكن لوثر لم ير ذلك ولا صوبه ، فكيف كان ذلك ؟ ولم لم تبق على مدى الأيام كاثوليكية دانتي حتى تذهب ويعقبها بروتستانتية لوثر ؟ اللهم لا شيء يبقى !

انا لا احفل بمسألة ارتقاء البشر وتقدم المدنيـــة كما يتكلم فيها علماء هذا العصر ، فان كلامهم في ذلك الصدد شديد الغلو كثير الخلط والخبط مضطرب مشوش . ولـكني اقول على الرغم من ذلك ان ارتقاء النوع حقيقة لاشك فيها وبرهانها باد في طبيعة الأشياء ، وذلك ان كل انسان فضلا عن انه متعلم فهو كذلك مخترع يتعلم بالعقل الذي وهبه الله ما صنع السلف وبنفس هـــذا العقل يكتشف أمورا جديدة ويبــدع ويبتكر ، وليس انسان قط يخلو من ملـكة الابداع والاختراع ، ولارجل قط يعتقد ما كان يعتقده جده حذوك القذة بالقذة بل يفسح بالاكتشاف مجال نظره في الـكون ، ويبعد مدى رأيه في الخلائق ، والـكون تعلمون عديم النهاية ، وما كان لراى قط مهما انفسح أن يستوفيه ويستقصيه ، ويشتمل عليه ويحتويه ، أقول كل امرىء يزيد رأيه في الـكون على رأى جده ، اذ يخطىء بعض ما كان يراه ذلك الجد ويراه غير منطبق على حقيقة حديثه الاكتشاف، هذا تاريخ كل فرد وهو يظهر في مجرى التاريخ العام مضاعفا أعظم تضعيف حتي يبدو في هيئـــة الانقــلابات الـكبيرة والثورات الخطيرة . ولقد كان دانتي يحسب ان في نصف الدنيا الآخر جبلا في الحيط يطهر الله فيه ارواح المذنبين قبل ادخالها الجنة وهو ما وصــفه في

قصته وسماه جبل التطهير ، هكذا كان دانتي يعتقد . فلما ذهب كريستفور كولمباس الى ذاك النصف الآخر من الدنيا لم يجد في بحاره ذاك الجبل الذي كان دانتي يعتقد وجوده هنالك !! أفتري الناس بعد ذلك يصدقون قول دانتي ؟ وهذا حال سائر المعتقدات في هذا العالم وحال ما ينشأ عنها من النظامات الدينية والدنيوية .

فاذا أضفنا الى ذلك الأمر المحزن وهو انه اذا مرضت القلوب ووهنت العقائد ونخر الشك في عظام اليقين فسدت عقيب ذلك أعمال المرء ، ونجمت هنا وهنالك الأغلاط والمظالم والمصائب ومدت الفتنة أسبابها، وأخذت الثورة أهبتها ، وشمرت جلبابها ، وما زال من البديهي انه لا يصدق عمل المرء حتى يصدق اعتقاده ، فاذا ضعف اعتقاد الانسان فلم يكن له من عقيدته ما هو باعث على الأعمال بل أصبح يجري في جميع أمره على مذهب العرف السائد وسنة العادة المتبعة ، مخضعا رايه لراي الدنيا ، جاعلا ارادته رديفا لارادة العالم وفكره جنيبا لفكر الملأ ، فما هو والله اذ ذاك الا عبد واسير، وبالخطأ فيما يسند اليه خليق وجدير، وهو احد سواق الفتنة، وحداة الثورة ، يضرب عجزها ويأخذ بناصيتها الى اليوم الموعود ، والأجل المحدود ، وما من عمل يأتيه من غير صدق ولا اخلاص ناظرا الى ظاهره الكاذب فقط ، الا وهو اثم جديد يلد لبعض الناس جديد مصاب ومستطرف بلية ، ثم تتراكم الآثام حتى تتفجر عن الثورة انفجار البركان. وهكذا لما أصبح الناس لايؤمنون بكاثوليكية دانتي من حيث معانيها ، ولا يقدسونها ، لما افسد الشك والكذب والعمل المنكر الخبيث من مبانيها ، اتيح لشملها من لوثر ممزق ، ولنظامها مبدد

ومفرق ، وقضى ربك على العيشة الاقطاعية تلك العيشة المونقة البهجة التى ابدع صفتها شـاكسبير ان يكون ختامها الثورة الفرنسية ، وانما هو كما قلنا انفجار من الآثام المتراكمة كانفجار البركان ثم لا تستقر الأمور الا بعد مدد طويلة من الاضطراب والقلق .

وانه لمن البلية أن نظرنا من ذلك الأمر على جهة واحدة فلا نبصر فى آراء البشر ونظاماتهم الا انها مشـتبهة ملتبسة وقتية رهينة بالفناء والموت .. والحقيقة غير ذلك، اذ نجد ان الفناء هنا انما هو فناء الثوب لا الجوهر، والموت موت الجسم لا الروح ، وكل اتلاف بسـلاح الثورة انما هو خلق جـديد على نظام ابدع ، ونطـاق اوسع ، فـكانت الوثنية الأودينية شجاعة وبسالة ، وجاءت النصرانية خشوعا وضراعة ، وما الخشوع الا ضرب من الشجاعة أشرف وأكرم ، وما من راى جال فى صدر الانسان جولة جد واخلاص عن عقيدة صدق وايمان الا وكان فى وقته نظرة صـادقة من الانسان فى صميم الحق ، فيها عنصر صـدق لايزال على تجدد الاحوال جديدا ، فهو ذخر لنا باق على كر الجديدين وتعاقب الخافقين . ثم أليس من الجور والسخف أن نرى أن جميع من خلق الله من الامم فى جميع الازمان والأمكنة مخطىء ضال الا نحن ، وانه ليس فى خلق الله غابرا وحاضرا من بات على هدى من ربه الا نحن ، وأن جميع الأمم والشعوب ضلوا وخابوا لـكى نصيب ونفلح نحن ــ الفئة الضئيلة القليلة ، وان جميع تلك الأمم انما ساروا منذ بدء الخليقة حتى الآن مسير الجنود الروسية لم يك زحفهم نحو الخندق الا ليلقوا بأنفسـهم فيه فيسدوه بأجسامهم الميتة فيكون لنا ثمة من جثثهم جسر

نعبر عليه الى المدينة المحاصرة فنأخذها ! وهذا وربكم غاية الغرور ومنتهى الباطل .

وما أشد ما يتمسك الناس بهذا الباطل فيحسبون انهم سائرون على جثث جميع من سلف من القرون الى امد النصر والظفر ، ولكن ماذا عسى أن يقال اذا هم وقعوا كذلك فى الخندق وصاروا اجسادا ميتة ؟ وكذلك ارى فى فطرة الانسان انه ما برح يحسب فكره امام الأفكار ورأيه خاتمة الآراء ، ويمضى على هذه العقيدة ، ولو أنصف لأبصر ان جميع من ذهب من عباد الله الصالحين ومن حضر انما هم جنود جيش واحد أدرجوا فى سلك الكتيبة تحت قيادة الله ليقاتلوا عدوا واحدا. اعنى به عالم الظلمات والباطل ، ففيم التناكر والتجاهل والاشتغال عن جهاد العدو المشترك بقتالنا بعضنا بعضا لمجرد اختلاف فى اللباس والزى ؟ الا كل الأزياء حسن ما زرت عراه على ذى مروءة ونجدة ، ومرحبا بالسلاح كله على اختلاف نوعه وشكله من العمامة العربية. واليمانى المرهف الى معول (ثورا) يضرب به الجان والمردة ، وما زمجرة لوثر فى حومة الحرب ، والحان دانتى من اليراع والقصب ، الا عون لنا لا علينا ، وكلنا نحب ذياك القائد وذاك اللواء !

(وبعد) فلنلق نظرة فى جهاد لوثر هذا لنعلم أى ضرب من الجهاد هو وكيف كان فيه بلاؤه ، ولوثر لا تنسوه كان من أبطالنا الروحيين ـــ نبيا لأمته وزمنه .

ولعل كلمة هنا عن الوثنية على سبيل المقدمة لاتكون الا فى مستقرها وموضعها ، لقد كان من أهم خواص محمد (عليه السلام) ومما امتاز به الانبياء عامة شدة الانكار للوثنية ، وهو اكبر مسائل الرسل ، وعبادة

الأوثان الميتة كاله هو ما لايسكتون عنه أبدا ولايطيقونه ، بل لايزالون يشددون النكير عليه ويسمونه بألدغ مياسم القذع والقذف ، وهو عندهم أس الذنوب وراس الكبائر ؛ وهذا جدير بالتأمل ، وكلمة (ايدول) أصلها (أيدولون) ومعناها الشيء المنظور أعنى العلامة أى الرمز ، فليس معناها اذن الها بل رمز للاله . وجدير بنا أن نشك هل كان قط انسان مهما بلغ انحطاطه وعماه فى راى ذلك الصنم أكثر من انه رمز ؟ أنا لا أظن ان مثل ذلك الانسان كان يحسب ان الشيء الذى صنعه بيديه هو الاله بل كل ما يحسب هو انه يمثل الاله وان الاله كائن فيه بشكل ما . واذا كان الأمر كذلك حق لنا أن نسأل أليست كل عبادة أيا كانت هى عبادة بالرموز أو بالأشياء المنظورة ، وسواء تمثل الاله للعين الخارجية فى صورة متطورة أو للعين الداخلية اعنى الذهن أو للخيال فانما هو فرق سطحى لا جوهرى ، اذ لا تزال تبقى هذه الحقيقة وهى أن هناك شيئا ينظر — بالعين أو بالذهن — دليلا على الاله ، وليس يخلو أروع الناسكين وأولع المتصوفين من الممثلات الذهنية للمسائل المقدسة وبها يعبد الله ولولاها ما وجد الى العبادة سبيلا : وكذلك كل العقائد والملل والنحل والتصورات المطوية على الوجدانات الدينية على هذا الحد أشياء منظورة ، ولا تسير العبادة قط الا بالرموز — بالأوثان . وعلى ذلك نقول ان كل دين وثنية ، وانما بعضها أشد وثنية والبعض أقل .

أين اذن شرها ؟ أما انه لابد من أن تكون منطوية على شر كبير والا فما كانت ملاقية من انكار الأنبياء والرسل أشده وأبلغه أجل لماذا نرى الوثنية بفيضة كل ذلك

البغض الى الأنبياء ممقوتة لديهم ؟ ولا أحسب ان أكبر ما أسخط نبيا على الوثنية وملأ صدره غيظا وحنقا ليس هو بالضبط ما كان يخطر بباله فى ذلك الصدد ويصرح به للغير ، فان أحط وثنى من عباد الكواكب أوالأصنام كان كما رأينا خيرا من الحصان الذى لم يعبد شيئا ! بل لقد كان فى عمله الحقير هذا نوع من الفضل الخالد ، شبيه بما يحمد فى الشعراء ، اعنى ايناس الجمال الالهى والمعنى الكبير فى النجوم وسائر الكائنات الطبيعية على الاطلاق ، فلماذا يا ترى ينقم عليه النبى كل هذه النقمة ؟ ان احقر وثنى عاكف على صنمه ليس اذا امتلأ صدره ايمانا بهذا الصنم الا جديرا بالرحمة لا الابغاض وان كان بعد أهلا للاحتقار والمقت والاجتناب أن شئت ليمتلىء باعتقادها قلبه وليستنير بها وعاء ذهنه الضيق المظلم أو بالاختصار ليؤمن بصنمه الايمان كله يكن فى ذلك خير له ، أو بعبارة أخرى ما هو حاضر فى ذلك الوقت من الخير وممكن ، ثم دعه وشأنه آمنا فى سربه ماضيا على رسله .

ولكن الوثنية تصاب بعد ذلك بآفتها الكبرى ، وهى ان الايمان بها يكون قد تطرق اليه الفساد أزمان النبوة ، ويكون الكثير من الناس قد ادركوا بعض ما ادركه النبى من ان هذا الوثن انما هو قطعة من الخشب. وينكر النبى هذه الوثنية ، والوثنية المنكرة هى الخالية من الاخلاص والصدق لما اكلت الشكوك قلبها ونخبت الشبهات لبها ، فبينا يتشبث بها الوثنى اذ يخيل اليه انه يتشبث بطيف الخيال واشباح الظلال ، وهذا لعمرى من شر البلية واسوأ المحنة ، ولقد قال كولريج: « انكم لا تعتقدون وانما تعتقدون انكم تعتقدون» وذلك هو الفصل الأخير من رواية الأديان والعقائد وآية دنو

الموت واقتراب الهلاك ، وهو شبيه بما نسميه اليوم اتباع التقاليد وتقديس العادات . وليس فى طاقة الانسان أن يأتي جناية أفظع ، وموبقة أشنع ، ولا اثما أفجر — وجرما أنكر — وما هى الا رقدة العقل وشلل النفس ، وضياع الاخلاص والصدق ، فلا عجب اذن ان ينكر الحر ذلك ويمقته ويبرأ الى الله منه .

ولا أجد لوثر فى أمر الأصنام وتكسيرها الا كأى نبى من الأنبياء ، وما كان بغض محمد (عليه السلام) لآلهة قريش المصنوعة من الخشب والشمع بأكثر من كراهة لوثر لمسألة غفران ذنوب الموتى وأدواتها من الجلد والحبر كما كان يجريها بطارقة الكاثوليكية ، وأنه لشأن البطل أيا كان وفى كل زمان ومكان أن يرجع الى الحقيقة ويعتمد على الأشياء لا على ظواهر الأشياء ، ويقدر حبه لحقائق الأشياء واجلاله اياها اجلالا ناطقا يصدح به صوت الشعر ويسجع ، أو اجلالا مفعما يجيش به الجنان ويعجز عنه اللسان ، يكون مقته وكرهه لظواهر الأشياء مهما صقل التمويه من أطرافها وهذب التزويق من حواشيها ومهما أيدتها قريش أو عززتها قساوسة الكاثوليكية ، والبروتستانتية عمل جليل جدير بفاعله أن يسمى نبيا ، وهى فى نظرى نبوة القرن السادس عشر وأول ضربة فى مفاصل عقيدة أصابها الدهر بداء الكذب والوثنية ، وهى تمهيد جديد لمستقبل صالح سيكون حقا ويكون مقدسا !

يظن الذى لا يدقق النظر ان من شأن البروتستانتية محوها لما نسميه عبادة الأبطال وجعلها اساس الخير الديني والدنيوى ترك الثقة بزعماء الدين وعدم الايمان بهم ، وطالما نسمع ان البروتستانتية أوقدت عصرا

جديدا شديد الخلاف لجميع ما سبقه من العصور « عصر الرأي الشخصي » كما يسمونه ، وأما اذ كانت البروتستانتية ثورانا ضد البابا فقد أصبح كل فرد بابا لنفسه: وعلم فيما علم انمن‌أول واجباته‌عدم الثقة باى بابا أو امام ديني ! وعلى ذلك نسمع القائلين يقولون : أولم تصبح الرابطة الدينية وكل انقياد لزعامة دينية بعد ذلك من المستحيلات ؟ انا لا انكر ان البروتستانتية لم تك الا ثورة ضد ائمة الدين من بابا وبطريق وما اليهما ، كما لا انكر ان البيوريتانية الانجليزية التي‌كانت ثورة ضد الملوك والأمراء انما هى الفصل الثاني من الرواية التي أول فصولها البروتستانتية وان الفصل الثالث من هذه الرواية هو الثورة الفرنسية الهائلة التي كان من شأنها فيما يرى ويظن انها نسخت جميع الزعامات الدنيوية والدينية - الأرضية والسماوية - أو جعلت‌أمر نسخها قضاء لابد من تنفيذه. والبروتستانتية هى الجذر الذي عنه تفرع تاريخ أوربا الحديث وتشعب لأن الروحانيات ما برحت تتقمص فى‌العمليات والروحانى مبدأ العملى ، وقد أصبحنا الآن وملء آذاننا صيحات « يا للمساواة » «يا للاخاء» « يا للحرية والاستقلال» وأصبحنا ولدينا بدل الملوك أوعية أوراق الانتخابات وأصوات الانتخاب وكأنما قد ذهب من الدنيا بتاتا طاعة الانسان للانسان فى الدنيويات والدينيات ، ولو أن الحقيقة كذلك لتناهى يأسي من الدنيا وأريقت صبابة رجائى ، ولكن ارسخ عقائدى أن الأمر ليس كذلك ، ولولا الحكام أخيارالحكام - الدنيويون والدينيون‌لأصبح أمر الناس فوضى ، وشر الأمور الفوضى ، ولكنى أرى البروتستانتية رغما مما أحدثت من الديمقراطية الفوضوية منشأ ملوكية حرة صادقة ومنشأ نظام وصلاح

واحكام ، وأراها ثورة ضـــد اشرار الملوك وكاذبيهم ، وأراها الخطوة الأولى الى اقامة أحرار الملوك بيننــــا وصلاحهم . وهذا يحتاج الى قليل من الشرح .

ولنذكر اولا أن أمر « الراى الشخصى » فى العبادة لم يك بالأمر الجديد فى العالم ولـكنه كان فى تلك المدة جديدا ، نعم ليس فى البروتســتانتية شىء جـديد فى جنسه وانما هى رجعة الى الحق والجوهر بعد الاقامة على الباطل والظاهر الـكاذب بشـــأن كل رقى وتعليم صالح ، ولا احسب الا ان حرية الراى الشخصى مابرحت فى الناس من قديم الأزل لم يخل منها جيل من الأجيال ، وما أظن ان دانتى كان قد عمد الى عينيه فقلبهما ولا الى حركات ذهنه فغلها وقيدها ، ولقدكان فى كاثوليكيته تلك حرا طليقا وان أصبح قوم فى اغلالها من بعــــده مكبلين وفى أصفادها موثقين ، حرية الرأى ؟ ماذا اسمع كلا والله ما كان قط فى قدرة السلاسل والأغلال ولا أى قوة بشرية ترغم انسانا على الايمان بهذا الأمر أوالكفر بذاك ، وانما رأيه فى ذلك سراجه الدائم الاشتعال الذى لا يخبو الا مع أفول كوكب حياته ، وبه يستنير ويهتدى بفضل الله وحده : ان أشقى الضالين الذى يأمر باعتقاد الأعمى والطاعة المهينة لابد من أن يكون قد أقنع نفسه أولا بأنه لا حق لها فى طلب الاقنـــاع ، نعم و « رأيه الشخصى » هو الذى اشار عليه بذلك كأصوب مايؤتى ، فمثل هذا الرجل حر الرأى فى ضــــلاله ولـكنه حر الرأى ، وهو فوق ذلك مخلص ، وما دام فى قلب المرء اخلاص فالراى الشخصى جاره فى ذلك القلب وحليفه ، والرجل المخلص يعتقد بملء رأيه وبجميع ما هومطوى عليه من النور والهدى ، بينما ترى الرجـل الـكاذب

الذي يحاول جهده أن « يعتقد انه يعتقد » يسلك طريقا آخر ، فالأول تقول البروتستانتية « خيرا صنعت ! » وتقول للآخر : « ويل لك ! » فما هو كما ترون بالقول الجديد ولا الخطة العذراء ، وأنما كما قلت عودة الى جميع ما قيل من اقوال القدماء « كن حرا ، كن صادقا ، كن مخلصا » لقد كان محمد (عليه السلام) يؤمن بملء قلبه ، وكذلك كان أودين وكذلك جميع المسلمين والنصارى وصادقي الوثنيين ، لقد رأى كل فريق منهم مذهبه الذي تبعه (برأيه الشخصي) .

واني لا أقول ولا حرج ان الاستمرار على أعمال الرأي الشخصي لا ينتهي قط بالاستبداد الأناني والتفرق والتقاطع بل ينتهي بعكس ذلك بطبيعة الحال ، وليست الفوضى من نتائج البحث الحر والفحص الصادق ولكنها نتيجة الخطأ والكذب وضعف الايمان ، وما ثورة المرء ضد الباطل الا ميل منه الى ناحية الحق وجنوح الى اللحاق بزمرة اهل الصلاح والتقى ، فأما أهل المظاهر الكاذبة فمحال ان تكون بينهم صلة أو رابطة ، وكيف وفي جوف كل منهم فؤاد ميت لا عاطفة فيه على حقيقة شيء .. واذا أقفر القلب من العاطفة على الأشياء أفترجو أن يكون منه على اخوانه الآدميين عاطفة ؟ كلا انه لا يأتلف بالناس — انه رجل فوضوي ، والوحدة ايدكم الله والجامعة لا تكون الا بين اخوان الصدق وأولى الاخلاص .

اما من حيث قولهم ان كل انسان يعبد الله « برأيه الشخصي » فان معظم الناس ليس لهم آراء شخصية ، وانما الرأي هبة الله يهبها لأعاظم الرجال ، ثم لابأس على غير العظماء أن يعتقدوا رأي العظيم ويستشعروه

حتى لكأنهم مبتكرونه وقانصو شريدته ، ومخترعونه ونابشو دفينته ، وحسب المرء من الابتكار والاختراع ، والاكتشاف والابتداع ، ان يصح ايقانه ويصدق ايمانه، فاذا كان ذلك ، فما ضره ان لم يكن من الراى بمنزلة كاشف خبيئته وفاض لطيمته ، ومن كان كذلك فهو الحر الصادق المخلص بل ان له فوق ذلك من فضيلة الاكتشاف والابتكار بمقدار ما هو فاهم للرأى الذى يعتقده ويستنبطه ، فان فهمك لراى عظيم من العظماء ضرب من الشركة مع ذلك العظيم فى احداثه ، وكذلك لكل أمرىء أن يكون متى شاء مخلصا صادقا اعنى مبتكرا بمعنى ما ، بل لقد أوجد الله أمما وشعوبا كل افرادها مؤمن صادق ، تلك امم الحق وشعوب الايمان، وقرون الصدق والصلاح ، وأعصر البر والفلاح ، أعصر مباركة وافرة الثمرات كثيرة الخيرات ، جمة المبرات ، اذ كل فرد يقوم على أس الحقيقة لا الباطل ، فكل شجرة عمل يانعة الثمر ، وكل لفحة صنع غزيرة الدر، وحاصل الجميع جم وافر ، بما كان كل فرد يضرب الى ناحية واحدة ، ويؤم غرضا بذاته وامدا بعينه ، هذه اعصر الربح لا الخسران وازمن المزيد لا النقصان .

ولد لوثر ببلدة ايزليبن بمقاطعة ساكسونيا من ولايات جرمانيا لعشر خلون من شهر نوفمبر ١٤٨٣ ، وقد لبست تلك البلدة بمولده حلة فخار تبقى ما لبس النهار حلة الشمس ، وتاج مجد يدوم ما كلل البدر هامة الليل . وكانت أمه وأبوه وهو صانع فقير فى بعض معادن البقعة المسماة « موهيرا » قد ذهبا الى سوق ايزليبن الشتوى فأخذ السيدة المخاض فى حومة السوق وغماره فعادت بدار حقيرة وولدت غلاما سمى مارتين

لوثر ـ عجيب والله ذلك لو تدبرتموه ، لقد ذهبت هذه المرأة « فرولوثر » وبعلها الى ذاك السوق لتقضي حاجة من البيع والشراء ـ علة لتبيع ثمة ما كانت نسجت من ثياب الصوف ولتشتري ذخيرة الشتاء لدارها الحقيرة، ولعل في ذاك اليوم لم يك في طول الأرض وعرضها اثنان هما أصغر شأنا وأخمل ذكرا وأقل خطرا من ذلك العامل الفقير وزوجه .

ومع ذلك فماذا ملوك الأرض وسلاطين العالم وباباته وبطارقته في جانب ذينك الاثنين ! لقد ولد اليوم بطل جليل، وشب الله شهاب وقاد، سوف يمتد على مئات القرون المقبلة شعاعه ، في ذلك اليوم ولد بطل أطال سكان الأرض ارتقابه ، وخوله التاريخ احتفاءه وترحابه ، عجيب والله وغريب وخطير على الغرابة وكبير ! وفيه ذكرى لميلاد أقدم عصرا ، وأسمى منزلة وأرفع قدرا وقع منذ ألف وثمانمائة عام ، وهو حادث الصمت إزاءه أولى من الكلام ، وما عساه يقال في مثل ذلك المقام ؟ ويزعم الناس بعد لوثر ومولده ان الأرض قد صفرت من المعجزات ، وانفضت من الآيات. كلا وأسماء الله انما العالم غريق في الاعجاز والمعجزة من نبات ذياكم الثرى .

وأرى انه كان ملائما جدا لوظيفة لوثر في هذا العالم وحكمة من الله بالغة أن ولد ذلك الرجل فقيرا وربي فقيرا كأفقر عباده ، وكان أيام تلمذته يشحذ القوت متسولا بالغناء من دار الى دار ، وكان البؤس رفيقه والكرب شقيقه ، والشقاء أبدا مجاهره وجها لوجه ، والدنيا تكاشفه الكره والعداوة ، لا تخادعه قط بزخارف الباطل والكذب وبوارق الأمل الخلب ،

وهكذا شب لوثر بين حقائق الأشياء المرة المضيضة لا ظواهرها الحلوة المصقولة ، غلاما خشن الهيئة ضعيف المنة ، فى جوفه روح كبيرة نهمة كلها ذكاء وشعور ، شب فى ملتطم أمواج البلاء ، ومصطدم أو أذى الشقاء ، ولكن ذلك خير مدارس له ، تعلم فيه سنة الحق والف صحبة الحقائق ، وهذا واجبه فى الحياة ان يعرف الحقيقة ثم يرجع اليها العالم الضال بما قد طال فى الباطل لجاجه ، واشتد بالزور والكذب لهاجه ، غلام نشأ فى مهد العواصف وربى فى حجر القر والزمهرير ، وغذته مرضعات الهم والنكد وغازلته بنات البأساء والسكمد ، فخرج من أحشاء وطنه خروج « ثورا » (١) من ضمير اسكانديناقيا ، وكيف وانه ما انفك يضرب فى شياطين الافك والزور ، وأبالسة المنكر والفجور ، كما كان يفعل « ثورا » بالجان والمردة حتى هزم كتائب الكذب والمحال وكشف جنود البدع والضلال .

ولعل الأمر الذى كان عليه متحول مجرى حياته هو موت صديقه « الكسيس » بالصاعقة ، لقد كان لوثر قد اظهر فى زمن طفولته وصباه أشد الميل للدرس والمذاكرة رغما من كارثات الفقر ، ورجا أبويه ان يكون له فى الرقى قسمة فأركباه طريق الدراسة القضائية لأنها الطريق اذ ذاك الى النهضة والصعود ، فرضى لوثر بذلك رضا ككره ، وأساغه مساغ الشجى وأغضى منه على القذى .

فلما كان فى التاسعة عشرة وقد شخص هو وصديق له « الكسيس » ليزورا أبويه فى بلدة « مانسفيلد »

(١) اله الرعد عند الامم الشمالية الوثنية وقد مر ذكره .

ثارت- زوبعة ورمت بالصاعقة فأصابت صديقه فاذا هو تحت قدميه ميت فناجاه مناجى العبرة من أعماق نفسه « تبا لهذه الدنيا وقبحا لهذى الدار، ويا بؤس للحياة ويا رحمتا للانسان ! ما هذه الحياة ؟ اتزول فى لفتة الجيد ولمح البصر وتذهب كالقرطاس طوته ألسنة النيران فتضيع فى مجاهل الأبد ؟ ماذا الدنيـــا وماذا الدول والممالك والسلاطين والقياصرة ؟ كلهم فى التراب ! بينما هم رافلون ، على الأرائك متكئون ، تفغر الأرض فاها فاذا هم فى بطنها ثاوون ، وبالعفر والرغام مكحولون ؟ والمدر والحجارة موسدون . أجل ، كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام» ، عزم من ساعته على الانقطاع لله وعبادته طول عمره ، وأصبح قسيس كنيسة القديس ثم أن لوثر أوجاستين ببلدة «أرفورت» برغم أبيه والـكثيرين من معارفه .

ولعل هذا أول شعاع برق فى تاريخ الرجل ولـكنه شعاع وسط ظلمات ، وقد حدث نفسه انه كان فى تلك المدة قسيسا صالحا ، يجد ويجتهد ليؤدى وظيفته ، ويدرك السعادة ولـكن عبثا حاول فما خفف مصـابه ولا قلت شقوته ، ولـكن تضاعف عليه البـلاء حتى جاوز كل حد . وما أشقاه لا من كد فى عمله ولا نصب ولا من مهانة العمل وذله أتاه البلاء ، وانما لسـقوط نفسه اذ ذاك فى أسحق مهاوى الشك والخوف ـ الشك فى انه على الهدى ، والخوف من عذاب الله فى الآخرة ، وقام بخاطره انه قد دنا أجله ، وشر من ذلك انه قد دنا عذابه الأبدى ، أليس فى ذلك دليـل على خشـوع الرجل وضراعته واخلاصه ؟ لعله جعل يقول فى نفسه : « من أنت أيها المسكين حتى تدخل الجنة ؟ أنت الذى

ما عرفت الا الشقاء والهوان . كلا ، ذلك مقـام دونه الشمس» ، ولم يكد يفهم كيف ان فى الصوم والتهجد وتكاليف الدين والـكنيسة منجاة للمرء من النار فمن ثم هوت نفسه فى اعتم ظلمـات البؤس ، وجعل كأنما يرنح به على شفا جرف هار .

وكان عثوره على نسخة قديمة من الانجيل فى مكتبة ارفورت حسنة أكبر من حسنات الزمن ، ولم يك قط قبلها أبصر الأنجيل ، فلقنه درسا خلاف درس الصيام والتهجد ، وأعانه على ذلك اخ فى الله قسيس ، فعلم لوثر أن المنقذ للانسان من وهدة البلاء ليس هو نشيد الصلوات وترتيل الآيات، وانما هو الله ومرحمته ، وذلك أقرب الى العقل وأوقع فى الجنان ، فاعتصم من رحمة الله بأوثق عروة ، وانشب من مغفرة الله فى ارسى طود وهضبة ، ولا بدع ان جعل يقدس الانجيل الذى اسدى اليه تلك المنة فاجله كما يجل مثله كلام الخالق ، وعزم على الا يحيد عنه أصبعا ، وقد كان منه ذلك حتى لقى ربه .

فكان ذلك خلاصه من اسر الشكوك والريب ، ومنجاته من مرتطم الخوف والجزع ، وانتقاله من الضلال الى الهدى ، فازدادت نفسه من يوم الى آخر غبطة وصفاء ، وراحة ورخاء ، وكانت النتيجة الطبيعية انه اظهر للملأ ما كان مكتتما قبل فى زوايا صدره من المواهب الالهية والصفات العلية ، فأعظمه الرؤساء وبواوه من الدرج ما هو أهله ووكلوا به أمر البحث ، فكلما آب من رحلة كلفوه اخرى ، ثقة منهم فيه بالحزم والصـــدق ، ثم اختاره أمير المقاطعة « فريدريك الملقب بالعاقل » وكان عاقلا عادلا استاذا فى جامعة « وتنبرج » فأحسن اداء

ذلك العمل كما احسن البلاء فى جميع ما نيط به من الأمور ، وجعل من يوم الى آخر يعلو فى أنظار الناس ، ويتغلغل فى نفوسهم .

وكان فى السابعة والعشرين من عمره ان رأى مدينة روما لأول مرة وكان أتاها برسالة من ديره ، ولا اخال الا ان لوثر عجب لما أبصر من حال البابا « يوليوس الثانى » وسائر أحوال روما اذ ذاك ، وكان ظنه أنه قد اتى المدينة المقدسة عرش ولى الله فى الأرض وامام الناس وهاديهم سواء السبيل فاذا هو بين فسق وفجور ، وغفلة وغرور ، وويل وثبور ، وبين اثم وزور ، وبلاء وشر ، وباطل ومكر ، وما أحسب الا ان هذه الحالة السيئة قد بعثت خاطره فى أودية الفكر وشعاب الظن ، ولكنها كانت هواجس لم يرفعها قلبه الى لسانه ، ولا اسلمها وجدانه الى بيانه ، لقد علم انه لا يبصر أمامه هدى ولا حقا ، ولكن ماله ولذلك ! وانى لرجل ضعيف مثله أن يصلح عالما ويقلب دنيا ، حقا ان لمثل هذا العمل لانسانا غيره أعظم قدرا ، وأكبر خطرا . وحسب لوثر ان يوفقه الله الى هداه . ويسدد الى خطة الحق خطاه . وبحسبه ان يقوم بواجبه فى خفية وغموض ، فأما العالم فعالم الله يفعل به ما يشاء ولله فى خلقه شئون .

وكذلك ترك لوثر هذه البابوية الضالة وشأنها وعاد الى بلاده ، نعم تركها وشأنها ولم يتعرض لها الا بعد أن تعرضت له ، لم ينقض عليها ويسطو بها حتى هاجته واستثارته ، ومن أكبر فضل الله أنها هاجته واستثارته واستدعته بذلك الى شن الغارة عليها والايقاع بها ، اذ ماذا كانت الحال تكون والى أى شىء كانت تصير الأمور لو لم يثر لوثر ثورة الأسد المخدر فى وجه ذلك المذهب

الباطل فيرد عرامه ويفل غربه ويكف منه عن العالم شرا مستطيرا كان يؤذن بالويل العظيم والخطب الجسيم ، والتلف العميم ؟ ماذا كان يكون الأمر لو قد استمرت تلك البابوية تضرب في سنن غوايتها ، وتمعن في طريق عمايتها ، من غير أن تعترض لوثر في سبيله وتصادفه في منهاجه فتضطره الى الحملة عليها ؟ انما الواضح لى انه لو لم يكن ذلك ما كان لوثر ليفوه ببنت شفة عن مفاسد روما وموبقاتها ، وانما يجعل الأمر في ذلك الله شيمة الرجل المتخشع المتواضع الذى لا يرى من شأنه أن يستطيل بالتسفيه على ذوى الأمر من غير أن يكون ثمة موجب أو علة ، بل يرى كما قلت ان حسبه من التطفل بالنصيحة على الغير أن ينصح لنفسه ويبغى بها جادة الحق ومنهج السداد .

ولكن البابوية لم يكفها ما أنت فى سائر الجهات والأمصار من التضليل والتغرير حتى هجمت على لوثر في قريته الحقيرة فسامته خطة الخسف والضيم فأبى ، وآية الرجل الشريف انه اذا سيم الخسف قال : لا ، يملء فيه . وبيان ذلك ان البابا « ليو » العاشر احتاج المال ، وكان مبذرا متلافا فابتغاه من وجه حرام وطريق ممقوت ، اذ جعل يبيع الناس عفو الله ، وعفو الله لا يحتاج الى شفاعة بابا ولا بطريق ، وما هو بالسلعة تباع فى السوق بالذهب والورق ، وانما هى بضاعة لا ثمن لها الا الاخلاص الصريح ، والتوبة النصوح ، ودمع المذنب يقرع وجنتيه ، وسنه يضرس سبابتيه ، فان كان لابد من شفيع فالسيد المسيح ومحكم التنزيل ، وآيات التوراة والانجيل . ولكن البابا رأى الجهل فاشيا فى الناس ، فأرسل فيهم رهبانه وقساوسته بتلك

الأوراق المدلسة المرذولة ، وكان يسميها أوراق الغفران، ومع كل راهب صندوق فيقول للناس : « من كان له فى الجحيم صاحب أو قريب فأحب أن يغفر الله له وينقله الى الجنة فلينبذ فى هذا الصندوق قرشا ، فانه لا يكاد يصل حتى يطير الروح المعذب من مثواه فى النار الى انضر مقامات الجنة » .

ونزل أحد هؤلاء الرهبان واسمه « تتزل » على بضع فراسخ من بلدة « تنبرج » حيث كان لوثر فأصغى اليه كثير من العامة لسذاجتهم ، وبلغ من شره ان بعض القوم نبذ طاعة لوثر فى كثير من أوامره اتكالا منهم على ما اشتروه من عفو الله بالدرهم المنقود ، فقدح ذلك فى أحشاء لوثر ، ورأى انه قد آن له أن يثور فى وجه البابوية الكاذبة ولم يخش الراهب «تتزل» بل قال : «ان يشأ ربى وربكم فلأصدعن مروته ولأنحتن اثلته».

ثم كتب رسالة أبطل فيها عمل البابا وطعن فى خطته ، وارسل صورة منها الى بطريق مدينة « ماجد برج » شيخ النصرانية بألمانيا ، وعلق صورة ممضاة باسمه بباب كنيسة (وتنبرج) ، فهب هذا النبأ مهب الريح فى كل وجهة ، وطار فى أنحاء العالم الأوربى مطير البرق.

وأدبر الراهب «تتزل» فنزل بلدة فراتكفورت الواقعة على ضفة نهر « أودار » فكتب ردودا على أقوال لوثر ونشرها فتناول تلاميذ لوثر نسخة منها فأحرقوها ببلدة «وتنبرج » وسمع البابا بذلك فقال متهكما : «لا اخال ان لوثر هذا من نوابغ العالم » واستمر لوثر يكتب الردود والمطاعن وينشرها زعماء البابوية وانصارها ، وتقوم بينه وبينهم سوق المناظرة ويحمى به وبهم وطيس الجدال فيدمغ بالحق باطلهم ويدفع باليقين شبهاتهم ،

وما زال ذلك دأبه ودأبهم حتى نفد صبر البابا وذهب عنه ما أبقاه التجلد من رمق الاحتمال والمطاولة ، فنشر لائحة كفر فيها لوثر ورماه بالخروج والزندقة ، وأمر بكتاباته أن تحرق ، وبه أن يرسل مكبلا فى الأغلال الى روما لعله ليحرق أيضا فيلقى من الجزاء ما لقى القسيس « هاس » من قبله ، ونعم المناظرة النار ما أخصر وما أسرع وما أقرب الى الغاية وحسم النزاع ، يا للظلم ويا للفجور : يستدعى البابا القسيس « هاس » ويعطيه عهد الله وميثاقه الا يمسه بسوء ولا ينـاله بأذى . ويحضر « هاس » رجلا لا مشاغبا شديد الخصومة ولا مشاكسا الد الجدال . وانما رجلا سهل الشكيمة ، لين العطف ، سلس العنان ، فيودعونه سجنا أضـيق من بياض الميم ، ثلاثة اذرع فى مثلهـا ، ثم يضرمونه عليه نارا ، فيقطعون بصوارم اللهب صوتا ما رفع الا فى طاعة الله .. لبئس والله ما يصنعون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

أنا أحد الذين يفسحون ساحة العذر للوثر فى قيامه الآن ضد البابا ، فان ذلك البابا المترف الـكافر والوثنى الأنيق الثوب السـائغ الطعمـة لما أوقـد ناره لحريق مكتوبات لوثر أجج بها حنقا وسعر بها غيظا وجردا فى أشجع فؤاد كان اذ ذاك فى العالم — أشجع فؤاد وأضرعه لله وأشده تواضعا . أجل ، لقـد اسـتعر ذلك الفؤاد وتأجج ولات حين اطفاء .. وكأن بلوثر يقول فى نفســه حينذاك : « أتحرق يا هذا الرجل كتاباتى هذه وما أريد بها الا الحق والهدى ولم يعمد بها الى غير الله وتسمى نفسك بعد ذلك امام الناس وخليفة المسيح فى الأرض؟ أتجعل الجواب على هذه الأوراق احراقها وما فيها الا

عظة لك وحكمة وتريد ان تحرق كاتبها ؟ االنت خليفة الله فى ارضه ؟ كلا : انت خليفة الشيطان ومثواك مثواه ودارك مغنى لابليس وجنوده وعش لخفافيش العمى والجهالة وجحر لهوام السفه والضلالة ، وانى لأشهد على لائحتك تلك التى اصدرتها نقمة على بالكذب والجور وليس لها لدى الا النار . ولتفعل بعد ذلك ما تشاء » ثم ان لوثر جمع من شيعته وانصاره مجمعا ورفعوا نارا فاحرقوا فيها لائحة البابا واكثروا عليها الهتاف والصياح بمرأى من مدينة «وتنبرج» بل بمرأى من العالم اجمع .

ويحك أيها البابا : لبئسما صنعت اذ استثرت من صدور الناس تلك الصيحة . فانها صيحة استيقاظ الأمم وانتباه العالم . لقد طالما أوغرت صدر ألمانيا حتى ضاق ذلك الصدر بما كظم . وحتى طفح ذاك الاناء ولم يبق فى قوس الصبر منزع ، ولقد طال بالناس حكم الضلال وتراخت مدة الباطل وشاخت فيهم دولة الزور والبهتان وقد آن للحق ان يميل عروشها فيهدمها .

وهل كان لوثر الا من قبيل الأنبياء حاطمى الأصنام ومرجعى الناس الى الحقيقة بعد طول الاقامة على الضلال ، وتلك وظيفة العظماء عامة ، او لم يقل محمد (عليه السلام) للناس انما اصنامكم هذه خشب لا تضر ولا تنفع ، وهل كانت مقالة لوثر للبابا اذ يقول له : (ما هذه الاوراق التى تسميها اوراق العفو الا اكذوبة واضلولة ، وما انت والعفو عن الناس انما ذلك بيد الله) الا كمقالة محمد ؟ لله انت يا لوثر أى كاشف غمة ، ومنقذ امة ، واى مرجم شياطين ، وسيف على رقاب الظالمين انت ! وبأبى انت اذ تقول ولا تبالى

نيران البابا ولا جيوش السلطان : « انما العفو بيد الله والأمر لله وحده ، وانما البابوية وما يدعونه من تلك الرعاية الروحانية افك وزور . وكيف وما أراها الا اثوابا مرقوشة ، وأوراقا منقوشة ، وما كانت تلك المواد الجامدة الميتة لتكون زعامة دينية ، ورعاية روحانية ، انما هي حقيقة رائعة ، ومادين الله وفردوسه وجحيمه بأباطيل كتلك ولا أكاذيب ، فبهذا وحده أومن وبه أعتصم وعليه أقوم وفيه اضرب أوتادي ، وارسى أطوادي ، واني اذ أفعل ذلك لأقوى منكم جميعا ، وعصمة الله أمنع للمؤمن من جميع ما تشيدونه من القلاع والمعاقل ، وبأس الله من بأسكم أشد ، وكيده من كيدكم اقوى ، وانا وانتم بنصر الله كما قيل :

كادوا وكدت فأزهقت ما دبروا
احدى هناتك أيما ازهاق

انا في وحدتي بهدى الله قوى ، وانتم في جموعكم بالضلال والكذب ضعاف ، انا من طاعة الله مدجج في أكمل سلاح واحصن جنة ، وأنتم من معصية الله في اسمال رثاث واطمار رعابيل ، منكشفو العورات حاسروا المقاتل ، وأنا من تقوى الله على صخرة أصلها تحت الثرى وفرعها في السماء ، وأنتم في باطلكم كالمتكيء على الهواء والمعتمد على الماء .

ثم جاء بعد ذلك حفلة «ورمز» وظهور لوثر هنالك ، ولعل هذا كان اجل مشهد في تاريخ أوربا ، والمنبع الذي منه فاض تاريخ المدنية الحديثة ، والذي كان من أمر هذه الحفلة ان امبراطور المانيا شارل الخامس لما أعيته الحيل في لوثر ولم تنفعه فيه المناقشات والمجادلات ، وكان قد عقد الحفلة للنظر في شئون

الولايات ، استدعي لوثر ليعرف ما عنده ولينتهي معه عند حال ، وكان المجلس حافلا بجميـــــع الوجوه والأشراف وامراء الدولة والولاة وزعماء الدين والملك ، والى هــذا الجمع الحاشد استدعى لوثر من قريتــه ليسأل : الا يزال مصرا على رأيه ؟ فيجيب : نعم ، أو لا ، خصمان متواجهان وقرنان متبارزان ، أحــدهما قوة العالم وزهرة الدنيا وجيــوش الأرض ، وثانيهما رجل فرد نجل الصانع المسكين (هانز لوثر) قائما فى نصرة الحق ، وقد نصح اليه الاخوان لا يذهب وذكروه بنبأ القسيس (هاس) ليكون فيه عبرة ومزدجر، فأغلق دون كلامهم اذنيه ومضى على عزيمته فى الذهاب وصمم وقال : (تالله لأذهبن ولو أن بمدينة « ورمز » من الشياطين بقدر ما بها من الحصى) ، وجعل النـــاس يصيحون به من نوافذ الدور وشرفاتها وهو سائر الغداة الى الحفلة أن أقم على مبدئك وتشبث برأيك ومذهبك، واياك والانخذال والهزيمة . وجعلوا يتمثلون له آية من الانجيل فى ذلك المعنى ، ذلك ما طلبه اليه أهل وطنه، وهل هو فى الحقيقة الا طلب العالم أجمع ـ طلب العالم الذى جهدته اغلال الباطل وشفته ظلمات الضـــلال واخذ بكظمه شيطان الجهل حتى بلغت الروح التراقى ـ طلب العالم يصيح بلوثر : اغثنا ، أدركنا يا بطـل الابطال فان مدار امرنا عليك ، وأرواحنا فى يديك .

ولم يخذلهم لوثر ولا خيب فيه آمالهم ، وقام فى المجلس خطيبا فتكلم ساعتين كلاما ســـــداه الحكمة ولحمته الاخلاص والصدق ، أبان فيه أنه يذعن للحق وليس لغيره يذعن ، وان كتاباته بعضها من املاء ضميره وبعضها مستمد من كتاب الله ، فأما ما كان من بنات

خاطره فذاك ملىء بالعيب والخطأ بما انه كلام بشر ، واما ما كان مأخوذا من قول الله فأساسه الحق وليس يبرأ منه ابد الدهر ، ثم سألهم أن يناضلوه بالحجة والدليل فاذا دحضوا حجته زال لهم عنها وصار الى ما يحبون .. الى ان قال : « انا لا اخالف ما يأمرنى به العقل والنهى ويوحى الى به صوت الحق من زوايا الضمير والنفس ، ذلك ما فى وسعى وطاقتى وليس لى عنه محيد ولا دونه مذهب ، وعلى الله اتوكل وهو حسبى ونعم الوكيل » ..

الا ترون ايها الاخوان ان هذه كانت اخطر ساعة فى التاريخ الحديث ، وان عليها قامت دعائم الدستور الانجليزى وبرلماناته ، والحرية الأمريكية واستقلالها ، والثورة الفرنسية ونتائجها فى انحاء الارض ؟ نعم فى هذه الساعة غرست جذور تلك الحوادث الكبرى والمسائل العظمى ، ولو سلك لوثر فى تلك الساعة خطة اخرى لكان لها عواقب اخرى ؟ وكأنما العالم الاوربى كان ساعتئذ ماثلا أمام لوثر يسأله هذا السؤال : أترى لا ازال فى محنة وبلاء يهوى بى النحس الى مساقط الجهل والشقاء ام يرزقنى الله من ذلك الداء الشفاء ، ولظلمة الباطل من نور اليقين الجلاء ، فأغتبط بمناعم الراحة والصفاء بعد مخابث العيشة الكدراء ؟

ومما يمدح به لوثر انه اثار فى وجه الدين ثورته واحدث ذلك الانقلاب العظيم من غير أن يهيج زوابع الفتنة أو يسعر نيران الهيجاء : بل حقن الدماء فى الابدان ، والسيوف فى الاجفان ، ولم يحول اليراع حساما ، والقراطيس اعلاما ولا استبدل من صرير القلم فى الطروس ، صليل السيف فى الرءوس ، ولا من

التناضل بالأقوال ، التناضل بالنبال ، ولا جعل الكلوم (١) موضع الكلام ، والجلاد بدل الجدال والخصام ، وقلما نجد رجلا احدث امرا جللا وهاج حركة هائلة الا غالته مما أحدث غائلات ، والتهمته مما اثار محن جائحات ، وهذه من مستلزمات الفتن والفتوق ، ومستدعيات كل خروج عن الاوضاع المألوفة ومروق ، وانما وفق لوثر الى ذلك بفضل ما أوتيه من الحزم والبصيرة ، فالحزم راس بوارع الخصال ، وكرائم الخلال ، وداعية الصلاح ، وسائقة الفلاح .

ومن أكرم ما امتاز به لوثر فضيلة التسامح ، وبها كان يميز الأمر الأساسي الجوهرى من غيره ، فجاءه ذات يوم عن بعض قسوس المذهب الجديد انه يعظ الناس فى قلنسوته (وكانت هذه سنة المذهب الكاثوليكى ومخالفة لمبادىء الملة الجديدة) فلم يعبأ لوثر بتلك الشكوى ، بل قال : « وأى ضرر فى القلنسوة ؟ دعوه يلبس قلنسوة أو ثلاثا اذا شاء » .

وقد ذكر (ريشتار) لوثر فقال : لقد كانت كل كلمة من كلماته كموقعة حربية . وما اخطأ فى قوله ، ولعل اهم صفات لوثر هو انه كان يستطيع أن يحارب فيقهر ، ويقاتل فينتصر ، وانه كان قطعة من الشجاعة ، وفلذة من المروءة : ولا نعلم قط فى التاريخ الحديث والغابر انسانا أشجع قلبا من لوثر ، ولما قال فى مدينة «ورمز» كلمته المأثورة وهى : « ولو أن فى ورمز من الشياطين عدد ما بها من الحصى لما حفلتها » لم تك لمجرد الافتخار والتيه ، كما يكون فى مثل تلك المواطن ، ولكنه كان عن عقيدة صحيحة بأن هنالك شياطين

(١) الكلوم جمع كلم وهو الجرح

يعترضون عباد الله فى مسالكهم بالشر والأذى ، ومن يذهب الى الغرفة التى كان يكتب فيها لوثر ترجمته للانجيل يرى على احد حيطانها بقعة سوداء — اثر موقعة كانت له مع شيطان من الجن ، وأصل ذلك ان لوثر كان جالسا فى تلك الغرفة يكتب ترجمة الانجيل وكان قد نهكه الكد ، واعياه الجهد ، وبلغ منه المرض والصوم ، وكان من أثر ذلك ان تراءى له شبح مبهم الشكل مخوف الهيئة فحسبه ابليس اتاه ليقعده عن عمله ، فثار لوثر ثورة جبار ، وأخذ الدواة فرمى بها الخيال فاذا هو قد املس . وأثر الدواة فى الحائط باق الى الآن آية ودليلا على امور شتى ، وان فى قدرة اى تلميذ بمدارس الطب أن يكشف لنا القناع عن هذه الحادثة ويحل لنا مشكلها ، ولكن اعتقاد لوثر ان الشبح القائم أمامه هو ابليس ثم نهضته فى وجه ابليس وقذفه اياه بالدواة دليل على منتهى الشجاعة واقصى غايات البأس والنجدة ، ومن كان لا يهاب شياطين الجحيم وأبالسة جهنم فهو أحرى الا يهاب ملوك الأرض وجبابرتها ، وقد كتب مرة العبارة الآتية: (الشيطان يعلم ان عملى هذا ليس بنتيجة رهبة ولا مخافة فلقد طالما رأيت الشياطين ونابذتها ، والدوق جورج لا يعادل شيطانا واحدا ، وأين هو من سطوة الشياطين : فليعلم هذا الدوق انى لو شئت أن ادخل بلدة « ليبزيج » لدخلتها قسرا وعنوة وجست خلالها ولو أن سماءها تمطر امثاله من الدوقات تسعة أيام ولاء) ، لك الله يا لوثر ، اى طوفان وسيل من الدوقات تريد أن تقتحم !..

وشد ما يخطىء الذين يحسبون ان شجاعة هذا

الرجل كانت ضربا من البطش والفتك ، وصنفا من العناء والعصيان والخشونة والعجرفية ، وما ابعدها عن ذلك ، وانا لا انكر ان هناك ضربا من قلة الخوف مصدره قلة العطف او قلة التفكير ، وربما كان منشؤه وجود البغضاء والحنق الأعمى ، كشجاعة النمر وهل ترون لشجاعة النمر قيمة ؟ اما لوثر فكان غير ذلك بتة ، ولم ار تهمة اكذب من نسبة الفتك والقسوة اليه . وكيف وما كان قلبه قط مجالا لغير الحب والرحمة شأن كل فؤاد ذى مروءة وبر ، والنمر ان صادف قرنا اشد منه بطشا فر هاربا ، فما هذه بشجاعة ، وانما فتك وقسوة ، ولست اعلم شيئا ارق والطف مما كان يصدر عن فؤاد لوثر من انفاس المودة والعطف ، تلك التى كانت ارق من انفاس العاشق فى الهجر ، وانفاس النسيم فى السحر ، لله ما كان ارق هاتيك الأنفاس ، واعنى بها كلمات الرجل ، وما كان اصفاها واخلصها من شوائب الرياء والكلفة واشبهها بالعذب الزلال تتفجر به الصخرة الملساء ، وهل كانت كآبته واطراقه ويأسه مدة صباه الا بعض آثار التفكير والاتعاظ والعبرة مما يكون عادة فى القلوب الرقيقة والنفوس الحديدة الشعور الذكية الوجدان ؟ وهى حالة يصاب بها ذوو الرقة من الشعراء وقد اصيب بها الشاعر المسكين وليم كوبر ، بل لقد بلغ من رقة لوثر وتواضعه انه كان يحسبه الناظر غير المدقق رجلا ضعيفا هيابة وعندى أن اكرم الشجاعة واسماها ، بل اشدها واقواها ، هى المنبعثة من فؤاد كله لين ورأفة .

وكم لنا فى كتاب لوثر المسمى (حديث المائدة) ذلك الذى جمعه اصحابه بعد وفاته من اقواله وكلماته من

فى الآيات البينات الدالة على عظمة الرجل وفضله .
فمن ذلك ما أبداه عند وفاة حفيدة له من جلد فى رقة، وصبر فى حرقة ، وقوله انه استودع الصبية عند الله ولكنه يملك مع ذلك وجدا عليها قد أوقد لوعتـه ، وهاج غلته ، وكمدا والتياعا ، وحنينا ونزاعا ، ثم جعل وهو مشدوه (مدهوش) حائر ينظر فى أعقاب روحها الصاعدة الى الله قد غابت فى اثناء تلك العوالم المجهولة وراء حجب الموت ، ــ ينظر دهشا حائرا ، وحسبكم ذلك دليلا على صدق الرجل واخلاصـه وعلمه . انه رغما من اختـــلاف الملل وافتراق النحل فانا معشر الادميين لا نعلم شـيئا ولن نعلم ، وكل ما يدرك ازاء حادث الموت الذى اخترم حفيدته هو انها ستصبح عند الله وان الله اراف بها وارحم ، وان خير الامور أن يسلم الأمر لله ، فالاسلام دينه ومذهبه .

ومن آيات عظمته انه أطل من نافذته مرة فى جوف الليل فقال فى نفسـه : « عجبا لهذه القبة الزرقاء وهذا الفلك الدوار وهـذا السحاب الركام ، يالله ما أروع وما أجل ، على أى دعامة تقوم هذه السماء ؟ لادعامة الا قوة الله سبحانه . ورفع السـموات بغير عمـــد ، وامطر من السماء ماء فأخرج به نباتا ، وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها يعلم مستقرها ومستودعها» ، ولما كان عائدا ذات يوم الى داره أعجبه رواء مغـارس القمح ، فقال : ما أبهج منظرها صـفراء تميل فوق خضراء كأنها حقاق الذهب على قضبان الزبرجد، بركة تفطرت عنها احشاء الأرض ، ونعمة سلتها يد الله من اغماد الثرى .

ومن آياته أيضا ، ابصر ذات مساء عصفورا قد خيم

فى وكره على شجرة باحدى البساتين ، فقال : عجبا لهذا العصفور ما راعه هول ما فوقه من هذى السموات ان يطمئن فى عشه آمن السرب ، ساكن القلب ، مفوضا امره للخالق الذى مهد له فى جنابه ووطأ له فى كنفه ، هذا وما زالت شذور المزاح تفصل نظام حكمه ، وما برحت نكت الفكاهة تزين ديباجة كلمة ، وكذلك من كان قلبه أمين النواحى رقيق الحواشى ، غزير مادة الحنان والحب ، وقديما كان الضحك الصريح عنوان الكرم والخير ، وامارة المروءة والبر ، ثم أما ترون فى حبه الشديد للموسيقى جملة تفاصيل هذه الأميال الكريمة ، ومجمع تفاريق هذه النزعات العالية ، وكم من معنى لطيف ، يعيا به البيان ، ووجدان شريف ، يعجز عن تأديته اللسان ، اداه الينا لسان مزماره ، وباحث به مناطق أوتاره ، وكان يقول ان الشياطين لتفر من نغماته وتفقد عند وجود الحانه ونبراته .

فلله انت أيها البطل من جامع الضدين ومؤلف النقيضين ، بأس تسطو به على الجن وأبالستها ، ورقة جذبت لبك نحو الأنغام ومطرباتها ، والألحان ومرقصاتها ، انهما والله قطبان لروحك العظيمة ، وبين هذين القطبين مجال لكل كريمة من الخصال ، ومضطرب لكل شريفة من الخلال .

وارى فى وجه لوثر عنوانا على خلقه ، فهو وجه خشن الملامح تعرف فى نتوء عظامه ووعورة أركانه معانى البأس والقوة ، والنشاط والهمة ، وفى العينين حزن فى صبر ، ووجد فى سكينة ، وكآبة لا تكيف ، ورقة لا توصف وتلك أصل كل عاطفة رقيقة ، ومنها يستفيد ذلك الوجه ما يرى فيه من سيماء الشرف والنبل ،

وقد قلنا ان الضحك كان مغروسا فى طينة الرجل ، ولكن تلك الطينة كانت فوق ذلك مسسقية بالدموع نهلا، وكأن فيها ينابيع الدمع وبحاره ، وخلجه وأنهاره، وكان اساس حياته الحزن والجهد والاخلاص والجد ، ولقد قال في اخريات عمره بعد مظافره وانتصاراته انه قد مل البقاء وسئم تكاليف الحياة ، وان له عند الله امنية ، هي ان يريحه من متاعب الوجود ويقبضه اليه. ومن عابه بكلمته هذه وعدها عليه فقــد اخطا ! وما احسب ألا أن لوثر كان رجلا كبيرا ــ كبير القلب ، كبير العقل، كبير النفس ــ رجل من خيرة رجالنا وصفوتهم ، ولا أراه الا كالجبل الأشم أصم الصخور صلد الصفا وفى نقره وثغبانه الماء الزلال ، العذب السلسال ، وعلى جوانبه الرياض تبتسم نضارة ، وترف بهجة وغضارة، الى زهر وريحان ، وفاكهة الوان ، وقصارى القول انه بطل ونبى ، ونتيج الطبيعة وسليل الحقيقة ، والجدير أن يحمد الله عليه هذه الأجيال ، ومن ســوف يدرج على هذه الأرض من غابر الناس ويدب .

ثم ان مذهب لوثر تفرق شعبا ، فأكرم شعبه واطيب فروعه ذلك الذى نبت فى انجلترا ، اعنى الملة البيوريتانية، فأما فى المانيا ذاتها فان البروتستانتية أخذت تضمحل حتى تحولت عن منزلة الأديان الى مواطن الجـــدل والمخاصمة ، وزالت عن القلب الى اللسان ، وعن العقيدة الى الحجة والبرهان ، بل ما زال بها الاضمحلال حتى صارت فولتيرية ، وانتهت الى تلك المباحثات الجدلية التى كانت أيام الثورة الفرنسية ، اما فى بلادنا (بريطانيا) فقد اخذت البروتستانتية صورة اخرى هى البيوريتانية ثم غولي بالبيوريتانية حتى صـــــارت الملة المسماة

(البريزباتيريانية) وهى الكنيسة القومية لأهالى اسكوتلاندة ، وهى ملة صريحة ، وعقيدة محضة صادقة ، مغرسها القلب وثمارها جمة فى أنحاء العالم البريطانى. وحقيق بنا أن نذكر كلمة عن مؤسس هذه الملة الامام (نوكس) ذلك الشجاع النبيل ، وقبل ذلك نذكر كلمة عن البيوريتانية ومعناها البروتستانتية فى انجلترا ، ومنها نشأت البريزباتيريانية ــ مذهب القسيس نوكس.

فى عام ١٦٢٥ رحل القسيس الانجليزى وليم تيندال الى بلدة لوثر (وتنبرج) منجذبا اليها بشهرة ذلك البطل الكبير وخطورة مذهبه. وكان القسيس تيندال شديد التدين والتقى ناقما على الكاثوليكية فرحب بمذهب لوثر أى ترحيب وكان قبل رحلته الى المانيا بطويل قال لأحد القسوس الجدليين : (ان يطل الله مدتى لأتركن راعى الغنم وهو أعلم بكتاب الله منك) ، ولماذا ذهب بلدة لوثر وجدها محط الرحال وملتقى الرجال قد ازدحمت بالقاصدين من كل صوب وحدب وجلهم من الطلبة ، فقد أخلصوا لله وتفانوا فى حبه فلم يكن لحالهم تلك مثيل الا حالة الصليبيين ولا لبلدة لوثر شبيها الا مدينة بيت المقدس ، وكانوا اذا دنوا من البلدة هتفوا بحمد الله ، وصاحوا غبطة وسرورا ، وهنالك ترجم تيندال الانجيل وارسل ستة آلاف نسخة منه الى انجلترا ولم يك هذا الكتاب مقصورا على ترجمة الانجيل، بل كان بما ضمن من أقوال لوثر كأنه قطعة من الحركة اللوثرية ، فقابلته الكنيسة الانجليزية بأشد المقت والانكار، وأمرت بعدد كبير من نسخه أن تحرق فأحرقت فى مدافن كنيسة سانت بول بعين الوزير ولزى ، ولكن ذلك لم يمنع ارباب المذهب الجديد من تهريب العدد الوفير من تلك

النسخ ومن الرســـائل المهيجة التي كان يكتبها لوثر وانصاره الى الاقطار الانجليزية ونشرها بين طبقـــات الفقراء من العمال والصناع والباعة ، وكان المتولى لذلك جمعية اسمها (الاخوان النصـــارى) مؤلفـة من بعض تجار لندن وأهلها مركزها لندن ولـكن رسلها تنتشر فى سائر البقاع البريطانية ، فوجدت هذه النسخ سبيلها الى الجامعتـــين « كامبردج واكسفورد » حيث كانت النهضة العلمية قد فتحت عيون القرائح الى المسـائل الدينية وبعثت الطلبة على الاشتغال بالمناظرات الفقهية والالهية . وكانت كامبردج قد رميت بالزندقة وسرت منها العدوى الى اختها اكسفورد ، وكان من أمر ذلك الهياج الذى اعقب انتشارالنسخ المذكورة ما الجأ الوزير ولزى الى مؤاخذة الهائجين فزج بقسوس اكسفورد فى السجن واحرقت كتبهم ، ولـكن ولزى لم يتجاوز فى عقابهم ذلك الحد رغما مما ملـكهم من الذعر والفرق ، وانما صرفته شئون السياسة عن مسائل الدين .

وكان لانتشار الانجيل بين سكان بريطانيا من التغير الأخلاقى ما لم يسبق له مثيـل فى تاريخ البشر ، اذ أصبحت انجلترا امةكتاب ــ وهذا الـكتاب هو الانجيل، نعم أصبح الانجيل كتاب كل انجليزى ، يتلى فى الكنائس وفى المساكن ، وحيثما وقعت كلماته قرعت آذانا ، لم تخلقها كثرة الاعادة ، ولا بلدها طول التكرار ، فحركت من النفوس ماحركت وعزت من كل جنان اريحيته ، وهاجت من كل قلب غيرته فى الله وصبوته . وحب الامة للانجيل راجع الى علة خلاف السبب الدينى ، وذلك انه كاد يكون أول كتاب أدبى نظر فيه الشعب الانجليزى وتنزه فى رياضه وجنانه ، وجنى أزهاره وثمراته ، ولم

يك قبل ترجمة الانجيل لدى الانجليز من أسفار الأدب الا ما كان كتبه « ويكليف » وكاد ينسى ، والا ما نظمه الشاعر (تشوسار) وكان لايعرفه الا الاقلون ، نعم لم يوجد قبل ترجمة الانجيل فى اللسان الانجليزى تاريخ قط ولا رواية ولا قصة ولا شعر الا منظومات تشوسار، فلا غرو ان أصبح الشعب الانجليزى يرهف الآذان لاستماع عبارات الانجيل فيجد أبهج مستمتع فيما بذلك الكتاب المقدس من الروايات والقصص وأغانى الحرب واناشيد الدعاء والتراجم والسير ومواعظ الرسل ومزاجر الأنبياء ، وحكايات الأسفار البرية والاخطار البحرية وجولات القسوس فى بلاد الوثنية ، وفى المناظرات الفلسفية وتصورات الكهنة ، فقد كان اذ ذاك نهضتان ـ علمية احدثها ظهور دفائن العلوم القديمة اليونانية ـ ودينية احدثها كشف خبايا الآيات العبرانية ، والثانية ابعد اشواطا وامد انفاسا ، واعمق جذورا واطول اغراسا من حيث انها نهضة شملت الخاص والعام فى حين انحصار الاولى فى دوائر العلية المتادبين ، وذلك انه لما لم يك فى طاقة الترجمة أن تنقل الى الانجليزية براعات اللسان اليونانى تركت عرائس ذلك اللسان مخبوءة فى خدورها ، فلم يستطيع استجلاءها الا الواقفون على اسرار اليونانية وهم قليل ، ولكن الآيات العبرانية كانت اسمح ما يكون قيادا فى عنان الترجمة حتى أصبحت فى ثوب الانجليزية مثلها فى حلتها العبرانية حسنا وبهاء ، وبهجة ورواء ، بل اضحت اشرف ما لدينا من تحف اليراع الانجليزى واكرم نفائسه ، واسلوبها ميزان الاساليب فى الانشاء ونظامها معيار النظم فى الكتابة ، بل ان اثره ابقى فى نفسهم ككتاب أدبى ، واذا تذكرنا ما هو مبثوث فى عرض كلامنا العادى من كلمات كبار

مؤلفينا ـ أعني تلك الشذور التي تسربت الى احاديثنا من دواوين شاكسبير وملتون وصحائف ديكنز وثكرى ، ادركنا كيف كان اللسان الانجليزى فى تلك الأوقات يأخذ من ترجمة الانجيل زخارفه وحليه .

واعظم من اثر الانجيل فى الأدب ولغة المحاورة اثره فى أخلاق القوم ، لقد كان الانجيل يفعل بالألباب اذ ذاك ما تفعله الآن الجرائد الدينية والمقالات والرسائل والمحاضرات والخطب والمواعظ ، وكان من أثره انه بدل آراء الجمهور فيما يتعلق بمسائل الحياة وأحوال الانسان ، وبعث فى جسم كل طبقة من طبقات الأمة روحا جديدة أخلاقية وأخرى دينية ، ونفض الدين صبغته فى الكتابة ، فما من رسالة تصدر الا وبها عرق زاخر بالورع والتقى ، وهكذا خلفت الكتابات الدينية فى ذاك الوقت ما كان يشغل العصر السابق من ترجمات الآداب الطليانية واللاتينية ، وقد قال جروشاس وذكر انجلترا « واصبحت السيادة فيها للدين » ، وقصارى القول ان البلاد امست وهى كنيسة كبيرة ، ومسألة الموت وما وراء الموت تلك المعضلة التى اعتاصت على ذوى الألباب وأولى النهى فى عصر شاكسبير فما عرفوا لها حلا عادت الآن نصب عين الفلاح والتاجر يطالب نفسه بحلها ، ولم تك البيوريتانية فى أول أمرها تقشفا وتعصبا ولم تتعد الى ملاهى اربابها وملاذهم فتلغيها ، وتبطلها ، وانما كان البيوريتانى فى أول الأمر كما قيل :

فلله منى جانب لا أضيعه
وللهو منى والخلاعة جانب

فمن ادلة ذلك ان احدى السيدات لما صورت زوجها القائد هاتشنسون، وكان بيوريتانيا ، وجهت جل عنايتها

الى ابراز جماله كما كان أيام صباه ، ولو كان أمر التقشف والورع أمكن فى نفوسهم اذ ذاك من أمر الزخرف والزينة لكان لها مندوحة عن فعلها ذاك ، ولكن السيدة مالت الى ابداء ثغره الوضاح ، كاللآلىء النسق والأقاح ، وجبين كأنه المصباح، أو فلق الأصباح، ولمة ، حالكة مدلهمة ، فهى كما قيل :

وجاء بها نور ترف كأنها
سلاسل برق لينها وانسكابها

هذا وقد كان السيد المذكور مع حسن تدينه وصحة تقواه مولعا بالصيد والقنص مغرما بالمسابقة والرقص، كلفا بالفنون الجميلة ، لا تزال تستخفه قصيدة ، وتستفزه صورة ، وتستبيه نغمة ، وتطبيه دمية ، وكان ربما نزل بستانه فسقى وعل ، وغرس واستأصل ، وأصلح وشذب ، ونقح وهذب .

وكان البيوريتانى بعد عزوفا عن الفحشاء والمنكر ، قد صرف صبواته عن الحرام الى الحلال ، وعدل بصباباته عن مراتع الوخامة والوبال، الى مقامات الشرف والكمال فكان أبا رحيما ، وخلا حميما ، وزوجا شفيقا، واخا رفيقا ، ولم يك قط فى فتنة النساء ما يحرك شهوته ، بل كان غضيض الجفن عن كل ما يريب شامس العطف عن المشربات تجده الفتنة بأصعب مرام وأوعر ملتمس ، عفيف النفس ، عفيف الطرف طيب معقد الازار ، يقف من النساء عند محاسن الحديث والسمر، ويقنع منهن بشهوة السمع دون البصر .

وكان البيوريتانى حسن القصد فى أموره قليل السرف، يباكر شئونه والبركة فى البكور ، لا ونية عنده ولا فتور، مشمرا من ذيله ، منكمشا فى عمله ، وكان أحسن ما وفق

اليه من المحامد فضيلة المساواة ، وذلك ان اخاءهم فى الله أنساهم ما كان قبل راسخا فى نفوسهم من تفاوت الدرجات وتفاضل المقامات ، حتى كان أحقر فلاح يعتقد ان الله قد شرفه وقدسه ، وحتى صار أكبر الوجوه والأعيان يوقر مساكين الابرار ، وصعاليك الأنقيـــاء الأخيار ، ولـكن افراطهم ذلك فى حب الفضيلة والتقى وان عاد بالقوة على أخلاقهم فانه ضيق دائرة رحمتهم وفهمهم ، وقد ظهر اثر ذلك فى الشاعر الكبير البيوريتانى ملتون — فى احتشامه وانقباضه واحتقاره لآراء الغوغاء « كما كان يسميهم » وعزوفه عما يحيط به من اساليب الحياة الغليظة الخشنة ، بل لقد كان على فرط حبــه شاكسبير لايظهر ارتياحا الى مجون ذلك الشاعر الأكبر ومزاحه ، واذ كانت هذه حال ملتون وهو يعد سيد شعراء عصره وعصارة قومه ، فكيف كانت الحال مع من هم أقل ادبا وعلما ، واجمد قريحة وأكثف فهما ، نعم لقد آل ذلك التشدد فى التدين والافراط فى التورع بهؤلاء القوم الى اجمد أساليب الحياة وامرها واكرهها وابعدها من الألفة وحسن العشرة، واصبح البيوريتانى وليست الرابطة بينه وبين الغير هى رابطة الانسانية ، ولـكن نسب التورع والتدين بين طائفة المتدينين المتورعين أصفياء الله وأوليائه ، وكل من خرج عن دائرة هؤلاء الأبرار المصطفين فليس منهم ولا هم منه ، وانما هم منه أبرياء ، وان نفور البوريتانيين من المخالفين لمذهبهم هو السبب فيما نرى من الخلاف الشديد بين رقة قلوبهم وبين غلظة ما قد يأتون من وحشى الفعال ، وهذا كروموبل نراه بينما قد أدمى حشاه موت ابنه حتى حرمه الغبطة والسرور بانتصاره الباهر فى واقعة « بطحاء مارستون » فعاد من المعترك فائزا كخائب

وظافرا كمنهزم ــ نراه مع ذلك يهش ويبش لدن يوقع امضاءه على الأمر الصادر باعدام الملك « شارل الأول » وما ذلك الا لاعتقاده أن ذلك الأمير المنكود الحظ من المعشر الضالين وليس هو لغلظ فى كبده او فظاظـة فى طبعه ، وكان من تفانيهم فى الله أن ماتت فيهم فضيلة التسامح والتساهل حتى فى أصـغر الأشياء ، وهكذا تحولت حقائر الأمور فى حرارة التدين ووهج الغيرة ، جسائم وعظائم ، واصبح أحدهم يؤلمه من رؤية فطيرة العيد أو كعكته ما يؤلمه من رؤية الخبائث والفاسـق ، وباتت الحياة وهى عبء من الأعباء وسـخرة خالية من اللذة وكلفة قفر من البهجة ، وقام بدل مباهج العهـد اليصـــــابانى ومفارحه ، ومآنسه وممارحه ، مرارة البيوريتانية وجدها ، وعبوسها واربدادها .

ولقد كان البيوريتانى مصابا فوق كل ذلك بمخافة عذاب النار وهول القيامة ،ويقضى الكثير من وقته نهب هاتيك الوساوس ، وتلك الهواجس ، وكان فى شدة حرصهم على الورع والتقى ما يخيل اليهم ان حيـــاة الناس العادية نوع من الاثم والخطيئة . ولقد قال أحد كبار البيوريتانية اوليفار كرومويل : « لشد ما غويت وضللت أيام الشباب ، وما ادراك ما هذا الضلال وما تلك الغواية ، هى انه كان يباشر الطيب الحلال من ملاهى الشباب ولذاته . ويعوز ركانة حلم الكهل ورزانة عقل الشيخ ولابأس على الشاب فى الا يكون كذلك » . ثم انظر الى جون بانيان صاحب الكتاب الجليل «سيرة الحاج» كيف حدث عن نفسه فقال : « لما كنت صبيا فى التاسعة من عمرى كانت تحضرنى خواطر الموت وهواجس النار والحشر والجنة ، وما أشبه ذلك ، فكانت مبعث رعب

لي ومثار قلق وكرب ، تعتريني أثناء لعبي مع الصبية عظة من الله وزجره ولكني كنت أهملها وآبى الا اقامة على ذنوبي ومآثمي » أفتدري ما هي تلك الذنوب التي آبى الا الاقامة عليها ؟ هي نوع من لعب الأطفـــــال وصنف من الرقص ! فأما عيبه الحقيقي وهو الاكثار من الحلف فقد كان أقلع عنه عملا بنصيحة عجوز رات منه ذلك فأنكرته . وكان له ولوع شــــديد بسماع الأجراس تقرع وكان يحسب ذلك مأثما فـكان لايزال يذهب الى موضع تلك الأجـراس من الـكنيسة فيقف تحتها وهي تقرع حتى يخيل اليه أن الله سيرميه بأحدها فيفر هاربا ، وانصرف حينا عن الرقص والألعاب ، ثم عاد اليها وفي ذلك يقول : « لقد صرفتني عظة رجل من القسوس عن الألعاب ، ثم ما لبثت أن استهوتني بلذاتها ، فاني ذات يوم الاعب قطتي وقد لطمتها لطمة وهممت ان الطمها الثانية ، واذا بصوت من السماء قد نفذ الى صميم قلبي وكأنما يقول : أيهما تفضل وتختار ، ترك الذنوب ونعيم الجنة ؟ أم الاقامة عليها ، وعذاب النار؟ فأصابتني لذلك دهشة وأطلقت القطة ، ورفعت طرفي الى السماء ، وكأنما رأيت بعيني ذهني السـيد المسيح ينظر الى كالغاضب علي ، وكأنه يتهددني بعقوبة صارمة ان أنا لم أقلع عن تلك الذنوب والآثام » ..

وكذلك كانت البيوريتانية مزيجا من النقص والفضل وخليطا من السخف والنبل ، ولنا ان نذم من تلك الملة عيوبها ما شئنا ، ولـكنه لا يسعنا مع ذلك الا الاعتراف بأنه لايزال فيها ولن يزال جوهر من الحق . وهي بعد غرس غرسته الطبيعة وما ان نزال نتفقده فهو ينمو ثم ينمو ، وطالما قلت ان الحياة معترك فما فاز فيها وظفر

فهو حق وما خاب وانهزم فهو باطل فالقوة مقياس الفضل ، خذ مثلا عظمة أمريكا الحالية وانظر ماذا كان أصلها ومنشؤها ، الله يعلم أن منشأها لم يك الا فئة ضعيفة بيوريتانية من أهالى هولاندة أضر بهم جور السلطان وشفهم ظلم الحكومة فخرجوا من ديارهم ، وهاجروا منذ قرنين الى أمريكا فى تلك السفينة الصغيرة المسماة زهرة الربيع ! ولو كان لنا خيال اليونان وشاعريتهم لقلنا فى ذلك الحادث المذكور القصيد المحبر ولكن حسبنا ان الطبيعة كتبت فى هذا الحادث المذكور قصيدتها الغراء بحروف الحقائق الناصعة على صفحة العالم . ولقد كان بأمريكا قبل تلك الفئة البيوريتانية جماعة من النزلاء مبعثرون هنا وهناك ، ولكنهم لم يكونوا الا كجسم ميت فلما نزلت تلك الفئة فيهم كانت كأنها الروح دبت فى الجثة الهامدة فأحيتها ، نعم لقد ضاقت بهؤلاء القوم بلادهم فعزموا على انتجاع أمريكا ، وما أدراك ماذا كانت أمريكا اذ ذاك ؟ غابات خضر ، وآجام سود مسدودة عذراء لم تفترعها قدم ولا فتحت اغلاقها يدان ، مستبهمة المعالم طامسة الأعلام ، وامم همج وحشية ، ولكن هذا كله اخف وطأة من الحكومات الظالمة والملوك الغاشمة ، وقد علموا انه مهما يكن من صعوبة جانب الطبيعة هناك ، فان فى الرياضة ما يذلل انفها ، ويلين عطفها ، ويستغزر درها ، ويستدر خيرها ، وانهم سيجدون من الأرض وطاء ، ومن السماء غطاء ، ثم تطمئن بهم النوى ويستقرون فى حيث تنام عنهم الحادثات ، وتلهو صروف الدهر ، فيقضون أعمارهم بالعبادة والتقى ، ويتزودون من دنياهم لآخرتهم ، ولما صحت منهم النيات على ذلك ، وصدقت العزائم أخذوا عددهم وشحنوا امتعتهم ، واستأجروا مركبا ــ السفينة

السماة زهرة الربيع ـ واستقبلوا بها عباب اليم .

ولما نزلوا السفينة ، أقاموا بها شعائر الوداع والتشييع على صورة دينية ، ولا غرو ، فقد كان عملهم هذا دينيا ـ وان تشأ فقل ضربا من الصلاة والعبادة ، فصحبهم قسيسهم الى جوف السفينة ، وشيعهم كذلك اخوانهم الباقون بعدهم ، وابتهلوا جميعا الى رازق النسر فى السماء ، والحوت فى بطن الماء ، أن ينظر اليهم بعين عنايته ويسقيهم من صوب نعمته ، ويظلهم بجناح رعايته ، ويكون لهم فى بلاد الغربة ، وديار الوحشة حرزا منيعا ، وروضا مريعا ، وكنا دفيئا ، ووثارا وطيئا ، نعم ، لقد كان لهذه الفئة البيوريتانية شأن كبير ، وقد جعل الله على ايديهم نفاذ أمر من أجل أموره ، وان كان قدرهم اذ ذاك لم يك الا صغيرا ، فأول النار شرر ، واول الغيث قطر ، وكل شيء حق فمهما ضؤل وضعف فسيريكه الدهر يوما ما ، ضخما جسيما .

مثل الهلال بدا فلم يبرح به
صوغ الليالى فيه حتى اقمرا

والبيوريتانية وان سخر منها الناس سلفا ، فلا يستطيعون أن يسخروا منها الآن . وكيف وقد اخذت عددها ، ولبست سلاحها ، وحملت الحذق واللباقة فى أصابعها العشر ، والبطش والقوة فى قوائمها الأربع ، واصبح فى وسعها نزف البحار ، ونسف الجبال وتسخير البخار ، وتسيير الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام ، فهى الآن من اشد قوى العالم .

ولست أرى فى تاريخ اسكوتلاندة عصرا جديرا بالذكر الا ذلك الذى حدثت فيه بيوريتانية « نوكس » . وما ظنك ببلاد قفر ، لا تغيها الشاحنات من أهلها ،

والمشاغبات والفتن والمذابح ـ ناس فى ادنى حضيض الغلظة والسقوط أحسن بقليـــــل من أهالى ايرلندة الحاليين ـ طوائف من جياع الأمراء والسادة ، أبى عليهم جهلهم وحماقتهم ان يعرفوا كيف يتقاسمون فيما بينهم تلك الغنائم التى سلبوها جمــــاعة فقرائهم وعمالهم ، ولـكنهم كالجمهوريات الـكولومبية الحالية لايستطيعون ان يحدثوا تغيـــيرا حتى يحدثوا معه ثورة عامة ، ولا يجدون الى تبــديل وزارة سبيلا الا شنق أفراد تلك الوزارة ، أشجاعة هـــــــذه ؟ نعم ، ولـكنها شجاعة متوحشين لا تمتاز عن شجاعة آبائنا الاولين الوثنيين من سكان الشمال، أولئك الذين لا نجد فى مآثرهم الوحشية ومساعيهم الدموية شيئا يذكر . أجل لقــد استمرت اسكوتلاندة جسما بلا روح ، حتى نفخ الله فيها من نهضة « نوكس » روحا ، فأصبح كل فرد بها برا صالحا تقيا ، وان تشأ فقل بطلا ، ورسولا نبيا .

ومما يقال فى مدح هذا الرجل انه لم يطلب تلك المرتبة بحيلة ، ولا بلغها بوسيلة ، وانما أتته من تلقــاء نفسها وذلك بعد ان أوفى عقد الأربعين وكان من أمره انه عاش طول تلك المدة غامض الشأن ، فقضى أيام صــباه فى المدارس ، ثم تخرج منها قسيسا واعتنق المذهب الجديد ـ مذهب لوثر ، وقد قنع من التداخل فى شئون الغير بالاقبال على نفسه يصلح من شأنها ويحملها على المنهج القويم، وكان يكتسب بالقاء الدروس فى الأسرات الكريمة، يشرح مبادىء مذهبه اذا سئل ، ثابتا على الحق يصدع به متى دعت الحال ، غير حاسب انه يستطيع أكثر من ذلك ، وعلى هذه الصورة قضى أربعين من عمره ، فلما كان ذات يوم وقد اشتد الحصار على جماعة الخوارج

المصلحين وكان « نوكس » بينهم وقد أخذ رئيسهم يخطبهم يربط نافر جاشهم ويفتل مرر عزائمهم ، ويستنهض عاثر هممهم ، قال فيما قال : أنه لاباس ان يكون من القوم من يعمل عمله من عظة الناس ونشر المذهب ، وانه جدير بكل من وهبه الله قلبا حافظا ولسانا ناطقا أن يكد في نشر الحق لسانه ، ويبح في الارشاد الى الصواب ، وان « جون نوكس » هو ذلكم الرجل ، ثم التفت الى القوم فقال : « أوليس هو كما وصفت ، اذن فما قعوده عن الارشاد والنصيحة ؟ » فوافقه الجمع على مقالته وقالوا انه عمل غير صالح ، فاضطر « نوكس » الى الوقوف ، ولكنه ارتج عليه فلبث برهة صامتا حائرا ، ثم أجهش بالبكاء .. وخرج من المجلس يعدو ، ودموعه على وجنتيه أشد عدوا .

ومن ذلك الوقت فصاعدا ، ثار ثورته واشعل المذهب البيوريتاني فى قلوب الناس اشعالا ، حتى عادت الأمة الأسكوتلاندية أمة قسوس، وعادت البلاد وكأنها كنيسة ، وبدأ الناس يحيون ، واعتقادى ان كل ماجاء بعد ذلك من آداب اسكوتلاندة وأفكارها وصناعاتها أثر من آثار تلك النهضة ، بل ان من آثارها أيضا ونتائجها أولئك الرجال الذين هم فخر الأمة الأسكوتلاندية ! جيمس وات ، ودافيد (داود) هيوم ، ووالترسكوت ، وروبرت بارنز، وانى لأجد نوكس ومذهبه ينفثان قوتهما وسرهما فى قلب كل واحد من أولئك الأبطال وهاتيك العوارض، وأرى انها ما كانت تكون قط لولا البيوريتانية ، نعم .. لقد فاضت تلك الثورة الدينية الأسكوتلاندية بالخير العميم على جميع أنحاء الدول البريطانية ، وذلك انها شبت جمرة فى كنيسة ادنبرج (عاصمة اسكوتلاندة) فاذا

هى قد صارت حريقا اسرع فى كل جانب من جوانب بريطانيا ، وبعد أن دارت رحى الجهاد خمسين عاما زف الله الى البلاد عروس الحرية متعة هنية ، وهبة سنية ، والفضل فى ذلك للذين جاهدوا لنا وكافحوا . ولم ينعموا بثمرة كدهم ، ونعمنا بها دونهم ، وما تلك بالقسمة العدل ، أن يصطلوا نار الجحيم ، ونستصبح نحن بنورها ، ونأكل جنى النحل ، وهم يكابدون لدغ أبرها ، وتلك حال هى كما قلت : اشبه بحال الجيش الزاحف على قلعة محصورة ، تبادر مقدمته الخندق المحفور ، فتسدها بجثتها لكى يفوز الباقون على تلك الأجسام كأنها قنطرة فيفتحوا القلعة ويملكوها .. فسبحان قاسم الحظوظ .. لهؤلاء النصر والظفر ، ولأولئك الموت الاحمر ، وكم من رجل كنوكس ، وكروموبل ، كافحوا وجاهدوا وقاسوا ، وكابدوا ، ولاقوا الشدة والبرحاء ، والكرب ، والبلاء ، بل اللوم والتفنيد ، والهجوم ، والتنديد ، قبل أن يسوق الله للبلاد الحرية ، ترفل فى الأوراق الرسمية ، والمواد البرلمانية .

وانه لمن أفحش الجور ، أن تتناول الذرية عرض نوكس بالقدح والذم ، فيكون وهم كما قيل :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر
وحسن فعل كما يجزى سنمار

وعيب وعار الا تزال الأجيال تستثير صدى ذلك البطل من لحده ، ثم تنصبه للمحاكمة كأنه بعض الجناة المجرمين .. ولا جرم له الا اليد البيضاء ، والهمة القعساء ، والصدق الصميم ، والحسب الجسيم ، والا انه كان يحمل تحت ضلوعه اشجع فؤاد فى الأقطار البريطانية ، وانه كان ولا مشاحة ، انبل ابناء جلدته

وانجدهم ، ولو كان متقاعس الهم متقاعد العزم ؟ للزم زاوية بيته كما فعل غيره ، فلم تنتشل اسكوتلاندة من قبضة البلاء ، وراح هو يعرض برىء الساحة أملس الجانب . ولكنه آثر المروءة مع لوم الناس على الدنيئة مع قلة اللوم . فأصبح وحده ذا الفضل العظيم على بلاده ، والنعم الجليلة على العالم أجمع ، فوا عجبا أن يحمل ذلك البطل على أن يستغفر لنفسه من ذنب المروءة واثم المجد ، وأن يسأل اسكوتلاندة العفو لأنه كان أنفع لها من الآلاف المؤلفة ممن لم يذنبوا ذنبه فهم فى مأمن من مثل ما يصاب به من اللوم ، وفى غير حاجة الى مثل ما يقدمه من الأعذار ! وهل فى العدل ان يحل ذلك برجل باع اللذة فى سوق الحق بالألم ، والراحة بالنصب ، والرفاهة بالشظف والقشف ، ونزل المعترك بلا درع ، ولا جنة ، واهدف للسهام صدره ، واحتمل فى الله النفى والأسر ، يسام العذاب الوانا ، ويعرض للرعود القواصف وللرياح العواصف ، الى غير ذلك من ضروب المحن ، وصنوف البلاء ، ولكن ليقل الناس فيه ما يقولون ، فليس والله يعنيه قولهم وهو يعلم من نفسه ما لايعلمون ، وان كان يعنينا نحن أن ندفع الظلم عن رجل لا تزال نرتع فى غرس يديه وأن نقشع ضباب التهمة عن شمس حقيقته .

وارى ان أول شروطنا فى البطولة ، اعنى الاخلاص ، ينطبق تماما على نوكس . وليس أحد ينكر انه مهما تكن عيوبه وعوراته فلقد كان من أشد الناس اخلاصا ، وكيف وانما كان بالحق لا غيره يتشبث وذلك بفطرة فيه وغريزة ، ثم يرى كل ما عدا الحق شبحا باطلا فيدعه ، ولما نفى اسيرا مع أصحابه الى سجون نهر اللوار بفرنسا بعد سقوط حصنهم اثر حصار طويل جاءهم أحـــد

السجانين يوما بصورة مريم وسألهم ان يركعوا لها ، فقال نوكس : « اتزعم هذه ام المسيح ؟ كلا ما هذه الا قطعة خشب عليها الوان وصبغ ! واولى بها ان تطفو على مياه هذا النهر، ثم تناولها فألقى بها فى اليم » . ولم يكن مثل هذا المرح بالشيء الرخيص اذ ذاك . ولكن نوكس لا يبالى فى سبيل الحق ماذا يبذل .

وكان يسلي صحبه فى النكراء ، ويعزيهم فى المحنة السوداء ، ويقول لهم : سيظهر الله الحق مهما لج به الخفاء والحق ابلج ، والباطل لجلج ، وأخو الباطل على الايام مقهور ، وصاحب الحق على كر العصور منصور، والحق سنة الديان ، والباطل مسلك الشيطان ، ولابد من يوم يقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق . فمثل هذا البطل ممن لا حياة له الا فى عنصر الحقيقة ، فهو يتشبث بأعطافها كما يتشبث الغريق فى اطراف الصخرة الركود ، وما احسب الا ان الله قد طبع فؤاد هذا البطل على غرار افئدة الأنبياء ، فهو نبى القلب وان لم يكن نبى اللسان . وما أصدق ما كتب « مورتون » على قبره حيث كتب : « تحت هذه الصفائح رجل كان لا يهاب وجه انسان » وهو أشبه المحدثين بالأنبياء الأولين من رسل بنى اسرائيل ، له ما لهم من شدة التمسك بطريقته والتفاني فى الله وتضحية كل شيء فى تلك السبيل ، وشدة الانحاء باللائمة على كل من شذ عن الصراط السوى والخطة المثلى ، فيا له من نبى عتيق فى ثياب قسيس محدث ، وما ينبغى لنا الا أن نعده كذلك ، ولا نأسف انه كان كذلك ..

وقد انكر الناس سيرته مع الملكة مارى وغلظة خطابه لها وخشونة نصحه ، هكذا يزعم الناس ، ولكن من

قرأ تاريخ هذه الحوادث وجد الأمر على خلاف مايزعمون ولم ير لنصائح الرجل ومقالاته من الغلظة ما ينسب اليها ، بل آني لأراها من اللين على قدر ما كانت تسمح به الحال اذ ذاك ! ولم يمثل نوكس أمام الملكة ليعطيها ملق الحاشية وانما الأمر غير ذلك كان مثوله هنالك ، ومن قرأ محاوراته معها فلم ير فيها الا قحة سوقى لأميرة أخطأ وجه الحقيقة واشوى مقتل الصواب ، لأنه كان من المستحيل اذ ذاك أن يجمع جامع بين التادب في حضرة الأميرة وبين مصلحة الأمة الأسكوتلاندية وشرفها، ومن كان همه حينئذ أن يحمى البلاد من أيدى الأجانب من أمراء فرنسا ويربأ بها عن أن تكون مدبا لمكايد أمثال « دى جيز » ومسرحا لمطامعهم ، ويعتزف بدين الله عن مساقط الذلة ومواطىء الاقدام، ومواطن الكذب والضلال فغير مليء أن يتـذرع بحلاوة الملق وعذوبة الاطراء الى الحظوة لدى الأميرة والحال عندها ، وما أصدق قول «مورتون» حيث يقول : « لأن تبكى النساء خير من أن تخضل اللحى بدموع الرجال » ، وماذا كان نوكس يفعل وقد راى الأوطان ، قد خانها الأعوان ، ونام عنها الأنصار ، وتواكل من اشرافها ، وتخاذل من عيونها واعلامها ، من كان يرجى للكريهة ويدخر للجلى ، أكان يقعد عنها فيمن تقاعد ويخنس فيمن تقاعس ويتركها نهبا لأيدى الحوادث وغرضا لسهام الخطوب ؟ كلا ما هذه شيمة الرجال، ولا تلك سجية الأبطال ، وهذا أمر دونه خرط القتاد ، وضرب الأجياد ، وقالت له الأميرة مارى حين جاء ينصحها : « من هذا الذى قد بلغ من جراته انه تكلف نصيحة وجوه هذه المملكة واميرتها ؟ » فأجاب : «سيدتى ! رجل من رعايا هذه المملكة وابنائها» جواب أصاب والله المفصل وقرطس الغرض !

نحن نلوم نوكس على عدم تسامحه ، ولا انكر ان التسامح محمود بشرط الا يتجاوز الصغائر الى الكبائر والقشور الى الجواهر ، وانما التسامح الصادق هو العدل وامتلاك النفس عند الغضب ، والا يكون المرء لئيم القدرة ، فأما التسامح مطلقا بلا حد فهذا من المنكر الذى من حق النبلاء أن يترفعوا عنه ، وما ارسل الله المرشدين والهداة ليتسامحوا ، ولكن ليجاهدوا ويكافحوا ويهزموا ويقهروا ، نحن لا نتسامح فى جرائم الكذب والسرقة والظلم اذ أصابتنا ، وانما نخاطبها بقولنا : « انت أكذوبة ، وانت سرقة ، وانت ظلامة لا يتسامح فيك ولا يتجاوز عنك ! » وانما نحن فى هذا العالم لنخمد الأكاذيب ونقطع دابرها بطريقة صالحة ! ولست مشددا النكير على طريقة استئصال الباطل وان شابها العيب ، فحسبها أن بلغنا الغرض من ازالة الشر ومحو الباطل ، ومن هذه الوجهة ، أعنى من وجهة الضلال ولو بواسطة معيبة ــ بالواسطة التى لم يمكن غيرها ــ كان نوكس عديم التسامح .

وما كان رجل اضطهد ونفى الى بلاد الغربة أسيرا سجينا ليكون فى معظم أوقاته الا مرالطباع وعر الناحية! ولست بقائل قط ان نوكس كان فى طبعه عذوبة وفى جانبه لين ودماثة ولا انه كان سيىء الخلق شرس الشيمة ، ولم يخل قلبه من عواطف الرحمة والبر والرأفة ، هذا ولقد كان فى جرأته على الملكة باللوم وفى رجاحة وزنه عند أشراف اسكوتلاندة ــ اولئك الذين كان لهم من الكبرياء والتيه الميزان الراجح ــ واستطاعته أن يقبض على زمام النفوذ فى تلك البلاد الوحشية العاتية زمنا طويلا ــ لقد كان فى كل ذلك دليل على ان الرجل لم يك حرج الصدر ضيق العطن ، وانما كان رجلا حمالا

للصبء ، نهاضا بالفادح من الأمر مضطلعا بالباهظ من الخطب ، ولا يكون ذلك الا لمن أوتي بسطة في الحلم ، وفضلا في الذكاء والعقل ، وقد ينعون عليه تهديمه للكنائس كما لو كان ثوريا مخربا، وانما أمره عكس ذلك لو انعمنا النظر ! وما هدم الزور والفساد وغسل القلوب من كل دنس ورجس ؟ نعم ، ولا كان ديدنه الثورة بل النظام التام ، وانما كان من سوء حظه أن الجيء الى الثورة في سبيل امضاء عزمه ، وما كان مثل هذا الرجل ليكون الا عدوا للثورة والفوضى ، ولكن ماذا يصنع اذ لم يجد بدا من ركوب الفتنة لبلوغ غرضه ؟ يركبها الرجل المضطر ، يركب الصعب وهو عالم بركوبه، هذا وانه كان على الحق ، والحق هو النظام .

ومن العجيب غير المنتظر ان نوكس هذا كان فيه مزح وفكاهة ، وكان بصيرا بمواضع الضحك في كل شيء ، وصفحة تاريخه مخللة من سطور الفكاهة بما يلين من قسوة جدها ويحلي من مرارة وقارها . فلما تشاجر اثنان من القسوس بباب كنيسة «جلاسجو» على الاولوية في الدخول من ذايتقدم صاحبه ، وآشتد الخصام بينهما وعلا الضجيج وتخاطبا بعصويهما كان لنوكس في هذا المنظر مضحك ، أي مضحك ! ضحك فيه مع التهكم والازدراء ، والمرارة شيء من الرحمة والرثاء والعطف — لا قهقهة وانما ابتسامة تملأ العينين اشراقا ، ورجل رقيق الفؤاد ، كثير الوداد ، محب لبني آدم ، أخ للقوى واخ للضعيف ، صاحب للوضيع ، صاحب للشريف ، وكان يتناول الكأس في حان الخمار بمدينة ادنبرج — دليل والله على رقة طبعه ولطف شمائله ، وانه لم يك كما يزعم الناس بالشرس النكد الجعد الاخلاق الجهم

الطلمة المكفهر الجبين المتعصب الصخاب ، كلا ، انه كان من أثبت الناس أمرا وارسخهم حالا .. حازم بصير جلد صبور ، طويل الاغضاء عن الأمر الذى لا يفسد عليه أمره ، فان عرضت مفسدات الشرف والدين قام لها على قدم ، فهو كما قيل :

صفوح اذا ما الذنب لم يعد حده
الى الوتر تباع قفا الوتر ارقم

وكما قيل :

له سورة مكتنة فى سكينة
كما اكتن فى الغمد الجراز المهند

لقد جاهد هذا البطل فى الله حق جهاده ، وركب من عيشته متن صعبة عوصاء ينافح الأمراء ، ويكافح الزعماء ، بعزم لا تفل من حده الخطوب النوازل ، وجنان ثابت على الهزاهز والزلازل .

ترى ساكن الأصال باسط وجهه
يريك الهوينا والأمور تطير

كابد والله من حياته هول حروب ضرس ، ووقائع حمس ، ولكنه خرج منها كالصارم العضب يجول فى صفحتيه رونق الظفر ، وفرند الفوز والنصر ، وأن كان بمضربيه فلول وثلم ، وما زال الأمل حليفه حتى دخل معه قبره ، فلما جاءته سكرة الموت واعتقل لسانه ، سالوه : « هل عندك امل ؟ » فرفع اصبعه يشير نحو السماء ، ثم فاض ، له المجد والشرف وسقى عهده الغمام .

كلمة فى الختام عن مذهب نوكس — كان مذهبه سيادة الكنيسة على الحكومة ورئاسة القسس على الملوك ،

او بعبارة اخرى حاول أن يجعل على اسكوتلاندة حكومة دينية . وهذه فى نظر الناس جريمته ، وحقا لقد حاول أن يسير الناس جميعا على كتاب الله ملوكا وسوقة ، وأن يعلموا أن هذا قانونهم الذى ليس فوقه قانون ، وشد ما ساءه اغتصاب جياع الأعيان أمتعة الكنيسة ، وقد جعل يقول : ان هذه ليست ملكا مدنيا وانما ملك ديني ، وحقها أن توقف على منفعة الكنيسة ـ على التعليم ، والمدارس ، والعبادة . فأجابه الوصى « موران » مستهزئا : « هذه أحلام تقية » .

ذلك مذهب « نوكس » الذى سعى فى تحقيقه ، وانه وان يك اخفق فى بلوغ ذلك ولكنه لم يخفق فى احياء الدين وبعث الأمة من طول رقادها مبعثا كان أصل رقيها ونهضتها ، ومجدها وعظمتها ، وكيف ينعى الناس عليه مذهبه ـ كيف ينكرون منه محاولته أن يجعل الحكومة لله وتلك ما لانزال نحاول ونرجو ، وما جاءت الرسل والقسوس الا لذلك ، وقد أرادها «هلدبراند» وحاولها « كرومويل » وبلغها « محمد » ... أو لم تزل امنية كل غيور مخلص ، وكل ولى تقى ، وكل رسول نبى ! ولا يسعنا الا شكر ذاك القسيس البطل الذى حاول جهده تحقيق هذه الأمنية : وافنى فى طلبها أيامه بين الكدح والجد ، والمعارضة والرد ، والنصب والسهر ، والحبس والأسر .

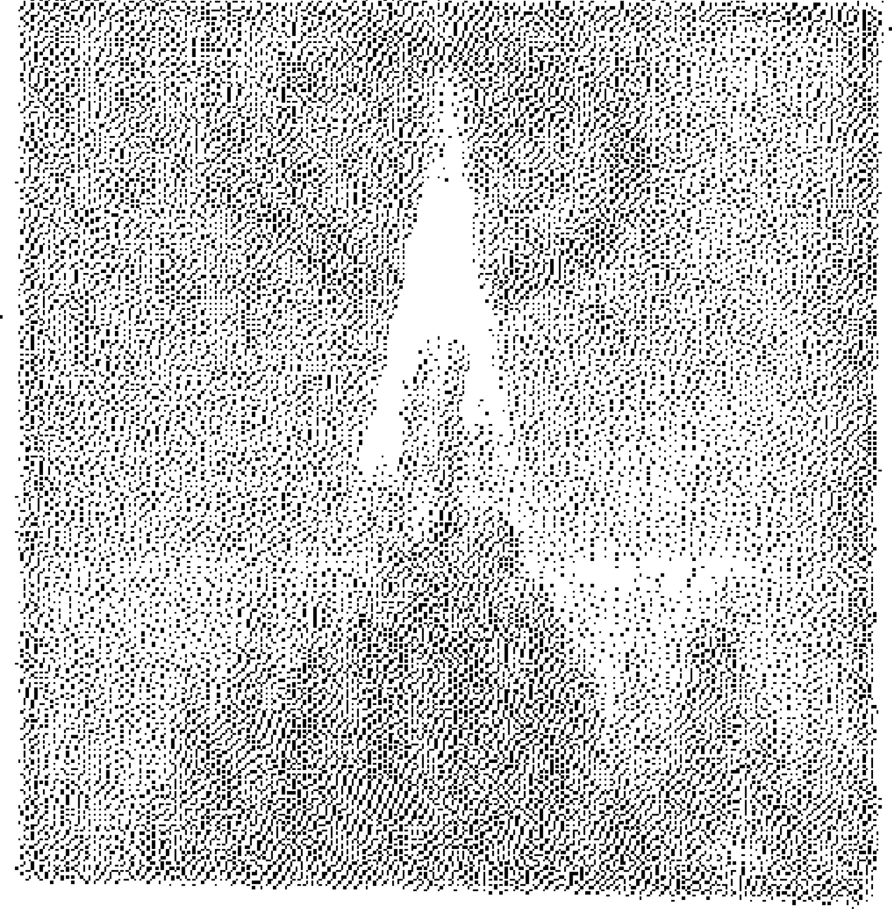
●

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة - ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :
THE ARABIC PUBLICATIONS
7. Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND

البرازيل :
M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.



هـذا الكتاب

كتاب « الأبطال وعبادة البطولة » لتوماس كارلايل ٠٠ من الكتب الفريدة في بابها في التاريخ ٠ انه سبع محاضرات عن البطولة القاها في جامعة لندن توماس كارلايل كبير المفكرين والناشرين الانجليز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وفسر فيها معنى البطولة ونفذ الى لبابها ، واجاب على سؤال عسير هو : من هو البطل ولماذا يبلغ تقدير الناس اياه درجة التقديس ؟٠٠

وقد اختار كارلايل سبعا من عظماء التاريخ جعلهم رموزا على البطولة ٠ كلا في ميدانه ٠٠ ومن بين صور البطولة التي اختصها بمحاضرة : صور البطل في صورة نبي تحدث فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على نحو لم يسبقه اليه كاتب أو مفكر غربي ٠ وللمرة الاولى في تاريخ الفكر الغربي يرى الناس محمدا بن عبد الله كما ينبغي ان يروه ٠٠

ومن نصف قرن قام الاديب الكبير محمد السباعي بنقل هذا الكتاب الى اللغة العربية نقلا فريدا يمتاز بدقة الفهم وفخامة اللفظ والاسلوب ٠ ومن بين كتب محمد السباعي الكثيرة يعتبر هذا الكتاب اجملها وادلها على شخصيته واسلوبه ٠

انها ليست ترجمة حرفية ، انما هي عمل ادبي لاديب عربي كبير على اساس عمل ادبي لمفكر غربي كبير ٠

لهذا اختار الهلال ان يقدم هذا الكتاب ضمن سلسلته التي تعتبر ذخرا من ذخائر المكتبة العربية ٠٠

ولم نر ان نختصر في الكتاب لكلمة واحدة ، ولهذا فاننا ننشره في جزءين في شهرين متواليين حتى يقتنيه كاملا كل حريص على عيون الادب العالمي ٠٠